أهديها لزوجتي العزيزة ليلى، وهي أول رواية أنجزتها، في خريف العمر.

نزيف المسافات

رواية

صالح البياتي

مقطع من نص شعري

هناك كان بيت
حين تهز ريح الخريف
ستارة الباب الطويلة
يتسلل المساء دافئا كئيبا
من شقوق القماش
كمواء قط جائع.

صالح البياتي

الفصل الأول

كان اســمي إجباري، ولم أكن احبه، واتضــايق جدا عندما ينادونني أصــدقائي به، اشعر أنهم يستهزئون بي في سرهم، فصـممت ان أبدله، وكان اصـراري هذه المرة قويا، ليس كالمرات الســـابقة، التي كانت امي تكتفي بجواب غامض، عندما اسألها لماذا اخترت لي إسما قبيحا، هل ندرت الأسماء ولم يبق سواه، فكانت تجيب ســتعرف الســبب، ولكن حين يأتي الوقت، وكنت لا أجرؤ على مخالفتها، لكن هذه المرة لم استسلم كما في السابق، طلبت منها ان تغيره قبل انقضاء العطلة الصيفية، وإنتقالي من المرحلة المتوسـطة الى الإعدادية ؛ مع بداية العام الدراســي الجديد، واستجابة لأصـراري، وافقت اخيرا، واتفقنا على الذهاب لمحكمة المدينة، سـألتني ما الأسم الجديد الذي اخترته انت، فقلت متحمسـا، نوح.. ابتسـمت؛ كيف خطر لك وفكرت بمثل هذا الاسم الجميل.

حكيت لها عن تلك الليلة قبل ثلاثة أعوام، التي انهمر فيها المطر غزيرا، وتدفق الماء فجأة من باحة البيت؛ المكشــوفة للســماء الى الحجرتين الاوطأ مســتوى، فغمرتهما بسرعة جنونية، سمعتُ صراخ أم سعيد تستغيث بنا، كان ابناها سعيد ومقبل يحاولان عبثاً، وقف المياه المتدفقة، لا زلت أذكر يا أمي برد تلك الليلة القارص، وقصــف رعودها المخيف، وبروقها التي كانت تصــفع وجه الســماء كسياط نارية؛ في تلك اللية الشتائية الشديدة الحلكة.

انطبعت تلك الليلة في ذاكرتي الطفولية؛ كالوشــم الأزرق الذي يزين أصــابع كفيك، خُيل اليَّ في تلك الليلة، أنني أسمع صوت المرأة يأتي من المجهول، مخترقاً حجب الغيب، كانت تصيح أغيثونا.. طوفان.. راح نغرق.

التقطت اذناي كلمة طوفان، وكنت آنذاك صـغيرا وشـغوفا بقصـصـك المثيرة، الماتعة والمدهشـة، وعلق بذهني الشـيء الكثير منها، خاصـة قصـة النبي نوح، والطوفان الذي غمر الأرض، وأدهشـــتني أكثر ســـفينته العجيبة، التي كانت من ألواح، وهي تجري بين أمواج هائلة كالجبال، عظمت في مخيلتي الطفولية، ما قام

به من عمل بطولي، بإنقاذ البشــر من هلاك محقق، فنظرت الى تضــحيته، بإكبار وإجلال، وأحببته كثيراً، كنت أحلم أحياناً بتلك الســفينة وأتخيل نفســي واقفاً بجانب النبي العظيم، ربان الســـفينة التي تمخر البحر الهائج بحمولتها الغريبة، وهو يدير دفتها بحذق نحو بر الأمان، تداخلت تلك الصورة مع صراخ أم سعيد المستغيثة من المطر المنهمر مدرارا، ومنذ تلك الليلة وأنا أحلم بالاسم الجميل، الذي سيأتي اليوم المنتظر الذي أُسمى به.

تـأثرت أمي ودمعت عينـاهـا الصـــغيرتـان، وظهر الوشـــم على ظـاهر كفيهـا الأبيضين أكثر زرقة، وأقرت أن حان الآوان لأسم جديد احبه.

في اليوم التالي وقفنا أمام قاضـــي المحكمة، في محلة الســـراي بمدينة العمارة، واجابت امي بنعم، على ســؤاله، اتريدين تغيير اســم أبنك، وهززت انا رأســـي مرتين، حين سألني، أتقبل ان تغيره، أمرني القاضي أن أجب بنعم أو بلا، وبحماس لفت نظر القاضـــي أجبت، نعم أريد تغيير أســـمي. فســـألني، لماذا تريد تغيره، وبحماس اكثر صرخت، لأني لا أحبه.. ولماذا لا تحبه.

التزمت الصمت، ابتسم القاضي، حول نظره للأوراق التي أمامه.. أحسنت بني الاختيار، أســم مبارك لنبي عظيم، أبي كان اســمه إجباري أيضــاً، ولو كان حياً ويمتلك نصف حماستك، لبدله في الحال، ولكنه لسوء الحظ، جُند في حملات السفر برلك ولم يعد.

عدنا من المحكمة بعد الظهيرة، شعرت كأني محارب قاتل بشجاعة فأنتصر في المعركة، سرت بجانبها صامتاً، وانا أفكر بما ذكره القاضي عن السفر برلك، دون أن أفهم شيئا، وانتظر الوصول للبيت، لأسألها، وفي الطريق التقيت بزميلي أنور، فأخبرته اني بدلت أسمي، ضحك وضربني على كتفي، لم أدر لماذا، قلت.. سنلتقي قريبا في الإعدادية ، ولكني تألمت عندما أخبرني أنه ســيترك المدرســة، ويســاعد والده في محل الحلاقة الذي يمتلكه.

عند عودتي للبيت، نسيت في غمرة الفرح مشكلة أنور والسفر برلك، التي كنت اريد ان أســأل امي عنه، لم أفكر بشــيء آخر غير اســمي الجديد، وعندما تم ذلك، طرت من شــدة الفرح، واحتفت امي بالمناســبة، طبخت دجاجا بالمرق، واشــترت

خبزا ساخنا من أم حنون، جارتنا في الخربة الملاصقة لبيتنا، وقفت امي وسط المدعوات للعشاء في بيتنا، وأعلنت عن أسمي الجديد، وأشارت بيدها نحوي، أخواتي منذ الآن نناديه باسمه الجديد نوح. ثم خاطبتني بجد، ارتسم واضحا على وجهها وظهر في صوتها العميق، الذي تفجر قوة، كسرت حدته رقة الأمومة، طلبت مني ان أعدها انني سأكون جديرا بالإسم النبيل طوال حياتي.. اعدك يا أماه، واقسم على ذلك.

فرحت بي أمي وقبلتني فبللت خدي، فكررت القسم مرة اخرى، اعدك ولله.

وبمرور الوقت، اعتدت على اسمي الجديد، الذي أخذ يحل محل القديم، في البداية كنت مرتبكاً ومشوشاً، أخلط بين الإثنين عند مناداتي به، ولكن عندما دون أسمي الجديد في سجل المدرسة، وراح المدرس يناديني به، عند اخذ الغياب في بداية الدرس، تلاشى الاسم القديم تدريجياً، كقطرات الندى بعد شروق الشمس. وغاص في أعماق اللاوعي، ولكن الاستثناء الوحيد، الذي قاوم ذلك، كان يتمثل في جارتنا أم حنون، التي أصرت بعناد أن تناديني بإسمي القديم، عندما تبعثني لشراء ما تحتاج من السوق القريب، كانت تتودد الي لكي البي طلبها، يمه إجباري فدوه لعيونك، فدوه لطولك.

فكنت اسرِع للذهاب دون اعتراض أو تقاعس، ولكني قررت يوما، أن لا استجيب لها اذا نادتني بأسمي القديم، ولكي اقرن تهديدي بالجدية، قلت، منذ اليوم لن يستجيب لك إجباري، لأنه مات ودفناه. أفزعتها، قالت وهي تنظر ألي مندهشة، أسم الله عليك.. إبتسمت لطيبتها، فقلت اسمي القديم هوالذي مات، الله يخليك خاله إنسيه، ناديني نوح.. أنا الواقف امامك نوح. لم تفهم ما قلت لها. فحاولت ان أقرب الموضوع لذهنها لتفهمه، بدلت اسمي باسم جديد، كما نبدل ثيابنا القديمة بثياب جديدة في العيد.. إعترضت، كيف.. الاسم مو مثل الثوب، حتى نبدله بجديد عندما يعتق.. حسمت الجدل معها، هكذا نفعل عندما لا نحب شئ نتركه..

لم تفهم ذلك أيضاً، ولا تزال الخالة أم حنون رقماً مستعصياً في معادلة الزمن الجنوبي الذي لا يهزم بسهولة.

لا زلت أتذكر الخالة أم حنون، وما حدث منذ عقدين ونصـــف، كلما نظرت الى وثيقة تبديل اسـمي المؤرخة في العام 1957، وعليها إمضــاء القاضــي عبد الهادي إجباري، الذي صـــار من أعز أصـــدقائي رغم فارق الســن الكبير بينا، مرت تلك الذكريات القديمة كشـريط سـينمائي أمام عيني، نزعت نظارتي الطبية، وضـعتها أمامي على المكتب، سـمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتي، قمت لأفتحه، فسـمعت أمي من وراءه، تسألني، هل ستذهب اليوم لصلاة الجمعة.. سأذهب.

وعندما خرجت وجدتها قد عادت لســريرها، اغتســلتُ ثم ارتديت الدشـــداشـــة البيضـاء، هدية التاجر موسى الكيال، عندما عاد من حج هذا العام، وبه أكمل الحج الثالث، لبيت الله الحرام.

عندما حل الربيع في مدينة العمارة، انتشـرت حكاية غريبة، عن حرب وشـيكة الحدوث مع الجارة إيران، ورغم أني قد سـمعت بها قديما من صـــديقي هلال، إلا أنني نســـيتهـا تمـامـا، مع مرور الزمن الجنوبي البطيء، والآن عـادت بقوة مرة أخرى، تتناقلها الألسن دون وعي، وكأنها نبوءة داموسيه عن نهاية العالم.

كنت يوما مع صديقي هلال، نراقب المياه المنحدرة بقوة، والمعتكرة بالغرين الأحمر، المتدفقة من الدجلة الأم الى الكحلاء، كان الربيع قد حل منذ وقت قريب، عندما بدأت الثلوج بالذوبان من قمم جبال كردستان.

كان ذلك في نفس العام الذي بدلت فيه أسمي، التفت الي ثم اشار بيده للمياه، سيأتي يوم تصطبغ فيه هذه المياه بالدم.

تعجبت، ولم أفهم منه شيئاً، ولكني تابعت المياه المتدفقة بسرعة في النهر، كانت تدور في دوامة كبيرة، عندما تصدم بالمركب القديم الغرقان، لقد كشف هلال ببراءة طفولية، سراً عن حرب، تنبأ بها شاعر مندائي قديم.

كان القتال بين الجيش والكورد يندلع أحيانا، أيام العهد الملكي، رأيت وانا صـبي يافع، نعوش الجنود القتلى، القادمة من الشـمال، ضـحايا معارك يُقتل فيها عراقيين من الجانبين، كان والدي عبد الله الفرحان واحدا منهم، لم اع معنى الحرب، شعرت بالاضــطراب والتشــوش، لان الحرب التي تنبأ بها الشــاعر المندائي شــيء آخر، أعظم من معارك الشمال، وأفظع وأخطر.

وحينما اشـــتعلت الحرب العالمية الثانية، قبل ســـنة واحدة من ولادتي، كانت مـدينتي بعيـدة كـل البعـد عن نيرانهـا، تـأججـت ثم انطفـأت، دون أن يعرف عنهـا الفقراء كثيراً، لكن نتائجها ظهرت بارتفاع أسـعار المواد الغذائية الأسـاسـية، ترك اثرا ســلبيا على حياتهم المعيشـــية، اما الذين اهتموا بها فهم اقلية من المتعلمين الأفنديـة، وموظفي الحكومـة المحليـة، في لواء العمـارة، وكـذلـك التجـار من ذوي الأصول البغدادية، وكانت أسرة موسى الكيال واحدة من هذه الأسر المعروفة.

اسـتغل التجار ظروف الحرب، فازدادوا ثراءً، اعتاشـوا عليها كنباتات طفيلية، تاجروا حتى بمخلفاتها من الحديد، بعد انتهاءها، في مكان يقال له سكراب الشعيبة في لواء البصـرة، بينما كان الفقر وشـظف العيش، همُّ الفقراء الأكبر، الذي يفوق أي شيء آخر.

كنت آنذاك صـغيراً، لا أعرف ما الحرب وما أهوالها، ولم تعن لي شـيئاً البتة، لكنها تجسـدت لي بمحض الصـدفة، بوجه بشـع أكثر بشـاعة من الفقر، حدث ذلك ذات يوم، كنت أزور صـديقي فوزي في بيته، كنا زملاء في المدرسـة المتوسـطة، فرأيت والده خارجا من إحدى غرف المنزل، يجر ســـاقه بطريقة غريبة، لفت انتباهي، فسألت ما به، فأخبرني أنه كان ضابطاً في الجيش، وقاتل اليهود عام 48 في فلسطين، وأصيب ساقة إصابة بالغة، فبترت واستبدلت بساق خشبية، حرب مضـى عليها خمس سـنوات، لكن الزمن لم يمح اثرها، ظهرت أمام عيني، متمثلة برجل معافى، متين البنية، لكنه للأسـف يسـتعين بسـاقٍ خشـبية.. كان منظره مثيرا للأسى، ولكن الرجل كان فخورا، مرفوع الرأس، يحمل وسام الشجاعة والبطولة.

ومضـت السـنوات تباعاً، متخطية زمن البراءة والسـذاجة، في مدينتي المعزولة عن العالم، زماناً ومكاناً وتقدما حضـــاريا، كانت بغداد التي لم ارها، تخيلتها آنذاك بعيدة، كنـا نتذكرهـا حين يـأتي منهـا أحد من الأقـارب، يحمـل معـه هدايـا جميلـة للأطفال، كنت لا أســتطيع تقدير أبعاد المســافات، والاتجاهات، عدا تلك التي بين البيت والمدرسة.

في ذاك الزمن المشطوب، وغير المدون في سجلات التاريخ، كنت في طفولتي الباهتة، كبقية الأطفال، نتصـــلب كالطين بســرعة، تحت شــمس صــيف الجنوب

الملتهبة، ونذوي ببطئ في بواكير الشباب، كأغراس عطشى تحلم بالماء، عشقت مدينتي، فكتبت عنها في دفتر مذكراتي الذي اسميته (كنزي الثمين)، اخرجته من الدرج، وفتحت الصفحة التي تصف مدينتي، كان مدرس اللغة العربية، في السنة الأولى اعدادي، الفرع الأدبي، قد اكتشف موهبتي المبكرة، وبراعتي في الإنشاء والتعبير، عندما قرأ لي هذا النص النثري الذي امام عيني الان، عن مدينة العمارة:

’’ مدينتي كآدم، مجبولة من ماء وطين، في الربيع تعبق حدائقها بشذى الياس والجوري والرازقي والقداح، وتحيط بها البساتين كعقد أخضر يطوق جيدها المائي، تفوح بروائح غريبة، من أشجار السدر وشماريخ النخيل، كأنه آت من وسط الجنة، متى فارقتها ثم عدت اليها، ستجدها كما هي، كأنك أودعتها في صندوق مغلق، ليس لها نصيب من بذخ المدن الكبرى، سوى اسمها الأسطوري، ’’ مي سان‘‘تمتد من الأفق الرحب حتى حافات مياه الأهوار، ارض باركتها آلهة سومر وبابل وأكد في الزمن الغابر، زمن البراءة. ‘‘

أغلقت الدفتر، وأعدته لدرج مكتبي، وتهيأت للخروج لصلاة الجمعة، وقبل مغادرتي المنزل، ألقيت نظرة حزينة على والدتي النائمة، انسللت حذرا، أغلقت الباب ورائي بهدوء وخرجت، وفي الطريق كنت أفكر بالمسألة التي شغلت بالي هذه الأيام، الحرب مع إيران، وارتأيت طرحها على الشيخ حامد الموحان، إمام جامع النجارين، الذي أعرفه منذ زمن بعيد، عندما سكنت عمته أم سعيد وابنيها نزلاء في بيتنا، وأن اطلب منه ايضا الدعاء لأمي بالشفاء من مرضها المفاجئ، الذي بات يقلقني كثيراً.

التقيت التاجر موسى الكيال، على مقربة امتار من الجامع، فسألني عن صحة والدتي، ورحنا نتحدث ونحن نسعى بخطوات بطيئة، نحيي أو نرد تحيات الناس، أو نتوقف برهة، مع صديق لإسداء خدمة في مسألة ما، كثيراً ما كنت أمرَّ بهذا المكان في طفولتي، ولم ألحظ مع مرور الزمن الجنوبي البطيء، أقل تغيير يذكر، ولكنها الآن، ومنذ بضعة سنوات تغيرت كثيراً، فورش النجارة بدأت تستعمل المكائن الحديثة المستوردة، لصناعة الأثاث، وظهرت محال جديدة لبيع العدد النجارية، طرأ على المكان تطور وتحديث ملحوظ، بقى كل شئ في مكانه، المقهى القديم عند الزاوية، ولكن أختفت التوابيت الخشبية التي كانت تسند كوقف خاص

على جانبي باب الجامع، ومات بائع الحلقوم السمين، الذي كان يجلس على كرسي، وأمامه منضدة خشبية مرتفعة لمستوى كرشه الضخم، تستقرعليها صينية من الفافون، مليئة بتلك الحلوى اللذيذة، كان يقدم الواحدة لزبائن خاصين، اغنياء، على أنها هدية، فيكرمونه درهما ملكيا على هديته.

كان باب الجامع مشرعا، حينما وصلنا قبل اذان الظهيرة، وكان جل المصلين من الفقراء المعدمين، ومن أصحاب ورش النجارة، كان خشب الباب قديماً، ولكنه صامد يتحدى تقلبات الفصول، وقساوة المناخ، توحي شقوقه بتعاقب الزمن، ملطخاً بالحناء التي يبست منذ حين، وتركت بصمات النذور القديمة والجديدة، واكف النسوة الملتاعات، أو المتوسمات خيراً من نذورهن، لفرج اجل او عاجل.

وقبل بدء الصلاة، تقدمت نحو الشيخ بعد ان فرغ من سائليه، سلمت عليه، وجلست القرفصاء أمامه، تبادلنا كلمات الترحيب المعهودة بي صديقين قديمين، لم تفرقهما ظروف الحياة، ولا تقلبات الأوضاع السياسية المستمرة، التي عصفت بالبلاد منذ سقوط الملكية، والتي لا تزال تأخذ بخناق الناس، كلما حاولوا أن يتنفسوا الصعداء، سألني عن صحة والدتي، اخبرته عن مرضها المفاجئ، فأبدى اسفه وحزنه واستفسر عن مرضها، فقلت وأنا أنظر الى لحيته التي وخطها الشيب، بأني لا أعلم، لم تك تشكو من شيء، كانت صحتها جيدة، عدا الماء الأسود في العينين، وقد أُجريت لها عملية جراحية ناجحة، في مستشفى الراهبات ببغداد، قبل بضعة سنوات، لقد فاجأني مرضها، وبصعوبة أقنعتها أن ترى طبيباً، كانت ترفض أن يكشف عليها رجل، وبعد أن عاينتها الدكتورة جنان طبيبة الأمراض النسائية، لم تستطع بالضبط تشخيص المرض، ولكنها لمحت لي على انفراد، بعد أن فحصت صدرها وتحت إبطيها، عن شكها بالمرض الخبيث، واقترحت عليّ أسم طبيب أخصائي أورام، في بغداد، كتبت لي اسمه وعنوانه ورقم هاتفه، وأكدت لي أن وسائل التشخيص هناك أدق وأفضل، وقد اتصلتُ فعلا بالدكتور، وسأحاول اقناعها للسفر، أيد الشيخ كلامي بهزتين من رأسه، ولكن عندما قلت انها معاندة، اعترض الشيخ، بل هي بالعكس امرأة مؤمنة وصابرة.

ثم استدار نحو القبلة، تراجعت للوراء وجلست في المكان الذي حجزه لي الكيال على يمينه، في الصف الثاني من المصلين.

انتهت الصــلاة، وبدأ الشـيخ بالدعاء بصــوت يختزن طاقة من عذابات ماض، وهموم حاضــر مثقل بالقلق، كصــخرة على الصــدر، ومســتقبل تشـوبه وتحجبه المخاوف والمفاجآت، خفضَّ صوته، وراح يقرأ دعاء كشف السوء:

(أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء)

كرره خمس مرات، رددها المصــلون بعده، إرتفع صــوته عالياً، كأنه كرات نارية يقذفها نحو الســماء، فســمعه كل من كان خارج الجامع، في تلك الظهيرة الربيعية الرائعة، قبل الحرب بستة أشهر.

كرر كلمة يا الله، خمس مرات، في المرة الأخيرة تهدج صوته واختنق بعبراته، عندما رفع يديه، ودعا لأمي بالشــفاء، وطلب من المصــلين الدعاء لها، ردد المصــلون يا الله بعده، فكتمتها في صــدري، وبالكاد سـيطرت على نفســي، من الانجراف في موجة بكاء مدوية، فأمي تعني كل شــيء، عالمي وهوائي الذي أتنفســه.. ومن أجلها أعرضــت عن الزواج، كل هذه الســنوات بعد التخرج من الجامعة، والعمل الوظيفي ونيل شــهادة الماجســتير بامتياز، التي تؤهلني لا كمال الدكتوراه في الخارج، والآن أنا في سن التاسعة والثلاثين.

انفض المصــلون، ولم يبق أحد غيرنا، الشـيخ وموســى الكيال وانا، خضــنا بمواضيع ذات علاقة بالوضع الراهن، بمشاكل وهموم الناس، وخاصة فقراء محلة السرية، وما يجيش في نفوسهم من مخاوف وقلق، بسبب الأحداث المتسارعة، بعد سـقوط شـاه إيران، في شـباط من العام الماضـي، وتدهور الأوضــاع المسـتمر، والتوتر الســائد في العلاقات بين البلدين، العراق وإيران، وما يخفيه الغيب، بنذر اندلاع حرب شعواء مع الجارة الشرقية، ستكون مدمرة وقاسية، وعواقبها وخيمة، كما تنبأ بها المندائي سـنيجر، ودونها على شـكل قصـيدة طويلة باللهجة الدارجة، والمثير للقلق أن الناس راحوا يتناقلونها في الأســواق، ويزعمون أن الحرب باتت وشيكة، بحسب ما جاء في النبوءة، وأن طبولها بدأت تقرع بقوة، يسمعها القاصي والداني، وعندما سـألت، الشيخ عن رأيه، ابتسم وطمأنني بأن لا أشغل بالي بكلام العوام فهم كالأنعام، هم في هذه الأيام، يخوضــون في كل شــيء، وأنهم عندما تمتلئ بطونهم، تفرغ رؤوسهم من الحكمة والعقل .

عبرت عن هاجسـي حينما عدت بذاكرتي للماضـي، وما سـمعته أول مرة من صـديقي هلال، الطبيب الناجح جداً الآن في مهنته، والذي يزدحم المرضـى على عيادته، لازلنا اصدقاء، نتبادل الزيارات، في مكان العمل أحيانا، أو في البيت أكثر الأحيان.

إنها حكاية قديمة جداً، سـمعناها ونحن صـغار، وقد سـمعها آباؤنا من قبل، فهذا المندائي عاش في أواخر العهد العثماني، كما أخبرني الكنزبرا الشـيخ المندائي، الذي كان ترميذا آنذاك، عندما سمعتها اول مرة من ابنه هلال.

ابتسـم الشـيخ، ربما تذكر هو أيضـا، حكاية من طفولته، حينما كان يعيش هناك في قريته النائية، في أعماق الهور، أو لربما تسـاءل في تلك اللحظة، في قرارة نفسـه، كيف يصـدق أسـتاذ مثل نوح هكذا تنبؤات، وهو رجل مثقف، يحمل شـهادة ماجستير في الاقتصاد، ويشغل وظيفة مرموقة، مدير مصرف.

فكان رأيه أن هذه التنبؤات، لا يصـدقها إلا الجهلة، وما هي إلا رجم بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله سـبحانه وتعالى، فهو وحده علام الغيوب، ولا ينبغي علينا نحن المؤمنون تصديقها

اسـتمر الحديث بيننا، واسـتطرد التاجر الكيال، يتحدث عن معرفته الطويلة، بأحوال المدينة، أسـرها وبيوتاتها القديمة، وعشـائرها، ومن حل بها عند مجيء الاتراك، ومن ارتحل منها الى العاصـمة بغداد، أو الذين نزحوا اليها من اطرافها من القرى والأرياف، بما يمتلك من معلومات وخبرة طويلة بتاريخها، فهذا الرجل السبعيني، المخضرم، كان في الثانية عشر، عندما احتلت طلائع الجيش البريطاني مدينة العمارة، وطردت الأتراك منها، عاصر في شبابه بداية تأسيس الحكم الملكي في العراق، وتربط إسـرته علاقات صـداقة مع أركان الحكم الملكي البائد، يمتلك ذاكرة قوية، وكان شاهدا بنفسه لأحداث سياسية هامة، وأخرى سمعها ونقلها عن والده آغا عمران كيال، يفتخر ويتباهى بأسـرته العريقة، امتحنته الحياة، وعركته التجارب، فخرج منها متسـلحا بالفطنة والحنكة والمكر والدهاء، وبعد ان أفاض بالحديث، سـخر من غباء الذين يروجون لنبوءة العراف الكاذبة، التي لم يسـمعها

أحد مباشرة من فمه، ولم يسألوا عن حقيقة وجوده، وختم كلامه بأنها اختراع عقل ساذج يؤمن بالأساطير والخرافات، ثم سأل عن اسمه.

فقلت، يقولون اسمه سنيجر، والبعض الأخر يدعوه باسم آخر، زهلول.

أطلق الكيال ضحكة ساخرة، وقال وهو لا يزال يقهقه بطريقته المعروفة، عندما يشعر بأنه وجد ثغرة ما أو تناقض في كلام الأخر. أنظروا كيف اختلفوا حول اسمه.. وهل لإختلاف الاسم علاقة بصدق او كذب النبوءة..طبعا يا أستاذ نوح، كثيرا ما تستخدم أسماء وهمية، لأفكار يراد منها تشويش وبلبلة عقول الناس.

نظرت للشيخ فوجدته واجماً، ساهماً، وصامتاً، أدهشه كلام الكيال، فقرأت في عينيه علامات تساؤل وحيرة، كأنه راح يتساءل مع نفسه، من هؤلاء الذين اخترعوا الحكاية، وماهي غايتهم، ولماذا تذكروها الآن، وراحوا يرددونها كأنها خرجت من فم نبي معصوم عن الخطأ، لماذا يفعلون ذلك.

قاطعتُ مناجاته لنفسه، صحيح يا شيخ أننا سمعناها جميعاً، وكنا أطفالاً، لم نفهم معناها ومغزاها، ولكنها الآن أُلبست ثوب الجد. أكمل التاجر العجوز، وصدقها السذج، وغداً ستعتمر خوذة عسكرية عندما تبدأ الحرب.

تكلم الشيخ معبراً عما يجول في خاطره، متسائلاً، ولماذا يصدقونها في المقام الأول، أهي وحي منزل من السماء، حتى يصدقونها، فكان جوابي عن تساؤله، الناس يصدقون أحياناً أشياءا سخيفة،عندما يكونوا أسرى مخاوفهم.

ولما وجدتهما لائذين بالصمت، فكرت بأن الأحداث الآخذة بالتسارع يوماً بعد يوم، بدأت فعلاً تعزز مخاوف الناس، بوقوع حرب وشيكة لا مفر منها، ولكن لم أسمعهما أفكاري بالكلمة والصوت، اكتفيت أحدث نفسي، هناك في الجانب الآخر من الحدود، ظهر رجل دين كبير، نتف ريش الطاووس الإمبراطوري، وهو الآن مزهو بانتصاره المذهل، وهنا استولى على السلطة والحزب في آن واحد، رئيس جديد لا يزال في مقتبل العمر، مصاب بجنون العظمة والتمادي بالسلطة، رجلان ندان، وعلى طرفي نقيض، أهذه محض مصادفة غريبة، من مصادفات التاريخ المحيرة، وهل هذه العلامات التي يتحدث عنها الناس مطابقة لما ورد في نبوءة العراف المندائي.

أومأ الكيال بحركة من راسه، علامة على انه فهم ما يدور برأسي من أفكار، تكتم أن يقول شيئاً، منقاداً لغريزته الحذرة في عدم إرسال الكلام على عواهنه، أو الذي لا طائل من وراءه، وبصوت خافت، كأنه يحدث نفسه. همس

كان الشيخ يحرك شفتيه المزمومتين، منشغلا بمسبحته يتمتم بلا صوت.

بدا لي أنى أصبت فجأة بعدوى نبوءة المندائي، فرحت أحدث نفسي أيضاً، متسائلاً، أهي تحذير، أم تنبؤ، ولكن كنت في قرارة نفسي أخجل ان أفكر بهذه الطريقة الغيبية، فقد اعتدت في المناقشات مع الكيال، أن أستقرئ الأحداث وأقوم بتحليلها بطريقة علمية رصينة، بعيداً عن التكهنات الغيبية، لكن مرض إمي المفاجئ، جعل نفسي تميل نوعاً ما للأمور الروحانية، فأخذت أعقد صلحاً مع الدين، وأمد جسوراً مع الله، كانت لزمن قريب مقطوعة. فعبرت عما يجول في نفسي بأفكار غير مسموعة، لا أحد يستطيع الجزم بحدوث الحرب أو عدم حدوثها، الأمر كله مرهون بالمشيئة الإلهية، وتساءلت مع بصيغة سؤال، ولكن بصوت مسموع، وماذا لو حدثت ما الذي يتوجب علينا أن نفعل..

فوجدت الجواب جاهزاً عند الشيخ حامد الموحان، فهو يعتقد أن ليس هناك وسيلة لمنعها، سوى بالتضرع الى الله، الذي وسعت رحمته كل شيء، المستجار به من الحروب وأهوالها الفظيعة.

سادت فترة صمت قصيرة، بيننا، كان كل واحد منا يفكر بشيء يقوله، ولما وجدت الشيخ معتصماً بصمت لا يحيد عنه، منشغلا بمسبحته السوداء، كسرت حاجز الصمت، تبادلت الحوار مع الكيال المولع بالنقاش والجدل، فقلت، الأمم التي خاضت الحروب باتت تكرهها، وظهرت فيها جماعات ضغط تدعو للسلام، كما حدث في الستينات بأمريكا وأوربا، عندما عمت المظاهرات، منددة بالحرب على الفيتنام.. فرد عليَّ الكيال، ولكن الشعوب لم تسطع منع الحروب.. صحيح، ولكنهم وقفوا ضدها بقوة، وسجلوا موقفهم المناهض لها، بعكس ما يحصل عندنا، نحن نقف متفرجين، أو لا أُباليين، ولهذا نرى حكامنا، لا يقيمون لنا وزناً، ويبدو أن رئيسنا الجديد لا يفهم ذلك، ولا يدرك ويلات الحرب، أو كما يقال، يردح حيل ال ماشايفها... قهقه الكيال بخبث.. إش وكت بده يردح، اقصد يرقص.. منذ أن تولى

الحكم، او بالأحرى استولى عليه، ولكنه سيندم ان أخطأ في حساباته.. ولكن هم تحرشوا به واستفزازه.. تقصد بمناداتهم بتصدير الثورة، العجيب، يصدرون لنا بضاعتنا، اليس كذلك.. صحيح، وهل هذا مبرر كافي لإشعال الحرب..ولم لا، الحروب اندلعت لأسباب تافهة جداً، أو لثارات قديمة.. وهل بيننا وبينهم ثارات قديمة، تساءل الكيال بخبث. قلت اوه.. طبعاً، وغائرة في العظم.

قطع الشيخ تسبيحاته، أبدى أعتقاده بأن الحرب قد تكون أحيانا عقاباً إلهيا. اعترض الكيال..أتعتقد بذلك يا شيخ. نظر الشيخ مليا اليه وقال، ليس ما أعتقد أنا، إنما هو قول رب العالمين: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض). صدق الله العلي العظيم.

علقت على كلام الشيخ، فالحرب إذن عقاب ألهى.. وعلى فكرة لو كان سعيد الشيوعي معنا الآن، لقال إنها جَرَبٌ إمبريالي، ولكن لنفترض أن شخصا جاءنا الآن بخبر كاذب، عن حرب اشتعلت فجأة بين أمريكا وإسرائيل، دون أن نسمع عنها مباشرة من وسائل الإعلام، فهل نصدق ادعاءه! أسرع الشيخ قائلا. بالتأكيد لا، تساءل الكيال ليعمق الجدل أكثر، ولم لا يا شيخ.. قطعا ذلك من سابع المستحيلات، لأن الدولتين بلا شك وريب، أمة واحدة يا حاج موسى. فرد الكيال، ونحن وهم ألسنا أمة واحدة يا شيخ.

لم يقل الشيخ شيئاً، بل أكتفى بالصمت والنظر للسجادة الكاشانية الثمينة، التي أهداها الكيال للجامع، بمناسبة حجته الأولى للديار المقدسة، والتي لا تزال ألوانها ونقوشها الجميلة، الحمراء والزرقاء تبهج النفس.

رفع الشيخ نظره وهز رأسه، فاستقبلنا تلك الإشارة المعبرة، على أنها الجواب الصامت والمسكوت عنه، لما كان يدور في رأسه من تساؤلات، ثم هب واقفاً، معتذراً وهاماً بالانصراف، مشينا معه حتى باب الجامع، ودعناه، وبعد خروجنا، مشينا خطوات قليلة، رأينا بعض المحال الصغيرة التي أُغلقت، قد فتحت أبوابها، وعادت الحركة ناشطة في جادة جامع النجارين.

سألني الكيال قبل أن نفترق ويمضي كل منا لوجهته، عن سعيد، فأخبرته أنني رأيته آخر مرة في شارع الرشيد، على مقربة من ساحة حافظ القاضي، كان واقفاً أمام محل لبيع أقلام الحبر الفاخرة وقداحات رونسون الشهيرة، ومحافظ النقود الجلدية، والهدايا الراقية المتنوعة، توقفت أتفرج، حاول أن يتجنبني، أشاح بوجهه، وراح يتطلع للشارع المزدحم أرصفته بالمارة، يتظاهر أنه لا يعرفني، كنت أنظر لفاترينة المحل الزجاجية، أنوي شراء قلم حبرأعجبني لأهديه لصديقي الدكتور هلال، سألت صاحب المحل عن ثمنه، وأبديت رغبتي في شراء أخر لي، على أن يكون مثله تماما، فسأل صاحب المحل سعيد، إن كان بالإمكان الحصول على آخر، واستغربت عندما ناداه باسم غير أسمه، ألتفت سعيد فالتقت نظراتنا، فصاح مرحباً بي، إستاذ نوح أهلاً، فقال صاحب المحل، طلعتم معارف، رد سعيد: بل نحن إخوة، لم يقبل صاحب المحل أن يأخذ الثمن، ولكنني رفضت فدفعت ثمنه، على أمل أن نلتقي غداً هنا، فيأتي سعيد بالقلم الآخر، ونذهب لمطعم قريب نأكل ونتحدث، ولكني عندما جئت على الموعد لم أجده، فسألت صاحب المحل، قال لا أدري ربما حدث شيء له، وأخبرني أنه يساعده، يشتري للمحل بعض السلع الغالية بأسعار رخيصة، لقاء عمولة متفق عليها، وعندما سألته: منذ متى تعرفه، أكتفى بالقول، أنه صديق قديم، لم يقل شيئا آخر، ولكنني أعرف أنه يتخفى في بغداد، كان يبدو لي أنه خائف، ويشعر بأنه مطارد، وربما كان خائفاً مني، أنا صديقه القديم، وأعتقد لهذا السبب لم يأت على الموعد كما اتفقنا.

وفي طريق العودة للبيت بعد توديعي لموسى الكيال، فكرت بسعيد المطارد، وتذكرت صرخة الشيخ النارية، تمنيت انها وصلت فوراً الى الله السميع العليم، فتتعافى أمي من مرضها، وتكبل أيدي الذين يريدون إشعال فتيل الحرب، ولكن صرخته في الحقيقة، عندما فكرت بها، لم تكن كالعادة مجرد دعاء يوم الجمعة، هذه المرة كانت صرخة احتجاج، او استنكار، وعندما استعدت لذاكرتي اخبار التاسع من نيسان/ ابريل لعام 1980، اعدام مفكر ومرجع ديني كبير، أُعدم واخته، قبل اربعة ايام بالضبط، ذكر لي مرة، عن كتابه "البنك اللاربوي في الاسلام" فأبديت رغبتي بقراءته، اثار اهتمامي كمصرفي، فقلت نحن بحاجة لأبحاث كهذه،

اكثر مســاســا بحياة الناس، من تدوير الكلام في امور عفى عليها الدهر، ولا تمس حاجات الناس.

وعند وصــولي للبيت، وجدت امي تصــلي، وقد توشــحت برداء أبيض، يغطيها من الرأس الى القدمين، فبدت ملاكاً وســط عتمة ضــوء الغرفة، ســمعتها تهمس بدعاء، تفيض كلماته رقة وعذوبة وحباً، مبتهلة الى الله أن يحميني، ويهبني الصحة والعافية والعمر المديد، والزوجة الصـالحة، اعتادت على الدعاء لي، ابنها الوحيد في أدبار صـلواتها اليومية، وعندما فرغت، قبلت رأسـها، سـمعتك تدعين لي، ونسيت نفسك. ابتسمت دون أن يرتد طرفها عني، ألم تدع لي عند صلاتك في الجامع.. بلى فعلت، وكذلك دعا لك كل من كان هناك اليوم، حتى أن الشـيخ خنقته العبرات، ودعا لك أيضاً موسى الكيال.

وكعادتها عندما يذكر أحد أسم الشيخ حامد، تمدح أخلاقه وطيبته، وتنعته بأحسن الخصال، وتذم الكيال الخبيث، كما تصفه دائما.

كنت أريد أن أكتشــف ســر كراهيتها للكيال، فانزويت في غرفتي، أســتنطق الماضــي، علّه يكشــف لي ســر هذا الغموض، أو شــيئاً يبرر هذا العداء للتاجر العجوز، قلت لنضــع الرجلين في كفتي ميزان ونرى ايهما أرجح، بدأت بالشــيخ الذي تجله امي، لنلق شـيء من الضـوء على ماضـيه، لنرجع بالزمن، قرابة الربع قرن الى الوراء.

كان في عنفوان شـبابه ثوريا، متحمسـا لمقارعة الظلم، تحسـبه شـيوعياً حينما يتكلم عن التمايز الطبقي، واستغلال كبار ملاك الاراضـي للفلاحين الفقراء، رجل من طراز أولئك الرجال الذين ظهروا كنباتات فطرية، تغذت من تربة جمهورية 14 تموز، ولكنها سرعان ما اختفت، مخلفة مكانها أعشاباً طفيلية ضارة، كان من المحتمل ان ينظم للحزب الشيوعي في شبابه، مثل ابن عمته سعيد، لو أتيحت له فرصة معرفة الشخص المناسب، الذي يلقنه أفكارهم، دون التعرض لنزعته الدينية الفطرية، ولكن ذلك لم يحدث أبداً، فانطفأت فجأة جذوة حماســه الثوري، وركن أمره للغيب، كي يقيم ميزان العدل، الذي طالما رآه مختلاً، أخفى تحت جناحيه قهره المتأصـل، وتفرغ للعلوم الدينية ينهل من كتبها القديمة، ما أسـتطاع الى ذلك

سبيلاً، أبعدته يوما بعد يوم عن واقع الحياة وخضمها الصاخب، المحتدم بالصراع ، كان حقاً ولا يزال طيب القلب والمنبت، أعرفه منذ كان يأتي من قريته البعيدة في عمق الهور، لزيارة عمته أم ســـعيد، التي كانت نزيلة في بيتنا، فكان يمكث عندها أياما، يخرج للنزهة في المدينة مع ســـعيد ومقبل، وفي صـــيف ما ، كنت معهما، اقف بينهما، أمام بوابة قصـــر فتنة، نظر ســـعيد لعناقيد العنب المتدلية من العريشـــة، في الحديقة الأمامية، فقال هنا الجنة، فرد عليه ، حامد ولكنها فانية، وهناك جنة الخلد الباقية، ونار جهنم المحرقة، فرد ســـعيد ســـاخراً، الا يكفي ان تحترق بنار الفقر، التي هي أشد من نار جهنم، فقال حامد، صحيح، ظلم ان يحترق الفقراء مرتين . فعرفت منذ ذلك الوقت انه أنســـان مرهف الأحســـاس، ذو نزعة إنسانية متدينة.

أما الكيال الأكبر ســـنا منا، الذي اراه غريباً أحيانا وغامضـــاً، إلا انني لا اكرهه كما تفعل أمي، ولم افهم ســـبباً مقنعا لنفورها منه، كان قديماً يســـكن على مقربة من بيتنا، في بيت كبير من طبقتين، شـــناشـــيلة الزرقاء تواجه حديقة البلدية ونهر الكحلاء، لا يزال يمتلكه، ويمتلك بضـــعة بيوت اخرى في حارة الجامع القديم، بمحلة السرية، بالأضافة لمخزن ومطحنة حبوب استورد ماكنتها من بريطانيا في العهد الملكي، كان سعيد يعمل فيها ميكانيكيا، وفي ذاك الزمن لف قايش المطحنة (فلاي ويل) دشـداشـة العامل مظلوم وقتله في الحال، كنت اذهب مع بعض الأولاد أيام الشـتاء، نغسـل ارجلنا بالسـاقية الصـغيرة التي على طول الجدار، الخارجة من المطحنـة، كـان المـاء دافئـا، فنتخيـل اننـا نرى خيطـا من الـدم لا يزال يختلط فيـه، نتخيله دون ان نراه.

وقع الحادث منذ زمن بعيد، لذا استبعدت ان يكون ذلك سببا لكراهية امي للكيال، تســـاءلت ما أســـرع الزمن، يمر كأنه في ســـباق محموم مع العمر، او كأننا أبناء الحكايات نكبر بسرعة.

خرجت من غرفتي، عبرت عن دهشـــتي،ما أســـرع الزمن يا امي.. الصـــغار يكبرون بســـرعة كما في حكاياتك الجميلة، كنت البارحة أشـــارك بزفاف هيلا بنت المرحوم مظلوم، على المدرس مقبل، كان عمرها ســـنتين عندما قُتل ابوها، وهي اليوم مدرســـة متزوجة.. أنا فرحت لهما من كل قلبي يا ولدي، واتمنى ان تتزوج

أنت ايضـا، مقبل الصـغير كبر وصـار مدرسـا وتزوج، وانت لا تزال تعاند، متى أفرح بك، وارى أولادك.. أنشاء الله ماما.

ســألتني عن جاســم أخ هيلا، فمدحته، قلت أنه شــاب مؤدب، طموح وذكي، وسـيتخرج هذه السـنة من الجامعة، ويحصـل على بكالوريوس إدارة واقتصـاد، وسأسعى لتعينه بوظيفة في البنك، بعد إكماله للخدمة العسكرية.

تأوهت متحسرة كأنها تحاول ان تستغل زواج مقبل، فرصة لاستئناف مناشداتها المستمرة لي، وغير المجدية، حول إصراري الدائم على تأجيل الزواج، وكالمعتاد أعيد على مسامعها الأسطوانة المشروخة، عن عدم رفضي الفكرة، ولكن أقول لها أن مبرراتي لتأجيله معقولة، فهدفي الأول نيل شــهادة الدكتوراه، كنت في حالات كهذه أحرص على إرضائها، أُمازحها حتى أرى البسمة تعود مرتسمة على شفتيها الذابلتين، أُمنيها بالزواج بعد تحقيق حلمي، وأتمنى لها طول العمر، لترى أحفادها، تجلس أول حفيد لها في حضنها، ترقصه وترنم له ترنيمة جميلة ’مية هلا وترحيبَ يفوح المسك من جيبَ‘ أقبل رأسها، فيشرق وجهها بإبستمامة عذبة، فأضحك جذلاً مسروراً، هكذا لنضحك ببساطة يا أم نوح، لنفرح لنرقص، فلن نخسر شيئا،

جاءت الخالة أم سعيد، احضرت معها طعاما، فهي منذ مرض أمي، تواضب على احضار الطعام، ولم تتخلف يوماً عن زيارتها، حتى في صبيحة اليوم الأول لزواج ابنها الاستاذ مقبل.

بيتها يقع في نفس الزقاق، على مسافة ثلاثة بيوت، اشتراه سعيد من المال الذي وفره بعد ان ترك العمل في المطحنة، بسبب خلاف مع الكيال، وإشتغل سائقا.

رحبت بالخالة وقلت، سنزوركم خالتي أنا وأمي، لنبارك ونقدم هدية العروسين. تمنت لي إمراة تسـعدني، أبنة حلال كما قالت، شـكرتها ودخلت غرفتي، وكنت أسـمعها تحدث امي عن ابنها الاكبر سـعيد، تقول.. يرفض الزواج، حتى لا ينجب أولاداً يقتلون في الحروب، التي يتوقعها دوما..

ضـحكت أمي، ابني لا يريد الزواج لأنه يحلم بالدكتوراه، وابنك يخاف أن يفقد أبناً لم يولد بعد، في حرب لم تحدث بعد، الجنون فنون كما قالوا، فتسألت أم سعيد،

يحلم بماذا دكتاوور، مثل الرئيس الجديد كما يقول مقبل.. ردت أمي.. لا، دكتوراه، شهادة علمية عالية، الفرق كبير جداً بين الإثنين.

خرجت ضاحكاً وقلت مازحاً، ماذا كنتما تقولان عنا..لا شيء ابني، كنا نضحك على أفكار سعيد..على كل حال اضحكوا على راحتكم، ولكن حذاري خالتي أم سعيد أن تقولي أمام الناس ابني مقبل؛ يسمي الرئيس دكتاتور، رجاءً هذا الشيء فيه خطورة على الأستاذ مقبل، إذا سمعه أحد ونقله للحكومة.. لا يمه أسم الله، زين يمه، الله يخليك نبهتني، بعد ما ينطق لساني باسمه، أحنه وين والريس وين.

عدت لغرفتي أفكر، لم أصدق أن الخالة ستمسك لسانها عن الرئيس، فهي قد أطلقت عليه لقب 'الدريع'. وإذا تمكنت من نطق كلمة دكتاتور صحيحة، كما ينطقها مقبل مدرس التاريخ، فتلك الطامة الكبرى، وفكرت بمخاوف سعيد فوجدتها واقعية، ولكني استغربت من المصادفة الغريبة التي جمعت بين النبوءة الغيبية و تسارع الأحداث، فوجدت ان هناك الف سبب وسبب للحرب، وفي النهاية يقفر واحد فيكون كافيا لإشعال فتيلها، حدثت نفسي.. شيء غريب حقاً يا نوح.

لم أستطع الجواب عن هذا السؤال، تركته للزمن فهو كفيل بفك كثير من ألغاز الحياة، وعدت أفكر بسر نفور امي من موسى الكيال، لعل حادثة مقتل العامل مظلوم، تلقي شيئاً من الضوء على هذا السر الذي يكتنفه الغموض.

في العطلة الصيفية، اثناء المرحلة الإعدادية، عملت كاتبا في مكتب الكيال أتقاضى أجراً شهرياً مقداره ستة دنانير، كانت أكثر من راتب الموظف المطرود، دخل سعيد يوما المكتب، وكان ذلك بعد مقتل العامل، حياني، وظل واقفاً في مكانه، يطيل النظر الى الجدار، فكرت انه ينظر لصورة الكيال الذي كان بالزي التقليدي، يغطي رأسه اليشماغ والعقال، ويرتدي قميصاً أبيضاً وسترة بدت داكنة، ربما كان لونها بني، الصورة كانت قديمة، بالأبيض والأسود، وجهه ابيض، تلتمع فيه لحية مشذبه بعناية، فيها شعرات بيضاء قليلة، أما الشاربان فكانا كثين وأسودين، لا أدري إن كان الكيال أصلعا، في ذاك العمر الخمسيني، لأني لم أره حاسراً إلا مرة واحدة، كانت قبل عشرين سنة، في ضحى العاشر من محرم، كان يمشي حافيا،

وقد تلطخ رأسه بالطين، الذي جف وتيبس تحت أشعة الشمس، فبدى كأنه يعتمر قلنسوة طينية، تكسرت فأخفت الشيب القليل في شعره.

كانت الصورة وراء المكتب، حيث كنت جالسا، وانا آنذاك في ريعان الشباب، كلما تطلعت لنفسي في المرآة، أرى فيها وجها ابيضا وسيما، وشعرا اسودا كثيفا ومرسلا ، وزغب خفيف ناعم على شفتي العليا، طلعة تهفو اليها قلوب البنات، بعكس سعيد، الذي شوه الجدري وجهه الأسمر، الواقف أمامي كالأبله، يحملق بالجدار خلفي، يدفعه حب استطلاع لا اعرف ما هو، فسألني عن تلك الخطوط العربية الكوفية المتشابكة والرائعة، ذات الزخارف الجميلة، داخل اطارين مذهبين مزججين على جانبي صورة الكيال، كان يخجل ان يسأل الكيال عن الشيء المكتوب فيهما، ولكنه انتهز غيابه فجاء ليسألني، انتصبت واقفاً، بقامتي الممشوقة، والمعتدلة، وقلت مازحاً، ولماذا لا تقرأهما بنفسك.. ألم تعرف أني أمي.. الحمد لله انت امي ولست ابي، احببت ان أمازحه، وأكملت ولكن لماذا لم تذهب للمدرسة.. اتضحك مني، لا توجد مدرسة في قريتنا.

استدرت من وراء المكتب، وقفت بجانبه، وأشرت بيدي للوحتين، تلك التي على اليمين: (لإن شكرتم لأزيدنكم) والتي على اليسار (وأما بنعمة ربك فحدث) والاثنتان آيتان من القرآن الكريم، أتريد أن أفسرهما لك.. لا المعنى واضح، ولكن اتمنى ان يفهمها الكيال كما فهمتها انا.. ماذا تقصد يا لئيم.

ولكني في الحقيقة فهمت قصده، كان يعني أن الكيال منافق، فعندما قُتل العامل مظلوم قبل أيام، أقام الكيال مجلس الفاتحةعلى روحه، في جامع النجارين، وتبرع بمصاريف الجنازة والدفن، ولكن عندما جاءه سعيد يستعطفه لمساعدة عائلته بمعاش ثابت، انزعج، واعتبر ذلك تدخلاً في شؤونه الخاصة، وعندما ألح سعيد عليه، متوسلاً ان يرحم أرملته التي أمست بلا معيل، غضب الكيال، ورد عليه، أنه قام بما يمليه عليه الواجب وكفى، وان الحادث الذي وقع له كان قضاءاً وقدراً. انسحب سعيد من المعركة غير المتكافئة، وهو يشعر بمرارة الانحدار أمام جبروت الكيال. ولكن بعد أن قرأت له ما في الإطارين شعر انه تسلح بشيء يستطيع أن يحارب به الكيال، فعاد مرة آخرى يدافع عن العامل القتيل، ولكن هذه المرة بقوة وشراسة، وعندما تذرع الكيال بالقضاء والقدر، أقر له سعيد بذلك،

ولكنه جادله ورد عليه، بانه لا ينكر عجز الأنسان عن دفع القدر عن نفسه، ولكن الموضوع يتعلق بمصير ارملة وطفلين يتيمين، وحاول إقناع الكيال، ولكن قلب الكيال كان قاسياً كالحجر، لم يرق قلبه لمناشداته المتكررة، اعتصم بصمته، منشغلاً بمسبحته التي مسح خرزاتها السوداء على جدران الكعبة، صرخ سعيد منفعلاً، ارحم المساكين يا حاج، رد عليه الكيال غاضباً، لا تصرخ هكذا بوجهي يا جاهل، وبدل ان يستجيب، حمَّل سعيد مسؤولية الحادث، باعتباره الميكانيكي، وكان عليه إجبار العامل القتيل على ارتداء البنطلون أثناء العمل، كما تقضي التعليمات، بدلاً من الدشداشة، التي لفها قايش الماكنة، فارتطم رأسه بالأرضية الكونكريتة ومات فورا، وتمادى الكيال بتأنيب سعيد، واحتقاره بهذه الكلمات الإحتقارية، أنتم معشر المعدان جهلة، ولا تريدون أن تتعلموا شيئا. في تلك اللحظة التي سمع سعيد شتيمة الكيال، التهب وجهه الأسمر المجدور بحمرة الغضب، نزع بدلة العمل الزرقاء ورماها بوجه الكيال، وخرج من المكتب بملابسه الداخلية، كان شعره المجعد معفراً بغبار الطحين، وعيناه متقدتان بالدم، توحيان بأنه قادم على عمل لا يحمد عقباه. لكنه تمالك نفسه، وذهب فوراً الى بيت المرحوم مظلوم ونفح أرملته بما جادت به يده من نقود قليلة، كان هو بأمس الحاجة اليها.

في الليلة التي سبقت الحادثة، كان سعيد ومظلوم، يعاقران الخمرة، احتسى الأثنان قنينة عرق كاملة، لم يتأثر سعيد كعادته، ولكن الآخر، فقد صوابه، وراح يبكي، وعندما عاد لبيته، تشاجر مع زوجته وضربها، فأخذت تصرخ وتولول، سمعها سعيد، وكان واقفاً عند الباب، لكنه واصل طريقه، وفي اليوم التالي فقدت زوجها، فبكت المسكينة هذه المرة بحرقة أكثر، على مصيرها المجهول، ومن غرائب الصدف أن يغرق صديقي منير، أبن الكيال، بعد ايام قليلة من حادثة العامل، وكنا نستعد آنذاك للجلوس لامتحانات البكالوريا.

كنت جالساً على حافة سريري، أفكر، وأنا أستعد للخروج أتساءل، هل يعقل أن أمي لا تزال تكره الكيال بسبب موقفه مع عائلة مظلوم، وهل يا ترى كان غرق ابنه منير عقاباً إلهيا على قسوته على عائلة مظلوم.

الفصل الثاني

يوم السبت، الأسبوع الثاني من نيسان / ابريل 1980، أي قبل خمسة اشهر تقريبا على اندلاع الحرب، كان الازدحام غير عادي في المصرف، منذ بداية الدوام، مما داعاني الى التفكير بيهوه، الذي استراح في مثل هذا اليوم، بعد خلق العالم في ستة ايام، ورحت احدث نفسي.. ولكن طالما بقى اليهود سدنة المال، فلن يستريحوا ابدا، سيتحرك المال في بنوك العالم على عجلات من البرق، بدون ضجبيح، لا يميز يوما عما سواه..

كنت مستتغرقا بالتفكير عندما سمعت طرقاً خفيفاً على باب مكتبي، وحين رفعت رأسي عن الأوراق التي امامي، انفتح الباب قليلا فرأيت القاضي المتقاعد عبد الهادي إجباري، بقامته المعتدلة والممتلئة، وبسمته الودية التي تضئ وجهة الأسمر، وترفع الكلفة والحرج بينه وبين الناس، ومنذ أن رأيته أول مرة في حياتي، عندما وقفت أمامه أصطنع شجاعة صبيانية، كنت اتحدى بها خوفي وارتباكي، وأظهر له انطباعا بأني جدير بالأسم الجديد الذي اخترته، لا زلت أحبه وأحترمه، قمت مرحباً به، استقبلته بحفاوة، وكررت الترحيب بعد جلوسه، كان القاضي يزورني في مكتبي بمصرف الرافدين، بين الحين والآخر، وكنت التقية أحيانا في مقهى التجار قبالة نهر دجلة، عند نهاية السوق الكبير، وبعد دقائق جاء مستخدم البنك بفنجاني قهوة وكأسي ماء، وبينما كنا نرتشف القهوة، تحدث السيد القاضي عن زيارته الى لندن، قبل تقاعده، أيام الملكية، هناك شاهد المتقاعدين الإنكليز يستثمرون أوقات فراغهم بشكل جيد، فهم كما وصفهم، رواد للمكتبات العامة، ومتطوعون في الأعمال الخيرية، على عكس ما يفعله المتقاعدون في بلدنا، فالتقاعد بالنسبة لهم، نهاية الطريق المؤدي للموت، وانتقل يعيب على الشباب هدرهم للوقت، في المقاهي، وعبر عن اسفه بحركة من يده .. وضع فنجان القهوة على المنضدة الصغيرة، واعتدل في جلسته مسترخيا على الأريكة، وتابع بطريقته الجذابة.. تعرف إستاذ نوح.. أفضل شيء للمتقاعد أن يشغل نفسه بشيء نافع، أو يخطط لمشروع تجاري صغير، يدر عليه دخلا اضافياً، يغطي نفقات العائلة المتزايدة، خاصة اولئك الذين لديهم أبناء، سيلتحقون بالجامعة، فتكاليف

ومتطلبات دراســتهم باهضــه، لا يغطيها المعاش التقاعدي المحدود، الذي وصــفه بالبيض المعدود في الكيس المشــدود. ابتســمت وعقبت مازحا، بأنه لا ينقص ولا يزيد، فرد القاضي باسما، أنه ينفد ولا يبقى منه شئ قبل نهاية الشهر، ولكن الحمد لله، وبفضــل نعمته علينا، عندنا أرض زراعية في منطقة الطيب؛ على الحدود الشــرقية، تنتج الحنطة الديمية الجيدة، مؤجرة لفلاحين، ويغطي خيرها احتياجات العائلة المتزايدة، وعندما سألته من أجل الإستمتاع بحديثه، عن كيف يقضي اوقات الفراغ، حدثني عن برنامجه اليومي، قرأءة الصــحف؛ والاســتماع لنشــرة اخبار الصباح، وقضاء ساعة قبل النوم في مكتبته، وتبادل الزيارات مع الأصدقاء، مثل حضرتي كما قال، وعبر عن شخصيته الإجتماعية، بحبه الاختلاط بالناس، وانه لا يقدر أن يســتغني عنهم، وقال، أنت لا تســتطيع معرفة الناس دون الغوص في حياتهم، وبحكم مهنتي، كنت على احتكاك مباشر مع كل الطبقات الاجتماعية.

استرسل القاضي، أثنى على العماريين، وصفهم بالناس الطيبين، ولكنه في نفس الوقت، تأسف لما تناهى لسمعه هذه الأيام من أخبار محزنة، عن حملة تسفير الى إيران، وصــفها بأنها: مبيته لتمزيق نسيج المجتمع العماري المتجانس، بوســائل خبيثة كتشــجيع الوشــايات وجمع المعلومات. كان حديثنا يدور حول مصــائر اسـر عراقية لا حصــر لها، مهددة بالتهجير القســري الى ايران، هؤلاء الذين تصــنفهم ســجلات مديرية الجنسية في بغداد؛ بأنهم من 'التابعية الإيرانية' وبحســب ما أكد القاضــي، هم مواطنون وليســوا أجانب، يحملون الوثائق الرســمية، التي تثبت عراقيتهم، وأنهم انحدروا قبل تأســيس الحكم الوطني في العراق من المرتفعات، التي كانت ضــمن الأقليم العراقي والتي تســمى بشــت كوه، ما وراء الجبل، أثناء الحكم التركي، وانتشروا بالمناطق السهلية الدافئة، في مدن الوسط والجنوب، هربا من شظف المعيشة، والطقس الشديد البرودة في مناطقهم الجبلية، وذابوا تقريبا منذ أجيال، في المجتمع العراقي.. واســتمر يتحدث بما يمتلك من معلومات رجل يعلم الشئ الكثيرعن مدينته، وكيف ان الجميع فيها، كانوا منذ أن تأسست، يعيشون في تآخي وانسجام، ولكن الحكومات المتعاقبة بإستثناء حكومة الزعيم، كانت ولا تزال تميز الكرد الفيليين والذين من اصول غير عربية ، وتعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية، المفارقة الغريبة، انهم مواطنون وليسوا مقيمين في العراق..

واستنتج القاضي عبد الهادي اجباري أن المسألة معقدة.. وهي في أساسها سياسية، وليست قانونية، عملية شد وجذب بين الدولتين الجارتين.

واستغرب اصرارالحكومة على تقسيم مواطنيها الى فئتين، اتباع إيران الصفوية، وتعتبرهم اجانب، واتباع الدولة العثمانية، وهم العراقيون بنظرها، وكلا الدولتين كانت تحتلان العراق، وانقرضتا قبل تأسيس الدولة العراقية. فمن الناحية القانويية؛ يجب ان تعامل المواطنين على قدم المساواة، كما هو الحال في البلدان المتحضرة، وعرَّف المواطنة فقال، بأنها في ابسط معانيها، الغاء التفرقة على اسس عرقية او غيرها وفي حالة النزاع بين الدول المتجاورة، يجب احترام حرية التنقل، وحياة الأقليات، وعدم استخدامهم اكباش فداء، فهذه تعتبر جريمة في القانون الدولي، كما حدث لليهود زمن النظام النازي. واستمر القاضي في الدفاع عنهم..

في العهد الملكي، حينما كانت تسوء العلاقة مع إيران، كانت الحكومة تسفر المقيمين، وأفرادا معدودين ممن تسميهم التبعية الأيرانية ، أتدري الى أين يا نوح.. لا.. لا أعرف.. الى البصرة، وبعد زوال التوتر، تعيدهم الحكومة لمدينتهم، كان واحدا من هؤلاء زوج اختي، وكنا نستقبله عند حدود المدينة.. تقصد سيدي القاضي إبعاد.. نعم إبعاد مؤقت داخل البلد.. ضحك فقلت أي لعبة سخيفة هذه.

وبينما كنا نتحدث، سمعنا الكيال يصرخ غاضباً على موظف في المصرف.. أنا تاجر معروف، اتعامل مع بنك الرافدين منذ تأسيسه، وقبل ان يفتح فرعه في العمارة، كنت اتعامل مع البنك البريطاني استرن بنك ليمتد..

ضاعت آخر كلمات الكيال الغاضبة وسط أصوات عملاء البنك، فتبادلت مع القاضي نظرات استفسار، وخرجت لأستطلع الأمر، ولكن لم أستطع أن ألحق به، فقد رأيته يهبط السلالم مسرعاً، وعندما ناديته كان في آخر السلم، عند باب الخروج، صحت اناديه: يا حاج ...

ولكنه لم يسمعني، أو ربما تجاهلني، وتظاهر بعدم السماع.

عدت لمكتبي، معتذراً للقاضي الذي عبر عن استغرابه، بأنه إذا لم أكن مخطئا، ربما يتعلق الأمر بوثيقة شهادة الجنسية، فقد جئت للبنك يوم الخميس الماضي،

لسـحب نقود من حسـابي، فطلبوا مني الوثيقة، فقلت ملاطفاً الموظف، انا كنت قاضياً عراقياً ولست إيرانياً، واليوم احضرتها معي.

اطلعت القاضـي على التعليمات الجديدة الصـادرة من البنك المركزي، حول إجراءات التحويل والسـحب والايداع وإلزام العملاء ابراز شـهادة الجنسـية عند القيام بتلك العمليات. وعبرت له عن قلقي من انزعاج العملاء.

وعبر القاضـي هو الآخر عن هواجسه من الأحداث المتسارعة في المنطقة، والأصـوات المتعالية، المتبادلة بالتهديد والوعيد، إيران من جهة تبشـر بتصـدير ثورتها الإسلامية، والحكم البعثي في العراق، متوجس من تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة.

التزمت الصمت، لم اقل شيئا، كي يكمل حديثه.

حرب.. بعد الانتعاش الاقتصـادي الذي بدأ بالطفرة النفطية، في منتصـف السـبعينات، بعد ان ذاق العراقيون طعم الشـبع وبحبوحة العيش.. الله يسـتر إسـتاذ نوح.

عبارة ’بحبوحة العيش‘ التي وردت في حديث القاضـي عبد الهادي إجباري، تعني تفشـي النزعة الإسـتهلاكية المبالغ فيها، ونزق السـفر للخارج، قدحت ذاكرتي، فإسترجعت ذكريات قديمة مع ابن القاضـي، صـديقي المحامي حسـن، كنا معا في سفرة سياحية الى بولندا في تلك الفترة، وكان مبلغ خمسمائة دولار امريكي، كافية جدا لسائح يبقى شهرا كاملا، يعيش فيها ملكا ، سائحا في واحدة من بلدان المعسكر الأشـتراكي، اطلق عليها آنذاك السياحة الجنسية، ونسجت حولها قصص كثيرة، واحدة منها عن ميكانيكي سيارات، شـرب زجاجة فودكا، فرمي المراة الوارشوية التي كان نائما معها من بلكونة العمارة، وآخر انا شاهدته بعيني، يتبول في الساحة الكبيرة في مركز المدينة، كان مخمورا، لا يشـعر ماذا يفعل، وكان الذين يمرون قربه لا يصـدقون ما يرون، دنوت منه، وبختـه ، طوح يديه بوجهي، ليسـدد لي لكمة، لكنه فقد توازنه وسـقط في المكان الذي كان يتبول فيه، كدت اتكلم عن السياحة الجنسية، لكنني خشيت صراحة القاضـي، خفت انه سيقول، وهل ذهبتما لوارشو من أجل سياحة دينية او ثقافية..

انتظرَ القاضـــي ان اجيبه عن تســـاؤله.. حرب بعد بحبوحة العيش، والإنتعاش الأقتصادي، عدت من جولتي الوارشوية، التي اخذتني بعيدا فقلت، لا أدري سيدي القاضي، ماذا تريد إيران، أتريد تصدير الثورة أم الإسلام أم الإثنين معاً.. سنكون نحن وهم في مركب واحد، بين أمواج هوجاء عاتية، الله يستر أستاذ نوح.

لم يمكث القاضي طويلا، فالدوام كان على وشك الانتهاء، وأحس بفطنته ونباهته بالإرهاق الذي بدا واضحا على وجهي، فقام ليستأذن بالانصراف، وقال وهو عند الباب مودعاً وشـــاداً على يدي، تعال لزياتي وســـأطلعك على قانون الجنســـية العراقي، وأضاف. إذا كنت طبعا مهتماً بالموضوع أستاذ نوح، وبالمناسبة تسطيع أن تستعير ما شئت من الكتب، فيها كتب اقتصادية أيضاً، عندي كتاب رأس المال، وكتاب أصــل الأنواع، وكتب الدكتور علي الوردي موجودة كلها، وأنصــح بقراءة كتابه (لمحات من تاريخ العراق الحديث)، وإذا كنت من المولعين بقراءة الروايات فســتجدها عندي ايضـــا، تحتل رفوف بأكملها، وقد اعدت هذه الأيام قراءة أعمال دســـتوييفســكي، واســتهوتني خاصـــة من بين رواياته العديدة،(الجريمة والعقاب) و(الإخوة كرامازوف)،عالمه الروائي يكتظ بالأحداث وتنوع الشخصيات، وبحق كان كاتبا روســـيا عظيما، وهو برأيي أقرب من غيره من الكتاب العظام، لروح الشعب العراقي.. لقد تشرفت سابقا بزيارة بيتكم، دعاني ابنكم، صديقي المحامي حسـن، وأطلعت بشكل سـريع على مكتبتكم العامرة، أعدك سـيدي بزيارة آخرى، ولكن بعد عودتي من السفر الى بغداد.. خير إن شاء الله.. أمي مريضـة.. تمنى لها الشفاء، فشكرته، وقبل أن يودعني، سـألني أتعرف الحلاق ابو أنور.. نعم أعرفه، احلق عنده منذ الصغر، وهو أبو زميلي في الدراسة الابتدائية والمتوسطة، ما به.. أنا احلق عنده ايضا، نصحته ان لا يستمع للإذاعات المعادية، كما تسميها الحكومة.

عدت لمكتبي بعد توديع القاضـــي، اختليت بنفســـي بعد انصـــرافه، ورحت أفكر بالتاجر العجوز، وبضـــرورة زيارتي له، اتصـلت به هاتفيا من البيت، عدة مرات، دون اســـتجابة، فازداد قلقي عليه، انتهى الأســـبوع دون ان اراه، ورغم معرفتي الوثيقة بمقدرته العجيبة، على تحمل صـدمات الحياة، والعيش في العزلة وحيداً في بيته، منذ رحيل زوجته، يقوم على خدمته رجل عجوز وامرأته، يسكنان في أحدى غرف المنزل، تقوم المرأة بـالعنـايـة بـالمنزل، وإعداد الطعـام، والعجوز يعتني

بالحديقة المنزلية، كنت أراه أحيانا عند صلاة الجمعة، وكثيرا ما يغيب عن حضورها، أحياناً يمر علي عندما يأتي للبنك لقضاء بعض مصالحه، ادرت قرص الهاتف ورفعته والصقت السماعة على اذني، ولحسن الحظ سمعت صوته، كان ضعيفاً، سألته هل أنت بخير، قلقت عليك يا حاج، سآتي لأراك الآن.

كانت أشجار الكالبتوس في تلك الظهيرة الربيعية، ترمي ظلالاً كثيفة على أرصفة الشارع، في حي السبع قصور، لذلك تركت سيارتي أمام البنك، وقطعت المسافة الى منزله مشياً، كان الهواء يهب منعشا من النهر القريب، وكان المكان يذكرني دائما بحديقة النساء المهجورة دائماً، على مبعدة أمتار من منزل الكيال. وكانت في أكثر الاوقات خالية من الجنس اللطيف، لا يؤمنَّها إلا في مناسبات الأعياد مع اطفالهن، كان إبنا الكيال، ممتاز وأخيه منير، يلعبان بأراجيح الحديقة، يذاكران دروسهما، او يقومان بمطاردة الفراشات الملونة الجميلة بين أحواض الزهور، وكنت في احيان كثيرة حاضرا معهما، عقدنا صداقة مع الحارس، الذي عادة ما يدع أولاد الحي الميسورين، يمرحون كما يحلو لهم، مقابل هبات صغيرة، عن طيب خاطر، او قليل من النقود والملابس المستعملة.

هناك في الحديقة انتبهت لأول مرة لمرض منير، كان ممتاز معنا كالعادة، كنا نلهو بأرجوحتين متجاورتين، أوقف ممتاز أرجوحة أخيه، وأنزله منها، كان وجهه شاحباً، وكان غائباً عن الوعي لدقيقتين أو أكثر قليلاً، وبدأ يهذي بكلام غير مفهوم، ثم عاد لحالته الطبيعية، لم تكن أعراض الصرع عنده شديدة، وكان حلم ممتاز، دراسة الطب، والتخصص بأمراض الجملة العصبية، ليجد علاجاً ناجعا يشفي اخيه، كان يخاف أن تسوء حالته المرضية اكثر، وقد حقق ممتاز حلمه، ولكن للأسف بعد موت أخيه غرقاً، اقتربت من بيت العجوز الواقع على الفتحة المؤدية للنهر، التي لا يزيد عرضها على الخمسة أمتار، والتي يأتي منها الهواء منعشا، في هذا المكان، في مياه الدجلة كنا نسبح معا احيانا، ولكن منير كان يحب السباحة في نهر الكحلاء، فكنت أقول له ربما اهلك رموا سرتك في هذا النهر، فأنت تحبه اكثر من الدجلة الذي يجري بمحاذاة بيتكم، طرقت بوابة المنزل الحديدية المصبوغة بالطلاء الأسود، وانتظرت قليلاً، فتح خادمه الباب، حبيته، وسار يتقدمني في ممشى ضيق بين شجيرات الآس ألقصيرة والمنسقة جيداً، رأيت

دراجة الرجل الحدائقي القديمة مسـندة على سـور الحديقة، فوعدته بشـراء دراجة جديدة.

شـكرني العجوز، قادني الى صـالة الاسـتقبال، فجلسـت أنتظر الكيال، دخل هو الى المطبخ، وخرج وبيده صـينية فيها كأس عصـير برتقال، وضـعها أمامي على طاولة خشبية مستديرة، راح يُعْلِم الكيال بوصولي، علمت أن مدير أمن المحافظة، سليم الخماش، قد استدعاه لمكتبه قبل يومين، لذا فكرت بإخباره بما أعلم، لكي أمهد له للحديث بحرية..

كان سـليم الخماش يسـتفزه ويبتزه هذه الأيام، والعجوز يتقي شـره بالمال أو الهدايا الثمينة، فهذا الرجل قوي بانتمائه للحزب الحاكم، وبادعائه القرابة العائلية للرئيس، خرج الكيال فقمت احتراما، وجلسـنا وجها لوجه، وكنت أشـعر وأنا أنظر اليه مباشـرة، أن الرجل قد مني بهزيمة نكراء، قلت عندما جاء،أعلم أن سـليم الخماش استدعاك لمكتبه.

ظل العجوز صامتاً، فكرت وانا أحدق بوجهه، بطرق العقاب التي ينزلها الحكام بالضـعفاء والمغلوب على أمرهم، منذ أقدم العصـور وحتى الآن، فأرى شـبح الخوف المنحوت بقسـوة على وجه العجوز المليء بالتجاعيد، كما هو حال الناس هـذه الأيـام الربيعيـة، مرعوبين حتى الموت، خوفـاً من المجهول، حتى أمسـى الخوف عدوى، في زمن سـليم الخماش. الخوف، نعم الخوف.. ينتشـر بالعدوى ايضـاً، عندما يطلق الرئيس خطبه النارية الملوحة بالحرب، فيصـيبهم المرض، عبر الأثير، ترى الخوف بألوانه الكئيبة، الصـفراء والبيضـاء، والسوداء، تصـنعه التقارير السـرية، والوشـايات اليومية لمخبر مندس بين الناس، فأصـبحوا لا يثق بعضـهم ببعض. والعجيب في الأمر ان العراف المندائي، وصـف هذه الحالة التي تشيع بين الناس في قصيدته، فكانت نوعا ما ارهاصا للواقع، تحررت من تأملاتي، فسألته، هل توخيت الحذر أثناء الاستجواب.. نعم فعلت. ماذا قلت في الاستجواب.

أحتج الكيال على كلمة الاستجواب.

لم يكن استجوابا كما تتصور، طرح عليَّ اسئلة وأجبته عليها.

طرح عليك أسئلة. عن اي شيء..عن سفر ابني الدكتور ممتاز وزوجته لبريطانيا.. ولماذا يسأل عنهما، سافرا بشكل قانوني، ومن أين علم بسفرهما.. لا أدري، ربما عيونه تتجسس علي، يعتقد أن سفرهما كان بسبب الخوف من الحرب المتوقع حدوثها.. ولكن ربط سفرهما بحرب مفترضة، استنتاج خاطئ.. حاول أن يستفزني ويستدرجني..

تخيلت الموقف الذي كان فيه الكيال، فأنا أعرف حذر العجوز، يتمهل كثيرا في مواقف كهذه قبل ان يجيب، ويبتسم بوجهك حتى إذا استفززته، ولن تستطيع ان تخرجه عن وقاره وهدوءه، فما دام يتشبث بهما فهما سلاحه القوي، وهو في مأمن من الوقوع في المصيدة، ولكن رغم صلابته فهو هش وضعيف أمام جبروت الحكومة، ادعى أنه استطاع إقناع سليم الخماش بأن سفرهما كان لغرض التخصص، وأنهما سيعودان بعد إكمال الدراسة لخدمة بلدهم، ولكن سليم الخماش لم يفوت الفرصة، فاستفزه حينما سأله، أي بلد يخدمانه بعد عودتهما! أدعى الكيال ايضاً، أنه اعترض بشدة على صيغة السؤال، وقال له العراق طبعاً..

تظاهرت أنني اصدقه وأتعجب في آن، على اجتماع الشجاعة ورباطة الجأش فيه، امتدحته في الدفاع عن انتماءه للوطن، امام سليم الخماش الذي اعرفه متعجرفا، ارتاح العجوز لكلامي فانفرجت أساريره، واختفت التقطيبة المرسومة على وجهه، فابتسم ولكن بانكسار واضح، حاول إقناعي بأن سليم الخماش أبدى تفهماً، لوضعه كأب يخاف على ابنه، في ظروف كهذه، يتوقع فيها نشوب الحرب..

سألني العجوز فجأة، ماذا تتوقع ان أقول، استاذ نوح، أجبت بشيء من اللامبالاة، لا أدري يا حاج.

تابع العجوز كلامه، قلت ليس لدي أدنى اهتمام عما يشاع عن الحرب، أو ما يدور عنها بين الناس.

توقف العجوز يلتقط أنفاسه المتقطعة، وحانت منه التفاتة للباب كأنه تخيل طرقاً عليه، أو ربما كان خائفاً أن أحداً ما يتنصت على كلامه، نظرت لعينيه، فوجدتهما تتحركان داخل كهفيين ضبابين، وأن صوته أخذ يرتجف، يوحي بأن سليم الخماش قد تمكن منه.

ســـألته ماذا دار بينكما بعد ذلك، فأعترف العجوز أن فطنته خانته هذه المرة، فوقع في الفخ الذي نصـــبه له، وحصـــره في الزاوية الضـــيقة، وطلب منه أن ينقل ما يتحدث به الناس في الأسواق عن الحرب المتوقعة.

سألته مستاءً، يريد منك تتجسس على الناس..نعم هذا ما كان يريد مني، لكن لن أفعل.

ادعى الكيال أن الخماش شـــكره، واعتذر له عن التعب الذي ســـببه، ورجاه ان لا يطلع أحداً على ما دار بينهما، سألته وماذا بعد..لا شيء.

لاحظت علامات الانكســـار والهزيمة، واضـــحة على قســـمات وجهه المتغضـــن، وعلى شفته السفلى المتهدلة باسترخاء أبله، كشفة بعير أمض به العطش والجوع بعد رحلة صحراوية طويلة وقاسية، ونظرت لعينيه المطفأتين الغائرتين في كهفي محجريه، تصرخان في كيانه المتهدم.

أســـتأنف العجوز حديثه، وكان في صـــوته المرتجف، الخافت والمتواري وراء الكلمات، جِرس خوف وهلع، سكت الكيال، لم ينبس لبضعة دقائق، اختصرت كل سنوات عمره التي تجاوز السبعين. استنتجت ان العجوز شعر أثناء الاستجواب، بالإرهاق، وبحاجة ملحة للراحة، وأنه أستجدى شفقة سليم الخماش، متعللاً بعجزه وأمراضه المزمنة، فسمح له بالانصراف والعودة لمنزله.

أدركت من معرفتي الشـخصـية بسـليم الخماش، وقدرته الشـيطانية على انتزاع المعلومات، ان العجوز بعد تلك المقابلة الاسـتفزازية، عاد يجرجر سـنوات عمره الطويلة، بخطى واهنة ثقيلة، وأنه قلما واجهته مشكلة، دون أن يجد لها حلا.

زرت الكيال مرة أخرى، ركنت ســـيارتي أمام الباب، وقرعت البوابة الحديدية الســـوداء، فخرج البســـتاني العجوز، حياني رددت تحيته وقلت، تعال ياعم معي، للنزل هديتك من سـطح السـيارة، شـكرني وأسـرع يجر الدراجة، قادني كالعادة لصـــالة الاســتقبال، دخل المطبخ وعاد يحمل صـــينية فضـــية صـــغيرة فيها كأس برتقال، وضـعها امامي على الطاولة المسـتديرة وانصـرف ليعلم الكيال بوجودي، قمت احتراما للكيال عندما دخل، صـــافحته، اســـتأذن وغاب دقيقة، ثم عاد يحمل ســـفطا ًفتحه، ونثر محتوياته على الســـجادة الكاشـــانية الفاخرة، قلب بأصـــابعه

المتيبسة، هذه مستندات مِلكيه للناس ائتمنوني عليها، واوراق رسمية، احتفظ بها بمكان آمن في غرفة نومي.

التقطت أصابعه وثيقة شهادة الجنسية، ومدها الي، اخذتها، أمعنت النظر في محتوياتها، شعار مملكة العراق، تاريخ الإصدار في العشرينات، اصفرار الورقة ويبوستها كقشرة البصل، الكتابة بمداد أسود، لاتزال حروفها مقروءة بوضوح، أما الطوابع الملصقة عليها، فيرجع تاريخها لحكم أول ملك على العراق، وقد نصل لونها، هذه الوثيقة التي برزت من وهدة الزمن البعيد، يريد سليم الخماش أن يلغيها ويشطبها، حقيقة صارخة تدمغه بالكذب والبهتان، لأنها مستند أصلي ، وحامله عراقي مائة في المائة، تساءلت مع نفسي، التي أثقلها الحزن، عن الفائدة التي يحققها الوطن من تلك الأباطيل والأفعال الغبية، التي يقوم بها رئيس الدولة وخادمه المطيع سليم الخماش وأمثاله، فلم أجد جوباً لتساؤلي.. جمع العجوز الأوراق ورزمها بخيط، وضعها على المنضدة، طلبت منه ان يسمح لي بالاحتفاظ بشهادة الجنسية..خذها، لم تعد لي حاجة بها، على كل حال سيصادرون كل ما نحمل من وثائق عند الإبعاد.

وقفت لأودعه، طلب مني البقاء قليلا، ليحكي لي نكتة قبل ان أذهب، ابتسمت، لأنه فاجأني بأريحته غير المتوقعة، خاصة في ظروف كهذه، استاذ نوح انت تعرف طبعا الضابط فاخر خريبط ، امره سليم الخماش، أن يلقي القبض على العراف المندائي، سكت الكيال قليلا، فسألت، وماذا حدث بعد..الضابط اطاع أمر سيده، راح وقبض على عاشور المخبل، وجيئ به مكلبج للمدير..على فكرة حاج، لم أر عاشور منذ مدة، اختفى فجأة.. أجابني هازئا .. خايف من التسفير.

ضحكت رغم انها ليست نكتة، وانه لا يجيد القاء النكت.

قبل مغادرتي لمنزله، ناولني الأوراق، وطلب مني ان احتفظ بها، خوفا من مصادرتها عند تفتيش بيته بعد ابعاده.

ودعته عائداً الى منزلي، انزويت في غرفتي، وأخذت أحدث نفسي، ولكن في الحقيقة، كنت اخاطب الكيال الغائب، الذي تركته قبل قليل في منزله وحيداً، وكأنه أمامي الآن، هكذا، من هم أجدادك يا موسى الكيال، أعرب هم، فرس، ترك، هنود،

أم ماذا، ألهذا يشك بك الخماش، مع إنك عراقي، أكان أجدادك أغوات، سباهية ، تجار، قطاع طرق.. من أين أتى أجدادك وأي طرق سلكوا ليحطوا رحالهم اخيرا على أرض المنفى والبلوى والسبي والكرب.. لماذا لم يهاجروا الى أرض أخرى، ترحم من يلتجأ اليها، طلباً للأمان والاستقرار والازدهار!

ومع أن الكيال لم يكن يسمع بالطبع ما قلته، لكنه كان يشعر به، كان حتى تلك اللحظة الزمنية القاسية حياً يرزق، كاسم علم في سجلات القيد الرسمية، إلا انه في الواقع، فقدَ هذه الصفة التي تمنح الأنسان الرغبة بالاستمرار بالحياة، يخيل اليَّ وأنا أفكر به، أنه ينظر الآن الى ملفات حياته، من خلال كوتين صغيرتين، خلف جمجمته المعطوبة، كلاهما أكثر عتمة من حاضره المعاش، إحداهما تفضي الى دنياه، التي عاشها ردحاً من الزمن منعماً، سعيداً وسيداً، واخرى يطل عليها من ثقب ضيق، الى قبره و آخرته، مصير يجهله، لا يرى فيه بصيص أمل، دنيا جذبته بقوة وأغرقته بين أكياس المال، وأخرى حاول أن يشتريها بثلاث حجات، تصور أنها مبرورة تمحي ذنوبه القديمة والجديدة ..

أباح لي ذات مرة، ما يرقد في نفسه من لوعة وندم، في آخر مرة ذهب حاجا لبيت الله الحرام، وضع خده على الركن اليماني، كما فعل من قبل، نثر دموعه، بلل الحجر الأسود، وفي غمرة انفعاله، تخيل أن دموعه الغزيرة اختلطت بماء زمزم، فشرب الحجيج ذاك العام، ماءً أجاجا، فظنوا ان البئر ازداد ملوحة بسبب ذنوب الخاطئين، وفي آخر حج قام به بكى بمرارة طفل ضائع، اعترف بكل ذنوبه الصغيرة والكبيرة، التي ظن أن الله قد محاها من سجل اعماله، فعاد كما ولدته أمه بريئا نقيا طاهرا، كورقة بيضاء، اعترف أنه كان دائما يتذكر ذنوبه القريبة، ناسياً أو متناسيا البعيدة، أو متستراً عليها، ولكن حادثة مقتل عامل المطحنة التي طواها النسيان، قفزت من بين تلك الملفات، فرأى دمه يلطخ لباس إحرامه الأبيض الذي يلف جسده، فزع من رؤية إحرامه ملطخا بالدم، أثناء طوافه حول الكعبة، وتعجب حينما لم يلاحظ أحد ذلك، وكلما أتم طوافاً شعر بأنه اكثر ذنوبا، وعندما أكمل الشوط السابع ، انفلت من الزحام، وصلى خلف المقام ..

في تلك اللحظة من بوحه المرير، توقف عن الكلام، كيما يلتقط أنفاسه المتلاحقة، ظل صامتا بوقار، تنير وجهة لحية بيضاء، وعينان ذكيتان رغم

إنطفائهما، سألته لماذا توقفت، قال،أخشى ان لا تصدقني، لان ما سأقوله لن يصدقه أحد. اســتغربت من كلامه، فقلت، لماذا لا أصـــدقك، عهدتك صـــادقا دائما..أكمل سأصدقك، تابع بوجه بوتيرة اسرع وادعى للشفقة والأسى.. فهمت ما كان يشعر به تلك اللحظة النادرة في حياته، وهو في الحرم المكي.

شـعر وهو جاثم عند المقام، أن يدا حانية مست جبينه المحموم، ومسـحت حبات العرق عن وجهه ورقبته، فشــعر براحة نفسـية عميقة، رأى أجنحة بيضــاء كثيرة ملأت الحرم، أخذت ترفرف فوق رأســـه، أحس برغبة عارمة للغياب عن العالم، أخذته خفقة وســن مفاجئ بعيدا، ورمته في حضــن نوم عميق، تمنى ألا يفيق منها أبدا..

توقف الكيال يلتقط انفاســـه المتقطعة، ثم تكلم كأنه غائب عن الوعي كالمنوم مغناطيســـيا، كنت أريد في تلك اللحظة النادرة، ان أنام نومة الموت الأبدية، لكن جموع الحجيج ونداء: لبيك اللهم لبيك، أعادتني لوعيي، فكرت عميقا بشـــي أعلنه أمام الجميع، ثم صـرخت بأعلى صـوتي: ياناس، أنسبوني من أكون.. لأي دين أو ملة أو قوم أنتمي..

أشفقت عليه وقلت في نفسي، هذا الرجل يبحث يائسا عن الجذور، عن الأعماق الغائرة في النفس البشـرية، من هو ومن أين اتى؟! تلك هي الحيرة التي يعجز عن معرفتها الأنســان، رحت اتقصـــى تاريخ اجداده الافتراضـــي، مســتعينا بخارطة الهجرات المســتوحاة من وحي خيالي، فكنت أثناء فترات توقفه عن الكلام، أحدث نفسي متأثرا بما يبوح به وبما يعتمل في نفسي ايضـا.. أتسـاءل وانا انظر اليه، من أي أمة أو قبيلة تائهة أنحدر هذا الرجل. .

أسئلة كثيرة، وحكايات تسرد حتى السأم والملل، عن حقيقة انتشال الذات من قعرها المظلم، ورفعها عاليا لترى النور السـاطع، وبهاء الوجود المترع بالفرح والحبور، الأشـياء التي لا تسـتطيع النقود أن تشـتريها، ولكن الذين لا يعرفون هذه الحقيقة، يظنون ان دافعهم للهجرة هو الفقر، وشـــظف العيش، والحـاجـة والعوز.. أو هو الانتقال من وعورة الجبال وبرودة طقســها، الى رحاب الســهول الفســيحة الدفيئة الوسيعة.

وبعد فترة صـمت طويلة، واصـل الكيال الحديث، وتوقفت أنا عن الانزياح في تأملاتي البعيدة، قال إنه شـعر بإلحاح لحظة اسـتعادته لوعيه، بالحاجة الى تصـفية حساباته القديمة..

بعد عودتـه من آخر حج، تمنى وداع الدنيا الفانيـة، وتنقيـة روحـه من كدورات الحياة المتراكمة، تضـرع لله أن يسـاعده على شـطب ذنوبه، فتوقف برهة، مترددا عن المضـي في الكشـف، وتعرية الذات وفضـح اسـرارها، ولما رآني أتطلع اليه باسـتغراب، واصـل اعترافاته.. ذهبت بعد عودتي مباشـرة الى بيت العامل القتيل، طرقت الباب، خرجت لي بنت حلوة، سـألتها من أنت يا بنيتي، قالت أنا هيلا بنت مظلوم، سـلمت عليها ووضـعت في كفها مظروفا، وقلت هذا دين عليَّ ، قولي لوالدتك عندما تصلي ان تستغفر لي وتبرئ ذمتي، ودعتها وانصرفت.

أزاح الكيال باعترافاته الجريئة، شـيئا لا بأس به من ذلك الماضـي الذي أثقل كاهله، وكاد يزهق روحه، ولكنه لم يتحرر بعد من عقدة الذنب التي تلاحقه.. وبقي عليه ان يدخل المطهر فيحترق كليا، ويتوهج كالنار..

قبل سفري الى العاصمة لعلاج والدتي، قطعت على نفسي عهداً بمعرفة حقيقة نبوءة العراف، برؤية المكان الذي ستدور فيه معارك طاحنة، حتى تصل الدماء لركاب الفارس، كما جاء في النبوءة، والشيء الآخر زيارة الكنزبرا، الشيخ المندائي، أبو صديقي الدكتور هلال، ولما كان الشيخ حامد الموحان قد حسم رايه، فقال كذب المنجمون وإن صدقوا، لذا حزمت أمري للذهاب لمسرح الحكاية، لأرى بنفسي المكان، عسى أن أستطيع فك اللغز المحير لتلك النبوءة المرعبة، التي يعتقد بها بعض الناس، ومصدرها عراف مندائي، ارتبطت طقوس قومه منذ القدم بالمياه الجارية، فأينما كان الماء يكونوا، شيدوا بيوتهم بانسجام وعلاقة حميمة مع الماء الجاري الذي يسمونه (يردنه)، وليس بعيداً عن النهر تقع مطحنة الحاج الكيال، حيث تصطف بيوت متقابلة، منكفئة على نفسها، مشيدة من الطابوق المحلي، متراصة كما لو أنها تحتمي ببعضها، أبوابها الخشبية مهترئة، وستائرها القماشية بالية وقذرة، تحجب النظرعن قبح أفنيتها الداخلية، لتسترها عن أعين المتطفلين والمتلصصين، وعندما تحركها الريح المتسللة من شقوق الأبواب، أو يزيحها جانباً، الداخل اليها أو الخارج منها، تكشف عن مجازات ضيقة تفضي الى باحات مكشوفة

للسماء مباشرة. بيوت كئيبة، مطبقة على ساكنيها، عمياء بلا عيون، تطل على الزقاق المترب، وقريبة من ضفة نهر الكحلاء، كان أولاد المحلة يهربون من حرارة الصيف اللاهبة، بالسباحة فيه، أو اللهو في حديقة البلدية، المغروسة بأشجار الكالبتوس، وأسيجة الآس القصيرة المشذبة، ومساكب أزهار الجعفري وعرف الديك وحلق السبع، وعباد الشمس، والقرنفل والجوري، بروائحها الطيبة، وألوانها الصفراء، البيضاء، والحمراء.

في صباح يوم ربيعي دافئ، قضيت شطراً منه في البيت أتحدث مع أمي حول تفاصيل السفر الى بغداد، رفضت في البداية، قالت انها لا تريد الذهاب الى أي مكان، لكنها اقتنعت اخيرا، بعد ان قلت لها بأني استأجرت شقة صغيرة في مدينة الكاظمية، وقريبة من باب المراد، فتمتمت بكلمات لم أسمعها، وقلت لها اني أخبرت عمتي فطم بموعد وصولنا، ارتحت أخيراً لموافقتها، وبعد الظهر جاءت أم سعيد لزيارتنا تحمل طعام الغداء، اكتفيت بشيء قليل، وخرجت انتظر السيارة التي استأجرتها للذهاب الى جسر غزيله، جاء السائق وقت العصر، صعدت بجانبه، وبعد أن عبرنا نهري الكحلاء والمشرح، انطلقنا على الطريق الترابي، سألني السائق،هل انت يا استاذ من المصدقين بحكاية المندائي..لا. ولكن أحب أن أرى المكان، لي ذكريات قديمة هناك.. ولكنها تغيرت الآن، فليس فيها شيء يذكرك بالماضي.

وحين وصلنا للمكان، ترجل السائق ومشى قليلاً، ثم اختفى في حفرة ليقضي حاجته، نزلت وانتصبت كشاخص وسط أرض منبسطة، نظرت حولي كأني أبحث عن شيء مفقود في تلك البرية الواسعة، أحاطت بي دائرة الأفق، كخيمة غطت المكان، شعرت بان قدراً محتوماً يحبس الأرض والمخلوقات، يحيط بالمكان من كل الجهات، في تلك الساعة في البرية الموحشة، استوحيت من العبارة المألوفة " دارت رحى الحرب" فتخيلت انني أرى رحى حجرية عملاقة، نزلت من السماء، وحطت على الأرض، تديرها أيد خفية، بسرعة جنونية، سمعت صرير وانين ونحيب، عويل ونشيج، ولولولة وبكاء، ورأيت اللحم والعظام والجماجم، والأعصاب والعيون، والأظافر والشعور تهرس بين حجري الرحى، وتنبثق منها نوافير الدماء، تشهق لعنان السماء، ثم تهبط للأرض، فتكون بركة متلاطمة

الأمواج، في تلك اللحظة قطع نباح كلاب بعيدة سلسلة الصور المتلاحقة؛ المنثالة امام عيني.

كانت الجبال في أقصى الشرق، رأيتها مرات عديدة، تبدو الآن أكثر دكنة، اشبه بدخان رمادي، يتصاعد للسماء ببطء، قبل الغروب، بعدها أخذت الشمس بالأفول، وبينما كنت مستغرقاً ومتأملا؛ صاح السائق، سيهبط الظلام قريباً، يستحسن بنا العودة قبل أن تهاجمنا الضواري..أتعيش هنا في هذه البراري الموحشة.. بقى القليل منها بعد اختفاء الغزال بشكل مستمر.. سألته لماذا.. الصيد كان السبب في اختفائها، بالكاد تجدها الآن في هذه الفيافي المقفرة. راح السائق يحكي عن إستعمال بنادق الصيد الحديثة، والكلاب السلوقية، والصقور، كان الذين يمارسون هذه الهواية صيادون خليجيون، وكانوا يكثفون صيدهم في الربيع، موسم التكاثر، سألته، أكنت تراهم بنفسك.. نعم كانوا ينصبون خيامهم هنا.. هل كانوا يحصلون على ترخيص؛ موافقة من الحكومة المحلية في مدينة العمارة..لا أدري يا أستاذ.

أيدت ما قال السائق، فقد كنت أراهم يأتون في أوائل الربيع، يعبرون جسري الكحلاء والمشرح، في قافلة سيارات غريبة، مع عبيدهم وخدمهم، وكل ما يحتاجونه من المؤن.

سألته أيمكثون طوال الربيع.. حوالي الشهر أو أكثر احياناً، اعتمادا على كمية سقوط الأمطار، فإذا كانت غزيرة، امرعت الأرض بالأعشاب، وظهرت الغدران، فتتحول المنطقة الى مراع، زاهية بالزهر البري المتنوع الألوان، فينشط الصيد.. سألته عن الكمأ، يقولون إنه يكثر في هذه البراري..صحيح لمن يبحث عنها.. يقولون إنها تنبت في عمق خمسة الى خمسة عشر سنتمترا في التربة، عند سقوط المطر، وحين يخطف ضوء البرق صفحة السماء، وعندما يسمع صوت الرعد في الهواء.. كان ابي يقول ذلك أيضاً، ولكني ما كنت أصدقه..أكنت تأتي معهم.. مع من يا أستاذ.. مع الصيادين.. سأحدثك عن ذلك، ولكن بعد ان نعود الى السيارة قبل هبوط الظلام.

قبل مغادرة المكان، ألقيت نظرة أخيرة على الجبال البعيدة، التي اصطبغت لحظة المغيب بحمرة قانية، شعرت بحزن مفاجئ.. ناداني، هيا بنا لنعود.

وفي الطريق للسيارة، وقفنا على جسر غزيله، المكان الذي ستدور فيه معارك طاحنة، وأنه سيمتلئ بالدماء حتى تطال ركاب الفارس، بحسب نبوءة العراف، نظرنا تحت الجسر، كان مجرى النهر الصغير جافا، وبعد أن جلسنا في السيارة، شرع السائق يحكي عن تلك الأيام الخوالي، كان الدخان الذي ينفخه من فمه في فضاء السيارة يرسم دوائر متلاحقة تتناغم مع ذكرياته، حينما كان لا يزال صغيراً يرافق أبوه في تلك الرحلات المدهشة.

كان الأب دليل صيد، يرافق شيخاً كويتياً، يأتي لهذه الأماكن كل سنة، عند حلول الربيع، لطم السائق جبهته، التفت اليَّ وقال نسيت اسمه، وحين يجئ الى مدينة العمارة؛ يبعث أحد عبيده، وإسمه محبوب، الى بيتنا في محلة القادرية، ولما رآني ابتسم، بادلني الإبتسامة، قلت في نفسي لقد فطن الآن لسبب ابتسامتي، زفر من منخريه كمية من دخان سيجارته، ونظر نحوي ليتأكد من مدى اهتمامي بحديثه، ولما وجدني مستمعاً جيدا، تابع كلامه ...

كان أول من يخرج له، فيرى امامه رجلاً اسودا ضخماً عملاقاً، وزمرة من الأطفال متحلقين حوله، يحملقون به، باندهاش ممزوج بالخوف، عندما يفتح الباب، كان محبوب قد طرق الباب للمرة الثانية، وتنحى جانباً، وكانت الجارات يختلسن النظر اليه من وراء ستائر الأبواب، بشيء من الاستغراب والحسد المكبوت، كان محبوب يسأله عندما يراه، أبوك في البيت، فيجيبه وجلاً وبهزة من رأسه، إي موجود. وبصوت أجش تخرج من شفتي محبوب الغليظتين؛ أكلمتين فقط ، روح ناديه، يظل خائفا، متسمرا في مكانه، يأمره بحركة من كفه الضخمة، روح ناديه، الشيخ يبيه، يعود للبيت يخبر ابيه، يخرج الأب ويسلم على محبوب، ثم يقوم بملىء عربة الصهريج والزمزميات والجيركانات بالماء، وبعد ان يفرغ من ذلك، يذهب مع ابيه للسوق لشراء بعض اللوازم الضرورية للرحلة، يعبئآنها بسيارة البيك أب، ثم يصعد الأب إلى سيارة الجي ام سي الأمريكية، ويجذبه من ذراعه فيصعد ويجلس على يمينه عند النافذة، تنعطف السيارة من زقاق لآخر، حتى يفضي بهم الدوران لشارع بغداد، وفي أثناء مرورهم ..

توقف السائق برهة عن سرد ذكرياته القديمة، مج بعصبية دخان سيجارته، أمسك بالعقب، بين أصبعيه المصبوغتين بصفرة داكنة، وقال بزهو موجع، لقد

عرض الشـيخ على أبي الجنسـية الكويتية، وسـكت برهة، فسـألته، هل رفضـها، وبنبرة تنم عن ندم وغضـــب في آن واحد، قال بل اعتذر، لأنـه لا يحب مفارقة الوطن والأصـحاب قلت للسـائق الغاضـب على ابيه،أنا أعرف المرحوم والدك، اكتفيت بذلك، لم أذكر شيئاً عن ماضيه السياسي، تذكرته عندما كان مقاوما شعبيا في عام 59، ومتحمساً في المظاهرات للزعيم أثناء فترة حكمة القصيرة، ولكنه في عام 63 انظم للحرس القومي، بعد انقلاب 8 شـباط وإطاحة الزعيم وقتله، ولو أنه بقى حياً لأنظم الآن للجيش الشعبي، كان والده يتماشى مع كل الاتجاهات السياسية المتقلبة، مثله مثل السـمكة التي تسبح في كل المياه، ولكن الأبن كان سـاخطاً على ابيه، وصـب جام غضـبه عليه لسـبب آخر، لأنه لم يتجنس كويتياً، فسـألني، هل ما فعله أبي يا أستاذ كان صحيحاً.. قلت لا أدري، فقال لا تترحم عليه إذن، كان غبياً وقصير النظر، تصرفه دمر حياتنا، ولو بقى الانكليز في العراق لكان حالنا أفضل بكثير عما نحن عليه الآن، وقال، ولكي أبرهن لك ما قلت، أذكر اننا مرة، توغلنا كثيراً، واجتزنا لعدة كيلومترات داخل الأراضـــي الإيرانية، فأوقفتنا دورية حدود، اقتادونا لمخفر الشـيب الايراني، وعندما عرف مأمور المخفر بوجود شـيخ كويتي معنا، أتصل حالاً بالمسؤولين، وهيأ أماكن مريحة للشيخ وحاشيته، بينما رمانا أنا وأبي كالكلاب في غرفة الحجز، نمنا على أرضـــية كونكريتية قذرة وباردة، وفي صـباح اليوم التالي أطلق سـراح الشيخ وحاشـيته، أما نحن فبقينا أكثر من شـهر ثم افرجوا عنـا، لكن بعد ان اخذ القمل يدب على جلودنـا، ومنذ ذاك الوقت، لم يعد الشـيخ يأتي للصـيد، وانقطع مورد هام وهدايا كنا نتلقاها منه.. لم أقل شـيئا، بقيت صامتاً حتى وقفت السيارة أمام بيتنا، ترجلت مودعاً السائق، وجدت الخالة ام سعيد عند باب المنزل حيبتها، ودخلنا معا، فوجدت امي تصلي العشـاء، بدت ملاكاً تحت ضـــوء المصـــباح، بثوبها الأبيض، وبعد أن فرغت من صـــلاتها، رفعت يديها بالدعاء، كان قلبي يسـمع كلماتها دون حاجة لصـوت، ظلت جاثية برهة ولما رأت صديقتها، حاولت النهوض، لكن الخالة، ألقت يديها على كتفها وأجلستها بهدوء، ثم قبلت رأسـها، كانت أمي قد استحمت قبل الصلاة، فشمت صديقتها رائحة صابون الغار يفوح من شعرها، قالت لها قومي لأمشط شعرك، ساعدتها على الوقوف، ثم

أجلستها على بساط صوفي باللونين الأبيض والأسود، سألت الخالة أمي إن كانت تحب أن تخضب شعرها بحناء الفاو التي جلبتها خصيصا لها.

- لا لم تعد بي حاجة للتخضيب.

جلست وراء ظهرها وبدأت بتسريح شعرها الأبيض، بمشط خشبي، فَرَقَته من وسط الرأس، ومسدته بأصابعها وضفرت لها جديلتين، القتهما على صدرها، ثم لفت عصبة سوداء حول رأسها، أخرجت امي من جيبها قارورة عطر، ضمخت يدها ومررتها على جيدها، وناولتها للخالة للتطيب بها.

نقلتُ منقل النار من الطارمة الى الغرفة، بعد أن توهج الجمر وصفى تماما من الدخان، وضعت ابريق الشاي عليه، أخذت المرأتان تستمتعان بالدفء، وجلست على مقربة منهما، أرى وأنصت، لما يدور بينهما، لم تتكلما عن المرض، لئلا ان يكون الحديث عنه مؤلما، كأنهما تستنكرانه تنفيان وجوده، وتستهجنان اقتحامه الأهوج وحشريته الفجة والفظة والمؤذية في حياتيهما، وكانت الخالة وهي تنظر الى أمي تستذكر مواقفها النبيلة، أيام الشدة يوم جاءت تبحث عن مأوى، وعندما سجن سعيد وانقطع المورد الذي كانت تعيش منه، قالت لها امي حينذاك "لا تبالي سنقتسم رغيف الخبز بيننا، هاتان المرأتان عاشتا معا في بيت واحد، حفنة سنوات كالجمر، لم تكن أمي تعاملها كنزيلة ومستأجرة، بل أخت تشاركها الحياة في السراء والضراء، والآن ترى أم سعيد العدو المتمثل بالمرض، يداهم صديقتها على حين غرة، وتخشى خطورته على العلاقة الحميمة التي توشجت بينهما منذ سنوات طويلة، وهي تعرف، إذ تسألها عن صحتها، ستحمد الله وتثني عليه، وتقول لا تقلقي عليَّ، أنا بخير، سألتها أمي عن ابنها الذي اختفى، فلم تجب، تشاغلت بالنظر للجمرات التي اكتست طبقة خفيفة من الرماد، أعطاها ذلك التضاد الأبدي الرومانسي الحزين، بين النار والرماد، والحب والكراهية، تلك الثنائية التي بدونها تبهت الألوان، وتصبح لوناً واحدا منفراً، نظرت أم سعيد لصديقتها عبر منقل النار، فتراكم في قلبها جبل هائل من الحزن المشبوب بالتحدي، وتسربت من أعماقه مشاعر عفوية ونبيلة، أعلنتا رفضهما للمرض الطارئ والمشاكس، وعدم الاستكانة للضعف والخوف، كانت الحياة التي مزجتهما وصبتهما في قالب واحد،

صنعته مئات الطعنات، أقوى من الموت، وهي انشودة العذاب الذي تحترقان في سعيره المقدس

رفعت أم سعيد رأسها من نار المنقل. لا أدري أين هو الآن، حي أو ميت.. تدخلت لأخبرها انني رأيته آخر مرة كان في بغداد، لكن سمعت انه التحق بالأنصار في الشمال.

سكتت تغالب عبرة خنقت صوتها المتهدج، ثم قالت أختي دعاء الانسان عند المرض والشدة مستجاب.

رأيت أمي تفتح قبة صدرها وترفع يديها، وقد أشرق وجهها بوهج النار، وتدعو بهذا الدعاء ' يامن رددت يوسف ليعقوب، رد سعيد لحضن أمه يارب العالمين'.

نظرت أم سعيد في عيني صديقتها وأدامت النظر فيهما، دون أن تتنبس، حتى أني سمعت صوت أنفاسهما أثناء الصمت، كانت تريد البوح بشيء، ولكنها آثرت الصمت، كانت دموعها محبوسة، تكاد تطفر من عينيها التي اطبقت عليها الجفنين، وفجأة انفجرت باكية، بعد ان تحرك الحزن الذي أثقل قلبها، وحرك مشاعرها، وقد أربكها مرض صديقتها، وأطاحها بضربة ترنحت من شدة قوتها.

كم هي قاسية الحياة، عندما تمد حبلها على الغارب، وتغرر بالخلق، وفجأة تمسكهم من خناقهم، وتصفعهم صفعة مدوية، يطيش لها صوابهم، وتفقدهم توازنهم، تأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا يملكون لأنفسهم شيئاً، حقاً صدق من وصفها بدار الغرور.

رفعت الخالة ام سعيد راسها، وبصوت قوي، كأنه يأتي من سيد مطاع ومجاب، أمرتني.. خذوني معكم حينما تذهبون الى بغداد، اريد ان أبقى معها، وأضافت بلطف.. لن اضايقكم، سآخذ معي ما يكفي من النقود. تأثرت من كلامها.. أنت يا خالتي بمنزلة أمي، أنا أحبك ولا أتضايق إطلاقاً من وجودك معنا.

أقنعتها بصعوبة بأن ظروفنا لا تسمح الآن، كما ان العروسين لا يزالان في شهر العسل، وهما بأمس الحاجة اليها، توقفت قليلاً لأسترد سيطرتي على انفعالي، ولكني وعدتها اني سأعود لأخذها حالما تحين الفرصة، فصدقتني على مضض، ومع ذلك شرعت تبكي لإحساسها بالهزيمة، فتوسلت أن تكف عن البكاء، لئلا

تتأثر أمي، التي هي بحاجة لمزاج نفسي معتدل، مراعاة لحالتها الصحية، لكنها لم تستطع كبح جماح نفسها، وأدركت ان طلبي مستحيل، لأن بين هاتين المرأتين نوعاً من الاتصال الروحي، لم أكن حتى تلك اللحظة قد فهمته، أو سبرت غوره، فوجدت أمي تنخرط في بكاء مرير، تناثرت الدموع وتساقطت من عينيها الصغيرتين المليئتين بالحزن العميق والأسى المجهول، كان علامة ذلك الجيشان العاطفي، الذي اعتدت عليه دائماً في حالات كهذه، احمرار أنفها، الذي تمسحه بطرف شيلتها بين الفينة والأخرى، مختنقة برعدة تنفثها لهيباً حارقاً من صدرها المكلوم، الذي بدأ المرض الخبيث ينفث سمومه القاتلة فيه، وينهش لحمه، دون ان تكترث له، استخرجت من السفط المصنوع من الصوف الملون والقش الذي كان يرقد فيه عطرها المفضل، التقطت أصابعها حلية صغيرة على شكل مكعب ذهبي، مزخرف بالميناء السوداء ومشبك بداخله قرآن صغير الحجم، وفي عروته دبوس صغير، وضعته في كفها، ولمسته ملياً، ثم قبلته، وقالت وقد ارتسمت ابتسامة أضاءت وجهها الأبيض.

- هذا القرآن كان على صدر نوح، خذيه واحتفظي به لحفيدك، ضعيه على صدر المولود، قولي عين الحسود بيه عود.

احتضنتها أم سعيد وقبلت راسها، كانت الخالة في تلك اللحظة ممتنة لصديقتها السخية، تركتهما يبثان ما في نفسيهما من أسى ، أدركت مدى الحب الذي تكنه الخالة لأمي، وكم هي الحياة تافهة وجافة وعديمة المعني بدونه، وما أن ابتعدت عنهما، حتى سمعت موجة نحيب ورنة جرس صوتيهما ترتفعان وتنخفضان تدريجياً حتى تلاشيا كموجة تتكسر على الشاطئ.

ذكرني بكاء أم سعيد، بيوم آخر، يوم ترك سعيد العمل بالمطحنة، واشتغل سائقاً، وأُلقي القبض عليه بسبب نقله بريد الحزب الشيوعي، أُودع سجن مديرية أمن العمارة، ذهبت مع الخالة أم سعيد، لمقابلة رئيس عشيرتها، ليتوسط لإطلاق سراح إبنها، جلست على أرضية غرفة الاستقبال المفروشة بالسجاد الكاشاني الفاخر، وجلست أنا على أحدى قنفات الصالة، وانتظرناه طويلاً، ولما يئست من حضوره، سألت أحد خدمه، فقال لها أنه مشغول جداً هذا اليوم، تعالي غداً، وعدنا للبيت، وفي الغد ذهبنا معاً، ولم يخرج لنا رئيس العشيرة، وتكررت محاولاتها الفاشلة

لمقابلته عدة مرات، وفي المرة الأخيرة ذهبت معها، بكت مترنمة بنعاوي الريف الحزينة، التي تفطر القلب، وأعولت وناحت، كحمامة جريحة، وعندما حاول الخدم طردها تشبثت بالكراسي والكنبات، ونزعت عصبتها السوداء ورمتها، عندها خرج الشيخ مجبل، جلس في الكنبة المخملية الوثيرة الحمراء، وأرخى كفه اليمنى المكتنزة على ذراعها المذهب، قامت لتقبيل يده، أشاح وجهه، حاول ان يسحب كفه، لكنها تمسكت بها، قابضة عليها بأصابعها اليابسة، وبكفها الموشوم للمعصم، فلم يستطع الرجل أن يحرر يده من قبضتها الفولاذية، قال غاضباً اتركيها. قولي ماذا تريدين، هو يعرفها جيداً، امرأة تعادل عشرة رجال، بشكيمتها، أرخت قبضتها، فسحب كفه المضغوطة بسرعة، وأخفاها بين فخذيه الممتلئين، ورغم معرفته بسبب زيارتها، تظاهر بأنه يتجاهل الموضوع الذي جاءت من أجله، وكرر تساؤله واستغرابه من وجودها في بيته، وتبجح أمامها أنه شخصية هامة، وأن ليس لديه وقت، فهو على موعد بعد قليل مع المحافظ ومدير الأمن، لم تفوت الخالة تلك الفرصة، وتوسلت اليه أن يتوسط لإخراج ابنها الموقوف، استهزأ وتهكم بها، وتظاهر أنه لا يعلم شيئا عن تهمة ابنها، فقالت، مصير ابني سعيد بين يديك.. يا عجوز السوء، لست أنا سليم الخماش، إذهبي اليه أن كانت لك حاجة عنده، كانت تعرف مدى تأثيره ونفوذه، لكنه أمعن في إذلالها وشتمها، ونعت ابنها بالشيوعي العميل، والكافر الملحد، وانه يستحق الأعدام، دافعت الخالة عن ابنها بشراسة، وسألته، من قال إنه كافر، رد عليها، هو كافر ومهدور الدم، بنظر الدين وفتوى المرجعية، توسلت اليه بوجع الأم التي تخاف على ابنها من غدر أقوياء اليوم، شاكية له، إن لم يساعدها وهو يمتلك الآن السلطة والنفوذ، فلمن تذهب، ألست رئيس عشيرتنا، قال عودي لبيتك الآن، وسأخرجه، ولكن ليس من أجلك، وإنما لا أحب ان يلوث سمعتنا، وعندما خرجنا من ديوانه، سألتها ونحن في طريقنا عائدين للبيت.

- ألم تلاحظي يا خالة كفة الكبيرة، لقد ضاعت كفي تماماً فيها عندما صافحته فكيف استطعت عصرها.
- كانت منفوشة مثل شليله صوف كبيرة وناعمة، ولكنها رخوة.

ضحكنا بجذل طفولي، ونحن نستعيد الأحساس بملمس الكف الإسفنجي لشيخ العشيرة المتغطرس.

وبعد تلك الزيارة، أُطلق سراح سعيد، فطبخت أمه طعاما لهذه المناسبة، دعتني وأمي، وقبل الطعام، ثار جدل عنيف بين سعيد وابن عمته حامد الذي كان آنذاك طالب يواضب على الدرس الديني، حاولت تهدئتهما، ولكن لم تفلح، كاد الجدل بينهما ينتهي بعراك، لولا تدخلها القوي، الذي حسم الموقف، لعنت الشيطان الذي تعتقد انه وراء كل خصومة تنشب بين الناس، وتلعنه هكذا 'العنوا ابو مره.'

ومع أنهما جلسا هادئين بانتظار الطعام، لكنهما خاضا مرة أخرى بموضوع حساس فسعيد يشعر بمرارة وغضب جراء ما تعرض له من تعذيب قاس كان يصفه بالمهين، فقد أفقده التعذيب إنسانيته، عاملوه كحيوان محبوس في قص حديدي، يجلد بانتظام بالكيبل، ويبصق في وجهه كلما أراد الذهاب للمرحاض لقضاء حاجته، لقد ثلم التعذيب شيئاً من رجولته يخجل البوح به، ربما مارسوا معه ما هو أبشع من قلع الأظافر، الخازوق العراقي، وهو قنينة مكسورة الراس يقعدون عليها السجين..

تحدث عن رفيقه الشيوعي المندائي الموقوف معه، الذي كان يستهزئ بهم بعد ان أن يعيدوه من قبو التعذيب، كان يتألم بصمت، حتى أن سعيد راح يشك بأنهم لا يعذبونه بالقسوة التي كان يعذب بها، فسأل مرة أحد الجلادين، لماذا تعذبونني أكثر منه! ضحك الجلاد وسخر منه قائلاً.

- أن رفيقك ابن كلب، أما أنت فابن سطعش كلب.

شعر سعيد أن حامدا، لم يكن سعيداً بإطلاق سراحه، فالرجلان كانا على طرفي نقيض، وعندما أنحى سعيد باللائمة على المرجع الديني الذي أفتى بهدر دم الشيوعين لأنهم برأيه كفرة ملحدين، دافع حامد عن المرجع الديني، وأيد الفتوى واعتبرها صحيحة، غضب سعيد جداً، وتساءل، هل انحاز الله الى جانب البعثيين ضد الشيوعيين، وأعطى الأذن بقتلهم، أم أن المرجع هو الذي إعطائهم الضوء الاخضر..

نهرتهما أم سعيد، وأحضرت لهم الطعام، قالت اذكروا اسم الله حين تشرعون بالأكل، لن اسمح لاحد بالكلام، وقالت شيئاً أتذكره الى الآن، ابتهلت الى الله أن يعاقب كل من كان سببا لهدر دماء الأبرياء، وإن كان المرجع الديني، وأن يظهر حوبتهم به وبأبنائه.. رد عليها حامد مستنكراً، تجاهلته وتوارت في عتمة الحجرة، لإحضار شيء طرأ على بالها تلك اللحظة..

كان الجدل السياسي يحتدم حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، نتيجة للتقلبات السياسية المتعاقبة.. الناس منقسمون دائماً، تساءلت أم سعيد، قولوا لي ماذا يريد ابن آدم من هذه الدنيا، انتظرت فوجدتهم صامتين، لم يحر أحد منهم جوباً، نظرت لحامد، توقعت منه أن يقول شيئاً، لكنه ظل صامتاً.. أكملت، اليس كل ما يحتاجه، هدم يستره حياً، وذراعين من خام ابيض لكفنه ميتاً..علقت ضاحكاً، أما عاشور المخبل، فيكفيه ذراع واحد يا خالة.. ضحكنا جميعاً كالأطفال.

أم سعيد التي شاكستها الحياة كثيراً، شبكت كفيها على رأسها المعصوبة بعصبة سوداء، كأنها أرادت أن ترى مدى تقبلهم لما قالت قبل قليل، لقد وضعت كفيها فوق ذلك الجرح النازف منذ القدم، عبرت عن رؤيتها لحياة الأنسان، ببساطة وعفوية وصدق، أحسن من بعض أئمة الجوامع الذين يرفعون عقيرتهم بالصراخ، الذي يصم الآذان من دون أن يقولوا شيئاً قيما ومفيداً للناس، وكأن ام سعيد لم تستطع أن تكمل كلامها، فتقول، ولقمة تسد الرمق غير مغموسة بالدم، وقبر يرقد فيه الميت، ولكن لا يدفع اليه دفعاً..

كنت تلك اللحظة من الزمن الماضي، أريد أن أدخل تلافيف مخها، لأفهم ما تفكر به، وأعرف هل أن العري الذي نخجل منه، هو عري الجسد أم عري الروح، وعري الحقائق المتلبسة بالأوهام المتساقطة كأوراق الخريف..

انشغل الجميع بالطعام، ولكن سعيد كان يقرب اللقمة من فمه ويتوقف طويلاً، ربما لأنه يتذكر بمرارة إهانات السجان المتعمدة خاصة عند تقديم الطعام في مديرية أمن العمارة.

كان آخر مرة رأيت سعيد، في الصيف الماضي.

الفصل الثالث

عندما خرجت الخالة أم سعيد، مسرورة بالهدية، سألت أمي فيما إذا اخبرتها اين يختفي ابنها، هزت رأسها بالنفي، فعلمت ان الخالة لم تقل شيئا، فتساءلت امي، ألم تقل أنه التحق بالأنصار في شمال العراق، فكان جوابي أنه مجرد توقع لا أكثر، وأني لست متأكد، بعضهم فروا للشمال، والبعض الآخر التجأوا الى إيران قبل سقوط الشاه، ليتم تهريبهم بعد ذلك الى الاتحاد السوفيتي، ومن لم يستطع الهروب وهم الأكثرية، بدأوا يلمونهم ويزجونهم بالسجون، ضحكتُ، فسألتها، ممَ تضحكين.

فراحت تتعجب من زماننا هذا.. يغرفون الناس كالسمك من الماء، وتذكرت، زمنها، أيام الزره، كانت البنات الحديثات، يجمعن بثيابهن؛ صغار السمك الزوري، العالق بين الزروع ، كن ينتظرن موسم الفيضان كل عام لأنه يشبع بطون الجميع قلت بسخرية، الفرق بين الزمنين كبير جدا، في زمن سليم الخماش السمك أثمن من الإنسان، ولكن برأيك ماما، أي الزمنين أحسن.. لست أدري، اسأل الناس وسوف تعرف.

وعيت منذ وقت مبكر، أن أمي تريد أن تؤصل فيَّ فضيلة الصبر، لأنها تعتقد أن التحلي به يمنح المرء قوة على احتمال ما في الحياة من مفاجآت مؤذية، وبه يستطيع الإنسان أن يحصل على فضائل آخرى، منها الحكمة، والشجاعة، وفوق كل ذلك الرضا، فالإنسان بحسب فلسفتها الفطرية، لا يأخذ أكثر ولا أقل مما يحتاج، وحكمتها أنك لوأخذت أكثر من حاجتك او ما تستحق، لوجدت أن الزيادة

ستعود عليك بالضرر، وتردد على مسامعي هذه العبارة 'الذي لديه الكثير لا يملك، والذي لديه القليل لا يهلك، إقتنع بما قدره الله لك من الرزق، ترح نفسك'.

كانت تحكي لي عن معاناتها، ولكن دون شكوى، تقول دائماً، إياك أن تعثربأحجار الطريق، أمض في طريقك، ولا تخشى إلا خالقك، في ريعان شبابها بكت الزوج القتيل، في معارك الجيش مع الكرد، بعد زواج لم يدم سوى اشهر قليلة.

تختزن في ذاكرتها حكايات كثيرة، لا أعلم من أين استقتها، في طفولتها المبكرة، ختمت القرآن في العاشرة من عمرها، وكانت منذ عهد قريب تمد حصيراً تحت الطارمة، وفوقه أبسطة من الصوف وعليه وسائد مريحة، تدعو نسوة الزقاق، فتقص عليهن فاجعة الطف، فيرتفع النواح والأنين عالياً على السبط الشهيد، وكانت نساء الزقاق النائحات في هذا المأتم الحزين، يواسين زينب بأخيها الحسين، وبذلك استحقت أمي لقب الملاية، وصرت أنا أكنى بابن الملاية.

كن يأتين الى بيتنا، يعقدن مأتم بدون ميت، يتناوبن الأدوار في أداء سمفونية الحزن الجنوبي، تبدأ إحداهن فترنم النعاوي الشجية، ثم تعلو نعاوي أم سعيد، كأنها القدر الصارم، ينشر كتائبه السوداء، تشكو بلسان حالها، متمثلة نفسها، واقفة أمام باب تطرقه فتجده موصداً بوجهها، فتتساءل هل تعود أدراجها أم تنتظر، حتى يأتي من يفتحه لها، ولما يطول انتظارها وتيأس، تدرك أن السبب ليس غياب أهل البيت، بل هو إنقطاع حبل المودة، أو تتخيل نفسها في ترنيمة أخرى أن زائراً من الأحبة جاء يطرق بابها ليلاً، وحين تقوم متلهفة لفتحه لا تجد سوى ريح كاذبة كانت تصفع الباب بعنف، فترجع خائبة ..

سمعت تلك النعاوي الحزينة، يتردد صداها في أرجاء البيت، تقطع نياط القلب، كأنها أجنحة طيور تائهة مهاجرة، تفتش عبثاً عن مجثم آمن تحط عليه، بعد رحلة طيران طويل ومضن، فلا تجده.

كانت الدموع تنهمر من عيني الصبي الذي كنته، سخية ساخنة، كلما سمعت تلك السمفونية الجنوبية الحزينة.

أحياناً تسـرد عليَّ هذه الحكاية، التي نُقشـت في ذاكرتها الطفولية المبكرة، بحبر اسور لم يمح أبدا، تبدأها هكذا..

لم أكن قد أكملت الثانية عشـــر، حين تطلقت أمي، فأخذني مع أختي الصـــغيرة ذات الأعوام الأربعة، أقاطعها مستفسراً، أماه من أخذك.. فتقول هو، جدك الظالم. فأفهم أنها تقصـد أبوها، لأنها لا تحب أن تلفظ اسـمه، حتى أني كنت أجهل اسـمه، فتكمل، أخذنا الى بسـاتين النخيل في البصـرة، كان الصـيف شـديد الحرارة، وكان يعمل أجيراً لقطف التمور وكبسـها بطرق بدائية، في أماكن رطبة، قذرة، يعج فيها الذباب والبعوض، كنت أطبخ طعامه، وأعد له الشــاي، وأغسـل ملابســه، وبنفس الوقت أعتني بأختي الصغيرة، وعند استراحة صلاة الظهر، كنا نجلس تحت ظلال النخيل، وفي الليل كنا نستتر داخل خص مبني من جريد النخيل وحصير القصب، مكشوف لسماء تومض بنجوم بعيدة، مضاء بفانوس شحيح النور، وفي هذا المكان مرضت الصغيرة، أصيبت بحمى التيفوئيد، كانت امرأة عجوز تعمل لها شرابا من الأعشاب، وتسقيه للطفلة المحمومة، لم يجد العلاج نفعاً، وفي ليلتها الأخيرة، فقدت وعيها وماتت بين يدي عند الفجر. منعني من البكاء، دفنها بعيداً عن المخيم، تحت أصل نخلة وغطى قبرها بالسعف اليابس.

لم تنس أمي تلك الحادثة، التي لم يســتطع الزمن الطويل أن يُدَثرها بنعمة النسـيان، كانت تعيدها على مسـامعي المرة تلو الأخرى، بنفس الوتيرة من الحزن والألم، كأنها حدثت بالأمس القريب، فتقول كل مرة، عندما تنهي الحكاية، كتمت صرختي في صدري تلك الليلة، ولا تزال مكتومة كل تلك السنين الطويلة، وعندما أسـألها، أماه ألم يحن الوقت لتطلقيها من سـجنها. كانت تقول، مصـيبتي لا شـيء، بالنسبة لمصيبة السيدة زينب.. وحين أتساءل، أماه، ألا تنسين تلك الحكاية. كانت تقول، كيف أنساها، النسيان فيه شـيء من الراحة للإنسان، ولكن فيه أيضاً شـيء من الإهمال وعدم الوفاء لمن نحب.

فجأة وجدت نفســي أُوقف شـريط تلك الذكريات، مندفعا لحجرتها، أسـألها عن حناية جارتنا القديمة، قالت مســتغربة، من ذكرك بها الآن.. تنورنا الخامد منذ سنوات.. هاجرت الى بغداد، وإنقطعت اخبارها، لا اعرف عنها شيء.

استلقيت على سريري، فتحت كتابا، لمجرد أن أكبح جماح أفكاري، انزلق الكتاب بين ركبتي، كنت أنصت لصوتها عند التسبيح، تخافت فلا يسمع سوى طقطقة خرزات المسبحة بين أصابعها، تنتهي من تدويرها، فتعيد الكرة، المرة تلو الأخرى..

أنا الذي أدمنت التأمل، أعتقد أن الأفكار أحيانا تكون عدو للإنسان، ويجب الحذر منها، ففي المثلث المنكوس على رأسه المسمى وطنا، تنتحر فيه الأفكار عندما تلامس الواقع، او تموت كمدا من تلقاء نفسها، وكلما أندفع شوطا في تأملاتي، أزداد خوفا، وأتمنى أن أكون مثلها بهذا القدر من الأيمان والتسليم، فأرتاح من التفكير، الذي أورثني الاضطراب والقلق، واضطرني لأخذ الحبوب المنومة، للتغلب على الأرق الذي لازمني منذ مرضها، لم أعد أحلم بشيء جميل، لأن الأحلام احترقت هذه الأيام كفراشات هائمة حول اللهب، في مدينتي التي لا تثير أنتباه العالم، لا يحق لأحد من أبناءها أن يحلم، أو يرسم صورة خيالية لمستقبل يتمناه، او يمني النفس بتحقيقه، أو يكتب قصيدة غزل تشعل النار في دمه، أو يموت ويدفن بجوار من يحب .. ممنوع عليك أن تقرأ كتابا يخالف ايديولوجية الحزب الذي رفع شعار جئنا لنبقى..

في هذا المكان الشرس، ثمن الأنسان عدد الرصاصات التي تقتله، الأنسان في هذه الأرض مخلوق بائس، جاء للحياة صدفة، او هو كأي عود يابس، يحطب عند الحاجة، لا تستطيع كائنا من تكون، أن تقول لسليم الخماش أنا أختلف معك بالرأي، لأنك قبل أن تلفظ تلك الكلمات، ستقول لنفسك طز.. من أنا! من أكون، وماذا يساوي رأيي مقابل رأيه..

تجادلت يوما مع نفسي، حينما نلت درجة الماجستير بمرتبة الشرف، وأخذت أخطط لنيل الدكتوراه، وإنضممت الى الحزب الحاكم، لأن الإنضمام اليه من ضمن الشروط للحصول على بعثة دراسية، تساءلت بمرارة، هل عليَّ أن أفرح لأني سأنال درجة علمية عالية، يتمناها الكثيرون، أم انها لا تستحق كل هذا العناء والتعب والدراسة، في بلد فيه يد العالم مغلولة ويد الجاهل مطلقة، وما قيمة شهادتي الجامعية في بلد لا قيمة ولا كرامة فيه للعلم وللعلماء، كما في بلدان العالم المتقدمة والمتحضرة.

سمعت أمي ترفع صوتها بعد ان أنهت أورادها وتسبيحاتها: الحمد لله، رددت وراءها بلا وعي.. الحمد لله والشكر لله على كل حال ومآل..

ذهبت للكيال، أودعه قبل سفري الى بغداد، فوجدت عنده الحاج سبتي، تاجر أقمشة معروف، وصديق قديم لموسى الكيال، أحمل له مودة خاصة، ذكرى طيبه لن أنساها، كانت أمي تفكر بهدية تقدمها لي بمناسبة تخرجي من الجامعة، واستقر الأختيار على قطعة قماش انكليزي، بدلة التخرج، أعطتني عشرة دنانير، وقالت، اذهب لمحل القماش الحاج سبتي واختر ما يعجبك، وبمساعدته انتقيت قماشا صوفيا فاخرا، ازرقا فاتح اللون، مقلما بخطوط طولية زرقاء افتح قليلا، علامة العلمين المشهورة، لم يقبل الحاج أن يأخذ مني الثمن، ولما وجدني مصرا على الدفع، قال سآخذ منك خمسة دنانير فقط، ولكن ستكون خياطة البدلة على حساب المحل، ثم أتصل بالخياط وأوصاه أن يعتني بفصالها ولا يأخذ شيئا مني، بعد أن وضع سماعة التلفون، قال مبروك أبني على التخرج.

سلمت عليهما، وصافحت الحاج سبتي، وتبادلنا تحيات المجاملة التقليدية عن الصحة والأحوال والسؤال عن سير العمل وغيرها، كان الحاج يكرر الحمد لله على كل سؤال، جلست وقلت مع نفسي الحمد لله، هي بلسم شاف لكل مشاكلنا مهما عظمت أو كانت مستعصية، فهذه الكلمة مفتاح السر للراحة النفسية، ما لم تتحول الى مخدر، يقتل فينا العزيمة والجرأة والإقدام والاقتحام.

كنت أبتسم، وكان الرجلان يضحكان، والكيال متحمس ليطلعني عما دار بينه وسليم الخماش، حينما استدعاه للمرة الثانية، ليسأله عن العراف المندائي، فسألته ماذا قلت.. لم أقل شيئا، انت تعرف أنا لا أصدق أصلا بوجوده.

وراح العجوز يسرد بالتفصيل كل ما رأى وسمع ودار في مكتب مدير الأمن، إبتداءاً من استدعاء ضابط الأمن فاخر خريبط، والسؤال عن المندائي الذي يتناقل الناس اسمه هذه الأيام، فزوده الضابط بالمعلومات التي جمعها، وأنه كان شخصيا مهتما بالأمر، وينتظر ايضا إهتمام رئيسه سليم الخماش ، ولما سأله المدير، ولماذا اهتم به ، ولأي شيء.

- الموضوع سيدي يتعلق بالحرب.

- أي حرب.
- الحرب التي ستشتعل قريباً..

قاطعت الكيال مستفسراً عما حدث بعد ذلك، فراح يصف ما إنتاب الخماش، صرخ بعجرفته المعروفه بوجه الضابط، قال.. نحن الذين سنحدد متى وأين ستشتعل، نحن نختار المكان والزمان، ثم أمره، أن يذهب ويلقي القبض على العراف، ولما أخبره الضابط أنه غير موجود، الرجل عاش ومات في اواخر الدولة العثمانية، هوى الخماش بكفه على المنضدة، مستنكرا إهتمام الناس بعراف مات منذ سبعة عقود من الزمن، فكر وهو يعبث بشاربه الأسود المسترخي على شفتيه، وأمر الضابط ان، يذهب فورا ويحضر له الشيخ المندائي.

وقبل ان أغادر بيت الكيال، أحطت علماً بكل التفاصيل.. رسمت صورة خيالية، مزجت فيها ما شاهده الكيال واقعياً، وما استوحيته من سرده المفصل، فكانت كالآتي:

الشيخ مَثُلَ أمام المدير في خلال نصف ساعة، وحكى له عن سر تلك الحكاية القديمة، قائلاً ان المندائي سنيجر، المنسوبة اليه تلك النبوءة، قد تنبأ بشئ آخر.. بمعركة تندلع بين عشيرتين، وسماها 'طرقاعة' وهي بلهجته الميسانية تعني مصيبة، تصيب عدد محدود من الناس، بينما أهوال الحرب أعاذنا الله من شرها، تصيب الشعوب..

استغربت من دقة تفاصيل الكيال، فلم يترك شاردة ولا واردة، حتى ملاحظة الابتسامة الساخرة التي كانت تعلو شفتي الشيخ المندائي، وهو يوضح لمدير الأمن، الفرق بين الحرب والطرقاعة، وينسب الحرب للشيطان البارع في تأجيج نيران الحروب بين البشر..

سليم الخماش هذا أنا اعرفه إنسان متعجرف؛ وغريب، ولا يعرف شئ عن تاريخ مدينتنا، وأن ما شاهده الكيال، من انقلاب مزاجه، وإربداد وجهه وتجهمه.. كما وصفه الكيال، انه كان كمن قد رُشِقَ وجهه بحفنة رماد حار، وكان سبب ذلك، عندما تطرق الشيخ المندائي لذكرعالم فيزياء مشهور، من أبناء طائفته، من دون أن يفصح عن اسمه، مفتخرا بأنه رفع اسم العراق في الأوساط العلمية في العالم،

وأنه كان صـــديقاً لإينشـــتاين.. ذكر الكيال ان الخماش قاطعه بخشــونة..لا تكمل.. نحن نرفع مقام من نريد ونطيح بحظ من نريد، افهمت.

فهمت ســبب غضـــب الخماش، لأن الشــيخ كاد أن يذكر أســما لامعاً لعبقري عراقي من أبناء طائفته، وســـليم الخماش لا يطيق ســـماع أســـماء لامعة لرجال مشـــهورين، تخطف الهالة المصـــطنعة حول الرئيس، لأنه لا يعترف بعبقري آخر غير سيده.

تذكرت أثناء وجودي في منزل الكيال، أن الحاج سـبتي، طرح سـؤالا عن قصـة قلم الحبر، الذي اهداه اينشتاين الى تلميذه المتفوق عبد الجبار عبد الله، وكان الحاج يريد ان يلفت إنتباه صـــديقه الكيال، فأدليت بدلوي، وقلت لهما هذه قصـــة مؤلمة أخرى، فالقلم الذي كان يعتز به الدكتور جدا، ولا يسـتعمله الا نادرا، كان في جيبه اثناء اعتقاله، وسُـــلب منه عندما كان محتجزا في معتقل النادي الأولمبي عام 63، كما وأنه أُهين وأُجْبرَ على تنظيف المراحيض. وقد نقل الحادثة معتقل شيوعي كان معه، قال ان البروفيســور عبدالله، تألم كثيرا، ودمعت عيناه عندما شــتموه واخذوا القلم عنوة منه..

أليس هذا شـيء مؤلم، ختمت كلامي بتلك العبارة، تساءل الحاج سبتي مستنكرا، عن ذاك الحقيرالذي تجرأ عليه بهذه الوقاحة، فقلت للأســـف يا حاج، أحد طلابه الفاشلين في الدراسة.. مؤلم جدا.

تألمت للشيخ المندائي والد صديقي الدكتور هلال، فقد كان في تلك اللحظة، بأشد حالات الحرج.. لا بد أنه كان مرتبكا ومطرق الرأس كالأسيرفي قبضة آسره.

عرفت ان سليم الخماش بدون الرئيس لا يسوى شيئا، ولهذا السبب يعظمه، ومن خلاله يعطي لنفسه قيمة وأعتبارا، وأهمية لا يستحقها.

وصــــف لي الكيال التوتر الذي خيم تلك اللحظة.. وكيف اســـتعاد المدير هدوئه والسيطرة على انفعاله بسرعة فائقة..

فهو حقيقة كما وصـفه الكيال، يغضـب بسـرعة ويسيطر على غضـبه بسـرعة أكبر، وأنه بعدما أسـتعاد هدوئه، أراد أن يسـترضــي الشـيخ ويقنعه، بترويج نبوءة العراف بين الناس، رغم تكذيب الشـيخ المندائي لها، ولكن بقلبها رأسـا على عقب،

يا له من ماكر..كان يريد أن يوهم الناس بأن المندائي تنبأ بأن الحرب هي إرادة إلهية، وعندما تنتهي سريعا، سيكون النصر حليف الرئيس..

خرج الشـيخ المندائي من مكتب سـليم الخماش، ولم يعد بشــيء، تصــرف كما ينبغي أن يتصرف الحكماء، في موقف كهذا مع رجل سلطة، كان الشيخ أثناء هذر الخماش وهذيانه، وهياجه، يومئ برأســه بحركة خفيفة، هادئا وقوراً، لم ينبس بكلمة، كانت لحيته الطويلة البيضــاء تهتز فتلامس صــدره وتقبله.. كأنها تبعث رسـالة رفض واضـحة، ولكنها غير مفهومة، لأولئك الذين لا يفهمون إلا لغة القوة والغطرســة والعنف، ربما ألتبس الأمر على المدير، فهمها خطأ، على أنها تعني القبول، وعند توديعه حذره من تجاهل الموضــوع، وأغراه بالمكافأة، ولكن الشـيخ المندائي رمقه بنظرة لا تنم عن الخوف، فيها شيء مزيج من الشفقة والاستهزاء..

ختم الكيال كلامه:

- هذا كل ما دار في مكتب المدير قبل يومين.

لم يترك الكيال شــاردة أو واردة، في ذاك اليوم، الذي سـبق دورة السـنة الجديدة، دون أن يقصها بالتفصيل.

استأذن الحاج سبتي، ودعنا وذهب، قال الكيال وهو ينظر مباشرة في عينيَّ، مع ابتسامة خجل ترف على شفتيه:

- أبني نوح، أنت تعرف الحاج سـبتي كما أعرفه، إبنته الوحيدة سـيناء شــابة جميلة، صـحيح هي أصـغر منك، لكن فرق العمر ليس مشكلة، الرجال غالباً يتزوجون من نســاء أصــغر منهم سـناً، أبوها يخاف أن يضـيع مسـتقبلها بالتســفير، وهو يحبك.. توقف برهة، وركز نظرته على عينيَّ، وأتم كلامه، الأب يرغب بتزويجها لك قبل فوات الأوان.
- انا اعرفه رجل طيب.. وابنته سيناء يتمناها كل شاب، ولكن انت تعرف سبب إعراضـي عن الزواج، والآن أُضيفَ سبب آخر، مرض امي، قل للحاج، ألا يضـطر لتزويج ابنته تحت ضـغط أي ظروف إسـتثنائية، من واجبه كأب أن تكون معه، ان يحميها اينما ذهب، مستقبلها ان تتزوج في ظروف أحسن، أنا مستعد لمساعدته، لكن ليس في هذا الموضوع.

- لن أقول له شـيء، سـنترك الموضـوع لوقت آخر بعد عودتك من بغداد، لعل التأخير فيه خير إن شاءالله.

عدت لمنزلي أفكر بسـيناء التي بات مصـيرها متعلق بالتسـفير، وفكرت بموسى الكيال الذي ناداني لأول مرة بكلمة ابني، لم أسـتغرب، لأن ذلك شـيء متعارف عليه في مخاطبة الكبارلمن هم دونهم في السن، رحت أحدث نفسي، فلو أنني قبلت العرض، فسوف لن يكتفي التاجر بذلك، سيحملني مسؤولية أكبر؛ ممتلكاته، ولكن لا، لم يعد بإمكان التبعية أن يتصـرفوا بها بالبيع المباشـر، أو عن طريق توكيل الغير، لقد أُغلق هذا الباب بوجههم أيضـاً، ربما هو يفكر، بأن ممتلكاته في حالة زواجي من ابنته سـتؤول لنا ولأبنائنا الذين هم أحفاده، وبذلك يخلص البنت من التهجير القسري وممتلكاته من المصادرة.

كنت عند عودتي للبيت، أريد ان أطرح الموضـوع على والدتي، ولكن ليس هنالك متسع من الوقت لأي شيء، الأفكار تزدحم برأسي، والتوتر السياسي يتفاقم يوما بعد يوم، بين البلدين الجارين بوتيرة متصـاعدة، بسـبب الخطب النارية، والتهديد، والإعلام العربي والغربي. لم يبق سـوى يومين على السـفر، وكان آخر شيء أتمناه إذا أُتيحت لي الفرصة، زيارة الكنزبرا زهرون، قبل السفر.

في يوم السـفرصـباحاً، جاءت الخالة أم سـعيد تودعنا، عانقت والدتي عند الباب وبكت، ثم سـكبت طاسـة ماء عندما تحركت السـيارة قليلاً، كانت يداي على المقود وعيناي تنظران لهذه المرأة الرائعة التي أحبت امي حبا صـادقا، فهما بنظري اختان وإن لم تنجبهما ام واحدة..

قبل عبور نهر الكحلاء، إلتفت لجهة اليسـار، حيث كانت مدرسـتي الأبتدائية هناك، على مبعدة مسـافة الرؤية، كان المكان فارغا، إختفت، عبرنا الجسـر الثاني فوق نهر المشـرح، وكأي مسـافر الى بغداد اتجهنا شـمالا، قبلة المندائيين، نسـتقبل الفضـاء المفتوح ، والممل لرتابة المناظر التي لا تتغير، عدا البلدات الصـغيرة، الواقعة على جانب الطريق الايسـر، المحاذية لنهر دجلة العظيم.. نظرت لوالدتي بجانبي، وجدتها نائمة، قلت ربما لم تنم البارحة، فكرت بالشـيخ المندائي، الذي حطم غرور سليم الخماش وكسر كبرياءه وصـلفه، وقلت في نفسـي، سـأزوره بعد

عودتي، ، وكذلك خطر على بالي ما ذكره القاضـــي عبد الهادي إجباري عن الحلاق أبو أنور، فكرت أنه ربما تورط مع الحكومة، فقد إعتاد في الآونة الأخيرة على الاستماع للإذاعات المعادية، يلصق راديو الترانستور الروسي الصنع على إذنه، ويدور قرص المحطات، كلما اختلى بنفسه عندما يخلو المحل من الزبائن، وهم قلة الآن، الشباب يفضلون اليوم صالونات الحلاقة العصرية، محله بقى محافظا على طابعه القديم، حتى اللوحة التي رايتها أول مرة، لا تزال في مكانها على الحائط.

قلت في نفسي، لقد كبر الحلاق العتيد، ولم تعد يده ثابتة، تستطيع التحكم بأدوات الحلاقة الكهربائية الجديدة، تذكرت ابنه أنور، كان تلميذا مشاغباً، ولطيفاً في آن، صوته ناعم كفتاة مغناج، حين يريد شيئا من زملائه، يأخذه، ولكن برضاهم ، وقلت في نفسي سأمر على محل الحلاقة لأتأكد بنفسي من صحة ظنوني، تذكرت أيضاً مدرستي الابتدائية، القمت شريطا لفيروز داخل مسجلة السيارة، وخفضت الصوت ، وفتحت الشباك بجانبي ونظرت مرة آخرى لوالدتي النائمة، وقلت لآدع دفتر مذكراتي يقلب اوراقه القديمة، بينما انا استمتع بصوت فيروز الملائكي وامي تنام مطمئنة بجانبي.. وأنا أنظر بإنتباه الى الطريق أمامي، وأبطئ السرعة حتى التوقف، عند الإقتراب من نقاط السيطرة المنتشرة على طول الطريق.

كان اصبعا ابهام وسبابة خفيان، من وراء ستار الماضي، يتصفحان مذكراتي، يقلبان الأوراق .. وفي كل صفحة حكاية تسرد إثر آخرى..

بيت الشيخ المندائي، كان ولا يزال في مكانه، مقابل النهر، أما مدرستي الإبتدائية وأسمها السلام، فلم يعد لها أثر، كما إختفت دار البلدية، والمحكمة، التي غيرت فيها اسمي من إجباري الى نوح.

كانت مدرستي لا نظير لها بين مدارس المدينة، تنعكس بنايتها ذات الطبقتين على صفحة النهر، يجري الكحلاء حذو سياجها من جهة الشرق، ومن بين أغصان الكالبتوس يرقص قرص الشمس، فوق ساحتها المفروش جزء منها بالرمل، كانت مشيدة من الطابوق المحلي، تعلو فوق أشجار اليوكالبتوس القديمة في حديقة

المرسى النهري، هناك كانت ترسو بضعة بواخر كأنها نوارس بيضاء، تراءت لي صورة المدرسة، وأنا أنظر أمامي للطريق رحت استذكر تلك الأيام الخوالي..

كنا نمد اصابعنا الصغيرة، من بين قضبان سياج المدرسة الملاصق لحديقة المرسى لنخطف الصمون من أيدي البحارة، كان هلال يمرر يديه ويتلقف صمونتين من الشعير، قاسيتين كالحجر، نلتهمهما بشهية عجيبة، في فترة الاستراحة الكبيرة، كانت مدرستنا الرائعة، قريبة من جسر الكحلاء الحديدي المتحرك، الذي بناه الإنكليزعلى نهر الكحلاء.

التفت لوالدتي رأيتها نائمة، وقد أرخت عصبتها لتحجب شمس الظهيرة عن عينيها الكليلتين، لا يزال الطريق طويل، ووقت الوصول لبغداد مبكر، على الأقل ساعتين حتى نصل الى مشارفها..

اوراق المذكرة تنقلب صفحة تلو الآخرى، وانا استمتع بشمس ربيعية دافئة، أمي مستغرقة بنوم عميق، وسماء زرقاء صافية فوقنا..

يوما ما في تلك الأيام الجميلة، سمعت الحكاية الغريبة عن سقوط المدرسة التي تشبه لحد ما نبوءة المندائي، كنا في الرابع الابتدائي ...

حدث شيء غريب، في ضحى يوم شتائي بارد، تجمعت نسوة متلفعات بعبآتهن، ظهرن فجأة، كغيمة سوداء حطت على الأرض، نظر المدير من نافذة مكتبه المطلة على الشارع الهادئ، أستغرب وجودهن في هذا الوقت، وبهذا العدد غير المتوقع، قبل موعد انصراف التلاميذ، خرج اليهن ليستطلع الأمر، وعاد مسرعا لمكتبه، ثم خرج ثانية، وطاف على صفوف الطابق الأرضي، ثم أرتقى السلالم للطابق العلوي، وكان نادرا ما يفعل ذلك لسمنته المفرطة، التي ينوء تحتها في حركة بطيئة، وعاد الى مكتبه، تكلم مع أحد المعلمين، وبعد قليل تجمع حوالي العشرين تلميذا في الممر الضيق، المحصور بين مكتبه وغرفة الفراشين الصغيرة، تحت السلالم، حيث يعد فيها الشاي للمدير والمعلمين والضيوف، خرج بهم للنسوة وصرفهن واولادهن بهدوء، دون أن نعرف نحن الذين لم نكن بينهم، أي شيء عن الموضوع، بعد عودتي، علمت من أمي، أن حكاية سقوط المدرسة، من إختراع ساحرة، أرادت تمرير سحرها، ببث الفزع في قلوب الأمهات،أجلستني أمي على

الأرض، وقرأت المعوذتين، راسمة بكفها اليمنى، دوائر صغيرة فوق رأسي لطرد الأرواح الشريرة، وإفساد سحر الساحرة المجهولة ..

كنت أسمع قصصا مشوقة ومخيفة في آن، عن السواحر اللاتي يقصدن المقابر تحت جنح الليل، ينبشن القبور، ويستخرجن الجثث الحديثة الدفن، يستأصلن الأعضاء الذكرية، كانت أمي تكره السحر، ولكن عمتي فطم، كانت تفهم شيئا عن أساليبهن وطرقهن في أعداد العمل، ولكنها لم تكن واحدة منهن بالطبع، كانت أمي تستدعيها، عندما كنت أمرض كثيرا في طفولتي، لترقيني من الحسد ومن العين الشريرة، فكانت تحرق البخور، ثم تضيف اليه قطعة من الرصاص، تلتقطها بعد ان تنصهر، وترميها للماء، وتنظر بدقة الى الشكل الذي اتخذته قطعة الرصاص وتبدا تعويذتها لطرد الأرواح الشريرة، والسخونة المرتفعة، هكذا ' نشرتك من عين أمك وأباك.. ومن عين القصيرة الدحداحة والطويلة الرماحة، ومن عين اللي ماصلت على النبي ' وأحيانا كانت تستخدم البخور مع الحرمل والملح، تمزجهم وترميهم في المجمرة، فيسمع للمزيج طقطقة محببة، مع تلاوة المعوذتين مرسومتين بدوائر متتابعة فوق رأسي الصغير، وجبيني المحموم، وكانت أمي تهدهدني لأنام مترنمة بصوتها الحزين 'دللول يبني دللول، عدوك عليل وساكن الجول'.

كنت أحيانا أشم روائح غريبة تنتشر في الهواء، وتقتحم انفي في أماسي الصيف الدافئة، ولا يدري أحد من اين تأتي.. ولكن ما حدث فعلا، وإن كان بعد حين، هو أن سحر تلك الساحرة المجهولة قد أتَى أُكُلَهُ، وبدلا من انهيار المدرسة انهارت دار السيد، سليل الأسرة الحجازية الهاشمية، وذلك بعد ست سنوات وبضعة شهور، من ذلك اليوم الذي عُثِرَ فيه على صرة ملفوفة بقماش أسود، تحوي مخالب قطة، وشعر كلب أسود، وذيل فأر معقود ثلاث عقد، واشياء آخرى غريبة، مدفونة في الطرف الآخر من المدرسة، قريبا من مشارب مياه التلاميذ. وفي اليوم التالي، تباينت الحكايات عن انهيار المدرسة، لكن خيطها كان ينتهي بالساحرة التي أشاعت الخبر، ورغم عدم سقوط المدرسة، فقد دب الخوف في قلوب الآباء والآمهات من انهيارها على رؤوس الأبناء، سرى سريان النار في الهشيم، وامتنع بعض الأهل من إرسال أولادهم للمدرسة، فاضطرت أدارة المعارف، الى إرسال

لجنة من مهندسي البلدية، لمعاينة البناية، رأيتهم يحملون أجهزتهم ويمعنون النظر في الجدران والسقوف، يدققون النظر في كل الفطور والشروخ، مهما كانت صغيرة وغير مرئية، وبعد أن انتهوا من الطابق الأرضي، صعدوا للطابق العلوي، ودخلوا جميع الصفوف، وكان المدير يرافقهم، لم يتركوا زاوية في المدرسة، دون أن يدسوا فيها أنوفهم وعيونهم وأجهزتهم الغريبة، التي جذبت أنتباه التلاميذ، وبصعوبة بالغة وبشق الأنفس، تمكن المدير أن يرقى معهم الى السطح العالي، وهناك غابوا وقتا قليلا، كنت أنا وهلال نرمقهم من تحت بنظرات الأعجاب والدهشة، بعدها هبطوا للطابق ألأرضي، يلهثون تحت ثقل أجهزتهم، والمدير بكتلة لحمه، يلعن ذاك اليوم النحس، بأنفاس لاهثة متقطعة، جلسوا يستريحون في مكتبه، الواقع عند المدخل الرئيسي للمدرسة، وارتشفوا أستكانات الشاي الفواح برائحة الهيل، الذي كان يتفنن بإعداده عبدالله أبو نجم، فراش المدرسة، بعدها غادروا المدرسة مودعين من مديرها، الأستاذ أبو عوف، وبعد إيام قليلة، ظهرت نتيجة الكشف الهندسي، بالتقرير الذي تلى فحواه المدير، أمام التلاميذ وبعض أوليائهم، الذين حضروا ذلك اليوم، لسماع ما يقوله المدير، الذي طمأنهم بمتانة أسس المدرسة، ورسوخ بنيانها القوي، وأكد لهم أنها لا تزال يافعة، لم يمض على تشييدها سوى عقد من الزمن، ولكنها ستعمر إن شاء الله خمسة عقود أخرى، وستخرج أجيال من التلاميذ النجباء، الذين سيخدمون مملكة العراق الفتية، تحت ظل جلالة الملك فيصل الثاني، عاهل العراق المفدى..

التفت ثانية لأمي النائمة، ونظرت للطريق أمامي، قلت في نفسي، ألازلت تذكر يا نوح الأهزوجة التي أنهى بها المدير كلمته المقتضبة، رفع يده اليمنى ملوحا بها في الهواء وبالكاد استطاع ان يحرك قدميه، وصاح بأعلى صوته 'يادار السيد مأمونة' لم أكن حينها أفهم معناها، ولكن بمرور الزمن الجنوبي المتثاقل البطيء، أدركت أنها تعني الديمومة والبقاء لمملكة العراق ولملكها الهاشمي النسب.

توقفت عند نقطة سيطرة، نظر الجندي الى أمي النائمة، واشار بيده الى الطريق اشارة، تحرك.

في دفتر المذكرة الذي يحمل اسم كنزي الثمين للزمن القديم، انقلبت الأوراق على صفحة جديدة..

انقضى ذاك الزمن قبل ما يقارب العقدين وانقرضت معه المملكة الفتية، وماتت معها الى الأبد، أمنية مدير مدرستنا بدوام بقائها..

يحلو لي عندما أسترجع ذاك الزمن، أن أسميه 'زمن الاسترخاء الطويل والاغفاءة الناعمة اللذيذة، المستسلمة' فأنت في حالة كهذه لست بالنائم ولا الصاحي، بين اليقظة والحلم.. ولكن عندما تنفتح عيناك على العالم، وترى اضطراب ما يجري حولك، يبدأ زمن التشوش والاندهاش، وبسببه تصيبك فجأة رعدة الخوف والتوجس من المجهول، فينتابك شعور داهم بالمعاناة وفقدان الأمان، وربما الصدمة..

هذا هو الآن زمن الترقب والتربص، الذي نعيشه، زمن سليم الخماش وجهازه البوليسي المرعب.. وتحت تأثير تلك النبوءة الغامضة، التي كسر هلال يوما ما أختامها، وأخرجها من كثافة الظلام الى شفافية الضوء، كنا لا نعرف ما الحرب وما أهوالها، كان همنا آنذاك، أن نستمتع بطفولتنا البريئة، على ضفاف الكحلاء، نراقب السفن الشراعية تعبر من تحت جسره العتيد المسمى جسر الملك فيصل، الذي يرتفع آليا من وسطه، ليسمح لها بالمرور، في ذاك الزمن كنا نستعذب مرارة الفقر، ممزوجة بحلاوة الأمان، نحتمل قرصته الموجعة، فنتعذب ولكن بكبرياء.. لا نشكو لأحد فقرنا، لأننا نؤمن أن الشكوى لغير الله إذلال للنفس. والله قد حبانا نفوسا أبية، يحب أن تكون كريمة.. كنا ننام بينما تلسع أقدامنا حرارة الشمس تلك الغفلة الساذجة، اشبه بالوله المقدس، الذي يغمر روح الأولياء، ويجعلهم ساهمين عما يجري حولهم، من ضجيج الدنيا وكما كانت مدينتي غافية على أكف أنهر ثلاث، أحدهم من انهارالجنة.. كان سعيد ايضا، الذي عرفته في زمن الإغفاءة الرخية والأحلام السعيدة يتطلع من خلال دخان الماضي لمستقبل يرنو اليه خجلا حينا أو خائفا حينا آخر، قد أدرك أنه عاش حتى تلك اللحظة، مغفلا ومخدوعا، حينما صدق أن ورع الكيال نابع عن إيمان حقيقي، وبهرته هالة الوقار، التي تلازمه، أول مرة رآه، ولقب الحاج الذي يتوج أسمه، وأنه حقا رجل ممتن وشاكر للنعمة، التي أنعمها الله عليه، ولكنه فطن بعد ذلك، أن كل تلك الهالة سراب، وأن كل ما مرفوع أو متعال، كالآيتين المعلقتين في مكتبه، ما هي إلا زينة، وسيلة لذر الرماد في عيون البسطاء أمثاله، أفاق من نومه، فثار على الكيال، ووقف منافحاً

عن موقفه، ومناصـــرا لعائلة صـــديقه العامل القتيل مظلوم، فترك مطحنة الكيال، وامتهن السـواقة، كان ينقل المسـافرين من مدينة العمارة الى بغداد وبالعكس، يقود سيارة شيفروليه 58، يبرق لون معدنها الجديد بوهج أسود تحت الشمس، عندما تسـير في شـوارع المدينة، تخطف أنظار المارة، أشـتراها أحد تجار العمارة من الوكالة، في نفس السـنة التي سـقطت فيه الملكية، كان يريد أن يسـتخدمها لخدماته الخاصـة، وكان يمتلك معملا لصـناعة الثلج، ولكنه قبل تدشـينها بيوم واحد توفي فجأة بالسـكتة القلبية، فتشـاءمت العائلة، وسـلمتها لسـعيد، بعقد عمل خاص اتفقوا عليه.. هم يقبضـــون إيراد أسـبوعي، ويقبض هو أجر شـــهري، وعليهم تكاليف التصـليح والوقود وأجرة مبيته في الفندق ببغداد إذا تطلب الأمر ذلك.. صـرت لا أراه سوى مرة واحدة في الأسبوع، وأحيانا تمضـي أسابيع دون ان أراه، وفي يوم من أيام رحلاته المكوكية، جاءني يريد أن أسـافر معه إلى بغداد صـباحا، كان قد استأجره تاجر ميساني، ولأني أديت امتحان البكالوريا لتلك السنة، وأرهقت نفسي كثيرا، فرحت بالعرض ولكني تطايرت من اليوم، فغدا سـيكون الثالث عشـر من تموز.. طمأنتني أمي، بأن الأيام كلها واحدة في روزنامة الله، ولا فرق بين يوم وآخر، والأرقام لا تعني شيئا، سوى دلالتها الحسابية، التي يستعملها الأنسان، فهو الذي أخترعها، وهي ليست ضاره ولا نافعة.. فاطمأنت نفسي، وزال عني هاجس النحس من رقم 13 وحلمت تلك الليلة قبل السفر، بشوارع بغداد وجسورها المشادة على الدجلة بأضوائها الصارخة المتألقة ليلا، وبشارع الرشيد، الذي سمعت أنه أطول شـارع فيها، وفيه مخزن تسـوق كبير، يدعونه أورزدي باك، ودور سـينما مغلقة ومكيفة، ركس وروكسـي، وشـارع أبي نؤاس، لؤلؤة بغداد المتألقة على نهر الدجلة، حلمت بهذه الأماكن وغيرها، انطلقنا صباحا ساعة الشروق، كما انطلقت اليوم بنفس الوقت، عبرنا الجسـرين فوق النهرين، وفي غضـون دقائق قليلة، غادرنا المدينة، وصرنا خارج أسوارها المائية، وغابات نخيلها الحارسة، اجتزنا القناطر السـبع القديمة، التي ينتهي عندها خط السـيول، متقاطعا مع طريق السـيارات، بعدها راحت السـيارة تنهب الطريق غير المعبدة آنذاك، وسـحابة من غبار كمذنب طويل خلفها . كان شبح تلك الأفاعي التي يجرفها السيل تسيطر على

خيال من يلتفت لجهة الشرق، تقفز حكايات الأفاعي، ربما تزجية للوقت وتخلصا من الملل.

تذكرت التاجر الميساني، في تلك الرحلة التي مضت عليها سنوات عديدة، كانت الأولى لبغداد، أشار بيده صوب الشرق، نحو الجبال البعيدة، التي تبدت قريبة وواضحة، بانت أشبه بدخان أزرق كثيف، وقد رأيتها منذ أكثر من ساعة عندما اجتزنا جزءاً من الطريق.. قال على ما أذكر، حمل السيل قبل سنوات، أعدادا كبيرة من الحيوانات النافقة، خنازير برية، وحصان، وجثة إمراة قتيلة، رماها السيل كلها على حافته الترابية.

كنت أحب درس الجغرافيا، أضافة للأدب العربي، وأردت ان ألفت انتباه التاجر، أذكر أني قلت.. تنحدر رؤوس السيول، عند هطول الأمطار الغزيرة، بقوة من جبال زاغروس الإيرانية، باتجاه الوديان، ثم تكتسح كل ما يعترض طريقها، مندفعة بعنف نحو المناطق الواطئة، حتى تنتهي أذنابها عند القناطر السبع، ولكن الأفاعي وغيرها من الحيوانات التي يجرفها السيل، موجودة أساسا في أراضينا.. فقال التاجر، يقولون إن الأفاعي التي يحملها السيل خطرة وسامة جدا..

كان سعيد طوال الوقت يلوذ بصمته، ومهما حاول التاجر جره للحديث، لم يتزحزح عن موقفه، حتى أدركنا الغروب، ودخلنا بغداد قبل هبوط الظلام، نزل التاجر عند مكتب الشركة، ولم ينس سعيد أن يسجل اسمه ليضمن دوره في العودة، بتنا ليلتنا على سطح فندق الأمين المقابل لمكتب الشركة، اضطجع كل منا على قريولة من حديد مطلية بلون أبيض، كالتي تستخدم في المستشفيات الحكومية، لم أستطع النوم حتى ساعة متأخرة من الليل، بسبب الحر، وأضواء النيون، الموزعة على أرجاء السطح، وصخب الشارع تحتنا.

في صبيحة اليوم التالي، استيقظنا على صوت انفجارات، وأعمدة دخان تتصاعد من جهة الغرب، وحينما هبطنا للشارع لنستطلع الأمر، ألفينا رصيفه محتلا من الجنود، كانوا يرتدون خوذا حربية، وبكامل أسلحتهم وذخيرتهم، كأنهم في ساحة حرب، لقد وقع انقلاب، حدث شيء ما كان بوسع المندائي أن يتنبأ به، ولكنه كان مقدمة منطقية ومعقولة لنبوءته القادمة.. قامت الثورة، وأشتعل يومها الأول،

مستعراً بنيران تموز، كان المندائي قد تنبأ بطرقاعته الصاعقة، تحدث على أرض مدينة العمارة وليس في بغداد، لا أحد يستطيع أن يؤكد متى ولدت تلك النبوءة، أفي العهد العثماني أم قبله، أم عند احتلال الإنكليز لبغداد، هل تخصبت نطفتها برحم الزمن أو خارجه.. ولكن بالتأكيد، كانت قبل أن يوضع حجرواحد، في أساس دار السيد، التي تنهار وتهوى أمام أعيننا الآن، وهي لا تزال فتيه، لم تعمر سوى ثلاث عقود أو أكثر قليلا، وذهبت أماني مدير المدرسة، في مهب الرياح..

تخيل أنك تزور مدينة لأول مرة، وبالكاد تعرف الشارع الذي يوجد فيه فندقك، وفي أول صباح لك، يحدث انقلاب، يقلب المدينة رأسا على عقب، هكذا كان حظي مع بغداد، كحظ التاجر العماري، الذي اشترى سيارة جديدة، فوافته المنية، وحرمته من تدشينها، فسافرت فيها في أول رحلة لي الى بغداد..

تخيل أنك غريب في مدينة كبيرة، هي عاصمة البلاد، تجرفك الزحوف الهائجة، حيث لا تدري الى أين؟! وترى بأم عينك شيئا لم تر مثله عين من قبل، ولن يتكرر أبدا..

لن أنسى ابدا ذلك اليوم الذي غاص في تلافيف العقل الباطن، كان نقطة تحول سياسي هام؛ ضمن نقاط تحول آخرى، تبدأ دائما بهذا السؤال الحائر: لماذا...؟

أذكر أن سعيد كان قلقا على جندي في الحرس الملكي، زعم إنه ابن عمه، فذهب بالسيارة لجسر الخر ليطمئن عليه، حيث كان يرتفع هناك دخان كثيف من قصر الرحاب الملكي، وكان هذا الذي ادعى انه قريبه، مجرد رجل من أفراد عشيرته، افترقنا واتفقنا ان نلتقي في الفندق عند الظهيرة، كان الاضطراب يعم شوارع المدينة.

لم تأفل شمس ذاك اليوم في افق ذاكرتي، ما زالت جمرتها تلسع حدقتي عيني حتى هذه اللحظة التي أسافر فيها الآن الى بغداد مع والدتي المريضة، على الرغم من مرور عقدين وسنتين..

كانت شمس ذاك النهار المكفهر ترسل شواظا من نار، وسياطا من لهب، تجلد الناس، وتصهر إسفلت الشارع، وجدت نفسي تائها، رأيت أجنحة الخوف الكئيب الأسود تنتشرعلى طول البلاد وعرضها.

أوراق المذكرة تنقلب، كأن ريح خفية مسـتها برفق .. نوح.. كم مرة في عمرك، سـترى جثة بلا رأس، لرجل ذو نسب رفيع، ومقام عال، كانت تجري في عروقه دماء ملكية هاشمية، مسحول بحبل، في يوم مقدود من غضب، بين أناس مسخوا وحوشا، سيطالهم الموت يوما، وبصورة أبشع. كانت الجموع الغاضبة تحيط بجثة عارية، انتهكت حرمتها..

كان يسـاورني شعور مأساوي قوي، في تلك اللحظة النادرة من زمن الثورة، تخيلت الجموع الهائجة سـائرة بموكب طقوسـي، صـار التماهي بين المقدس والمدنس، شـيئا مجسـدا.. كانت الأفواه تنفث كلمات طائشـة، وانفاسـا حقودة مسمومة، في هواء راكد ملوث وفاسد..

حدث كل ذلك في شـارع، كنت أجهل إسـمه، ولكني عرفته فيما بعد.. (شـارع الرشيد) العتيد، الذي حلمت به قبل ليلة من سفري الى بغداد..

كانت الدجلة تجري متهادية، غير بعيد، وغير مكترثة بما يحدث على أمتار قليلة، النار والماء يسيران جنبا الى جنب، ولكنهما لا يتماسان، لن يجرأ الماء على إطفاء النار، ولا النار قادرة على أن تحيل روح الماء الى شـعاع وزفرات حارة، تصعد لعنان السماء، متهيبة من تموز النازل الى العالم السفلي..

مرت سـنوات عديدة، لم تمح من ذاكرتي ذاك اليوم العظيم، رغم كل متناقضـاته الغريبة، كان رهيبا رغم جلاله، وثوريا رغم فوضويته، كان رائعا رغم كل شيء، من شوه ذاك اليوم وملأ نهاره قيحا وصديدا، ومسخه وحشا دمويا؟ ستكشفه لنا حتما الأيام القادمة، وتجيب على كل تلك التساؤلات المحيرة..

أنتج ذاك اليوم، قبل عقدين من الزمن، دورات متعاقبة من الجنون والطيش والعنف.. كتبت عنه أيضا في دفتر يومياتي:

عرفتُ بغداد في نوبة جنونها، كانت عيون غوغائها محتقنة بالشر لا تشبه عيون أهل مدينتي، فقدت بريق الحب، واتقدت بجمرة الغضـب والكراهية وبغريزة الافتراس..

أتذكر عودتنا منها وقت المغيب، تبدت السـيارة للرائي حشـرة تكافح بعناد، لتحرر نفسـها من نسيج العنكبوت، ثم ترمى وسـط التيه، كنا وحدنا، سـعيد وأنا،

تحت سماء بكماء، نتحرك على طريق، تبدى ما حولنا فضاءً ساكنا ميتا لا حراك فيه..

في اواخر الليل، طرقنا أبواب المدينة الهاجعة على أكف المياه، ظلت عيناي مفتوحتان، كعيني بومة تجثم على غصن شجرة تنتظر الفجر، صوبت نظرات تائهة فوق المياه الهائمة في الدجلة، توارينا في السيارة، المركونة بجانب الرصيف، عند كورنيش النهر، أمام السوق الكبير، نتطلع للنهركشبحين، يخشيان ضوء الشمس الذي يوشك على الشروق سرنا على الأقدام على طول الكورنيش، حتى وصلنا دائرة البرق والبريد، فلم نجد اي تغيير يذكر، عدا إنزال الشعار الملكي من مكانه، الذي كان يتوج واجهة البناية.

خرجت الضحى، أتفقد شوارع مدينتي، كانت كما هي، كأن رياح الثورة العاتية التي عصفت ببغداد، لم تصلها بعد، أو أنها مرت عليها بسلام، فما عدا الشعار الملكي، لم يتغير شيء، أدركت أن ردود الفعل الانعكاسية، قد تكون بطيئة، في الأطراف البعيدة، التي لا تزال مسترخية في سبات المتعبين المنهكين، أو في عزوف اللامبالين اليائسين..

أما الآن فمسألة النبوءة عن حرب وشيكة الاندلاع، الأمر مختلف، فالناس يريدون أن يفهموا ويدركوا ويعوا ما يحدث لهم، وبشيء من التروي والحذر، لكن لا تزال الدوائر البعيدة عن المركز، لا تريد ان تتورط في المشاكل التي لا حلول لها، والتي يصعب مواجهتها..

وفي اليوم الثاني من زمن الثورة، كنت عند قصر فتنة، الذي كان قبلة المتنزهين، كانت ظلال الأشجار تنعكس على رصيف الشارع، رأيت فلاحا يتطاير الشرر من عينيه، يستظل بسور القصر، ويتربص برجل قادم، وعندما اقترب الرجل، أنقض عليه فجأة، ودوت طلقتان في الهواء، خر على إثرها صريعا، اختلج جسده المنتفض برهة، ثم خمدت أنفاسه الاخيرة، كان رأسه قد ارتطم بحافة الرصيف وإحدى ساقيه ممدودة في الشارع..

كانت هذه الحادثة المروعة، الثانية خلال يومين، رأيت فيهما الموت يبرز بشكل مريع، تساءلت في تلك اللحظة العاثرة، من زمن الثورة، ما الذي يخبئه القدر من

مشاهد رعب، ستكون شائعة ومألوفة، عدت للبيت مختنقا بهواء الثورة، الذي فسد للتو، وتلوث بسموم الكراهية والحقد والانتقام، تمنيته هواء نظيفا، يعبق بنسائم الحرية.. كتبت في دفتري:

كانت الثورة تقرأ بيانها الأول، وكان الناس يحتلون الشوارع، ولم يكن هناك منعا للتجوال، بالعكس فتحت المطاعم ابوابها للناس مجانا، كانوا يرقصون يسيطروا على خوفهم ويمتحنوا قدرتهم على إعادة المارد، الذي أُطلق من قمقمه، يرقصون لأنهم توهموا انهم انتصروا، ومن حقهم ان يفرحوا، يرقصون لكي يعيدوا التوازن الى المشهد الذي أختل فجأة، وجدوا انفسهم يتخبطون في قلبه، يشاركون في صنع الحدث؛ ولكن بصورة مشوهة وعقيمة، ولا يدركون ما ستؤول اليه الأمور عما قريب..

وجدت هذا النص مسطوراً في دفتر مذكراتي، وينتهي بهذه الفقرة:

عدت لمدينتي، بعد زيارتي الأولى لبغداد، كأني عائد من مقبرة، أصفع تراب الزقاق بقدمين متعثرتين، لم تخفا لحلبة رقص وحشي ...

لم أستطع أن أتنفس الهواء المغبر الكثيف، المنعقد على الرؤوس الخاوية، ذرات ذلك الغبار الخانق، ستبقى عالقة في ذاكرتي لسنين طوال، تذكرني بجثة تسحل بشارع الرشيد، كلما سمعت بيانا يذاع، ناعيا موتا جديداً.

حضرت محاكمة الفلاح القاتل، كانت المرة الأولى التي أدخل فيها قاعة محكمة، كان سعيد معي، رأينا الفلاح الخائب، واقفا خلف القضبان، مرتديا دشداشة متسخة، ملتصقة بجسده الغارق في العرق.

كانت نظراته تائهة، تدل على الضياع والخذلان واليأس والفشل، لقد أدرك أنه قتل رجلا بريئا بالخطأ.

قرأ سعيد اللوحة المعلقة فوق رأس القاضي، العدل اساس الحكم، ضحك سعيد ضحكة مجلجلة، لفتت انتباه الجميع، فأخرجنا الحاجب دفعا من قاعة المحكمة.. كان من حسن حظنا ان القاضي لم يأمر بتوقيفنا بتهمة إساءة الأدب في المحكمة.

وكان سبب ضحكته، هو يقينه ان الفلاح الخائب، سوف لن يحظى بمحاكمة عادلة، لأن مفوض الشرطة الذي قدم الأوراق للمحكمة، سيطالب بإنزال أشد العقوبات، فهو صديق مقرب للإقطاعي الذي كان الفلاح يروم قتله.

كان سعيد محقا، فقد ذهبت معه مرة، لحفلة رقص غجري في قصر الإقطاعي مجبل، تذكرت تلك اللية الصيفية المقمرة، التي كانت قبل الثورة بسنة تقريبا، في حديقة القصر المطلة على النهر، انعكست أضواء النيون الملونة، وتمازجت على صفحة النهر المعتمة..

كان المفوض، مع ضيوف الإقطاعي، وكانت الغجريات يرقصن الهجع، والطبلة لها إيقاعات سحرية، بددت سكون الليل، فصعدت نشوة الخمرة في رأس الإقطاعي الخاوي، وضيوفه الأغبياء، أمال راسه لمفوض الشرطة الجالس على يمينه، كان سعيد يقف وراءهما، فسمعه يقول؛ إنه سيقدم مشهداً لضيوفه لن ينسوه طوال حياتهم ، سيأمر عبده ريحان، بالهجوم على هذه، وأشار اليها بخيزرانته، سيضاجعها أمامكم، وبعد أن يفرغ منها، سيرميهما عبيدي في النهر، كما لو كانا كلب وكلبة..أسرع سعيد وأخبر أحد أعضاء الفرقة، فقال الغجري لسعيد، لا تخف.. احتطنا لهذه المفاجأة، وسترى شيئاً يعجبك، وعندما أشار مجبل بخيزرانه لإحداهن، هجم العبد، حاول أن يحتضن الغجرية ويطرحها ارضا، لكنها دفعته بقوة، واستلت خنجرا من حزامها تحت الثياب، ارتعب العبد، وتراجع، ينتظر إشارة من مجبل، توقف العزف وخرس صوت الطبلة، قام مجبل وجلد العبد بخيزرانه، وهو يضحك بصخب، فرالعبد من بين يديه هارباً.

عندما أنقضى الحفل وانسحب الضيوف، افتقدت سعيد فقمت واقتربت من جرف النهر، رأيته هناك يبكي في حلكة الليل، لم أشأ إحراجه، أصغيت لمويجات النهر، يتدافعن ببطء، ويتكسرن على رمل الشاطئ، ولأصوات الجنادب والكلاب التي تجرح صمت الليل الأبكم، الذي ابتلع قبل قليل في بطنه الأسود كل تلك الأصوات الضاجة، إلا صوتا واحدا كان يصطخب في رأسي، سائلا بإلحاح عن جواب مقنع وحقيقي وقاطع لكلمة العدالة.. ما العدالة، هل العدالة أن يخطأ فلاح موتور، فيدفع ثمن خطأه رجلا آخر برئ..

تلك أيام أدبرت وهذه أيام أقبلت، وكل منهما تلعن الأخرى بعنف، فماذا تغير..

منذ ذلك الوقت، وجد سـعيد عزاءه في الخمرة، وضـالته في الشـيوعية.. تعلم القراءة والكتابة وتثقف ودرس الماركسـية، كما وجد آخرون ضـالتهم في أشـياء أخرى، سمعته يوما يترنم بالنشيد الأممي لأول مرة (في خطى أكتوبر العظيم سائر موكب الشعوب) ولكن خطى الناس تقاطعت في طرق متشعبة.

هذا ما كنت أفكر به في تلك اللحظة الزمنية، التي اسافر فيها الآن الى بغداد، التي تتوجس من حرب وشيكة..

لطاما كانت المسـافة بين مدينتي الجنوبية وبغداد، والتي قطعتها حتى هذه اللحظة، مرات عدة لا تحصى، تذكرني دائماً بدرب آلام المسيح، يؤرقني الطريق كثيراً، كلما سلكته ذاهبا أو آيبا، كنت أراه كل مرة ينزف دما..

وها أنا اليوم، أسافر عليه ومعي والدتي المريضة، وقبيل منتصف النهار كنا عند جسر ديالى، توقفنا عند آخرنقطة سيطرة، فأشار لنا العسكري بيده بالتحرك؛ بعد أن ألقى نظرة سـريعة على والدتي، ها نحن على مشـارف العاصـمة، قلب البلاد النابض بالحياة.

في صـباح اليوم التالي، تركت سـيارتي تحت العمارة، التي إسـتأجرنا فيها شـقة صغيرة مفروشة، وذهبنا بسيارة أجرة، لعيادة الطبيب في الشارع المشجر، وصلنا الباب الشـرقي، قلب العاصـمة النابض، وعلى مقربة منه يمتد شـارع أبي نؤاس، على شاطئ الدجلة الأيسر، تناثرت المقاهي وحانات الشرب، هناك يرفع الشـاعر الماجن كأسـه جذلا، يتأمل بانتشـاء مغرق بعبثية الحياة، وشـهريار على مقربة، يترقب نهاية قريبة لثرثرة شـهرزاد التي لا تنتهي، وفي شـارع السـعدون تزدحم عيادات الأطباء، تشوه يافطاتها واجهات العمارات، تغطيها كنسيج عنكبوتي بشع، مخيف ومحزن في آن، اعتراف فاضح، وإعلان صريح بانتصار المرض، تتوزع بعض العيادات في الشـارع المشـجر، أحد فروعه الضـيقة، قصـدت عمارة جديدة يمتلكها الطبيب المختص بعلاج الأورام السـرطانية، صـعدنا السـلالم لعيادته في الطابق الثالث كان المصعد الكهربائي عاطلا، وكانت والدتي تتكئ على كتفي، وأنا أحاول ما اسـتطعت أن أخفف عنها مشـقة الصـعود، أجلسـتها في غرفة الانتظار

المكتظة بالمرضـــى، وتقدمت للسـكرتير أطلعته عن حجزنا المسـبق، دخلنا على الطبيب، وبعد الفحص الأولي وطرح الأسـئلة انتهى الطبيب وشـخص المرض، لكنه لم يصـارحها بمرضـها، قلت لأمي أن تذهب الى غرفة الانتظار، وبعد أن خرجت، سـألته عن وضـعها الصـحي، فقال لي أنها تحتاج لعملية جراحية عاجلة لاستئصـال الورم من ثديها الأيسر، ولما سـألته لماذا لا تزيل الثدي كله، شرح لي أن إهتمامه بحياة مريضـه يأتي في المقام الأول، وأن لا يعرضـه للخطر، وأن عملية كهذه لإزالة الثدي، تحت التخدير العام تحتاج لوقت أطول، وينتج عنها فقدان كمية أكبر من الدم، وقد لا تحتمل صـحتها كل ذلك، وأعطاني رسـالة للمسـتشـفى الأهلي لعمل الفحوصـات اللازمة، ولحجز موعد لإجراء العملية، ولجلسات إشعاعيه في مستشفى الطب الذري لكي يضمحل الورم ويصبح بحجم أصغر.

تطلعت عند عودتنا للشـوارع الخالية تقريبا، تذكرت سـاحة التحرير مزدحمة ليلة الخميس، في مثل هذا الوقت، عندما كنت طالبا جامعيا، كأن الناس هنا في بغداد يتوجسون أيضا من شيء غير متوقع سيحدث قريبا، يقلب حياتهم رأسا على عقب، كل المؤشرات أخذت تؤكد أن حربا وشيكة الحدوث، الحديث عن الحرب يتصدر نشـرات الأخبار المسـائية، إنها مسـألة وقت والوقت يدخل متواريا في كهف المعجزات..

بدت لي الشـوارع لسـبب ما، على غير عادتها ليلة الخميس، تكاد تكون خالية، عرف سـائق التكسـي أننا من أهالي المحافظات؛ الذين عادة ما يقصـدون أطباء الاختصـاص والجراحين المشـهورين، وتمنى لأمي الشـفاء، ثم بدأ يتذمر من الأطباء، ونعتهم بالجشـعين والمتكبرين، وبأنهم يفتقدون للروح الإنسـانية، حاولت أن أخفف من غلوائه، قلت ما معناه؛ ليسـوا هكذا كلهم، وهم كغيرهم من البشـر مختلفون، وأجدادنا كانوا يلقبون الطبيب بالحكيم، وذاك زمان ولى وهذا زمان مختلف، كانت الحكمة ضالة المؤمن، اما اليوم فالنقود هي ضالة الناس أينما كانوا.

أشعل السـائق سيجارة ليطفئ بها زفرة حارقة، وقدم لي واحدة فاعتذرت، لزمت الصـمت خشية من سواق الأجرة، فهم مشبوهون ومتهمون بأنهم عيون السلطة، تحدث السائق عن الحرب، وتساءل هل أصبحت وشيكة حقا، اكتفيت بكلمتين، الله

أعلم، ولكن يبدو ان جوابي لم يعجبه، فاعترض، بأن الله أعلم بما حدث وما سيحدث، ولكن نحن من حقنا ايضا أن نعلم، لان الموضوع يخصنا نحن ، فاكتفيت هذه المرة بكلمة واحدة، صحيح.

تحدث السائق عن الأخبار التي تذيعها المحطات العالمية، مثل البيبي سي، مونتي كارلو، صوت أمريكا، وحتى إذاعة إسرائيل، وأن كلها تتحدث عن الحرب وكأنها شيء حتمي لا مفر منه، ونحن نقول الله أعلم، فتدخلت أمي، ابني اذا اشتعلت النار أدعو ربك، فتنطفئ بنوره.. هذه المرة شعر السائق بالهزيمة فقال على مضض، إن شاء الله، وأشعل سيجارة آخرى، من عقب سيجارته، وأستمر يدخن ساكتاً، وهو يستمع لنشرة أخبار مونتي كارلو المسائية.. حتى وصلنا الكاظمية، أنزلنا ومضى في سبيله، محاولا الإفلات من مصيره، كنا صامتين طوال الوقت، لم تسألن أمي عن شيء، وحينما دخلنا الشقة ذهبت لتنام، تركت إخبارها عن العملية الجراحية لوقت لاحق، بعد الانتهاء من جميع الفحوصات الطبية المطلوبة، مع أني متأكد أن ذلك لن يغير شيئاً في معنويتها التي لن تتأثر بشيء تافه مثل إجراء عملية جراحية.

الفصل الرابع

عندما اكتملت جميع الفحوصات المخبرية، واطلع عليها الطبيب الجراح، أُدخلت المستشفى وأُجريت لها عملية استئصال الورم السرطاني، استغرقت ست ساعات، من الساعة العاشرة صباحا وحتى الرابعة عصراً، عندما رأيتها بعد العملية، كانت أشبه بالميته، أستأصل الطبيب الجراح الورم الخبيث من الثدي الأيمن، ولم تفق كلياً من تأثير المخدر حتى حلول الظلام، كانت شفتاها بلون التراب، عندما فتحت عينيها ثم أغلقتهما، الوجه الذي كان أبيضاً ومشوباً بحمرة وردية، إمتقع لونه بصفرة مخيفة، كأنها كانت تلبس قناع الموت، وبعد برهة فتحت عينيها مرة آخرى، نظرت بدهشة لسقف الغرفة، فقلنا لها: الحمد لله على سلامتك،

قبلتها في جبينها، ثم قبلتها عمتي وبعدها بدور، تحركت شفتاها ولكن بلا صوت، لم نسمع شيء سوى تمتمة خافتة.

في اليوم التالي جاءت عمتي فطم، بأكياس مليئة بالفاكهة، مازحتها، أهذا كله لنا، أم انت ذاهبة لمتنزه الزوراء، ضحكنا وابتسمت أمي فأشرق وجهها مشوبا بغلالة حزن، اختفت تلك البسمة الحلوة، التي كانت تنير وجهها.

لم تأكل شيئاً من الطعام، كانت لا تزال على المغذي المتصل بالوريد، لازمتها طوال الوقت، لم أفارقها إلا عند الذهاب للنوم. وفي يوم الترخيص بالخروج، دفعت تكاليف العملية وليالي المبيت في المستشفى الخاص، عدنا للشقة في الزقاق المنزوي بقلب الكاظمية، وكأن الزمن قد توقف، وتقاطع الحاضر مع الماضي، لم ألتفت للمستقبل، فهو لا يزال في كنف الغيب، الماضي لاح للعين جزيرة خضراء وسط تيه رملي يغطي الأفق..

زرنا الطبيب أربع مرات خلال أسبوعين، أكد لنا نجاح العملية، ونصحني بالتركيز على شيئين هامين في فترة النقاهة وما بعدها؛ هما التغذية الصحية الجيدة والجو الهادئ المريح، والابتعاد عن كل ما ينغص عليها الراحة الجسدية، والهدوء النفسي..

خلال الأيام التي عشناها في الكاظمية، اكتشفت أن ما يميز هذا المكان.. عبق التاريخ الذي تشهد له الأزقة الضيقة، والأسواق القديمة، تمتزج نسائم النهرمعطرة بقداح البساتين، مع سطوع شمس الظهيرة، على القبتين والمنائر الأربعة الذهبية، يتماهى ثراء الحياة الروحية مع صخب الأصوات التي تغور عميقا، وتختلط مع صوت الآذان المرفوع دائما، وفي كلام الناس ومفرداتهم ذات الدلالات المعنوية العميقة، المعبرة عن جيشان المشاعر الحميمة التي تواشج النفوس بخيوط قوية، ولكنها غير مرئية، تطفح للسطح دوماً.

وفي أخطر الأوقات التي تمر بها البلاد، ولا يعلم العراقيون كم ستطول محنتهم.. كما لا أدري كم سيطول مقامنا، تعاملنا بمودة مع أصحاب الدكاكين القديمة، وباعة البضائع المعروضة على العربات، فكل ما كنا نشاهده هنا مختلف، لا يشبه ما

اعتدنا عليه في مدينتنا، فهذه المدينة تتباهى بإرثها الديني، الذي ترسب في الوجدان قبل البنيان، فصار الوسيلة لتحريك القلوب قبل العقول، والبصائر قبل الأبصار..

جاء صديقي يوسف في آخر جمعة، ليطمئن على أمي، قبل عودتنا، وكان قد زارها من قبل، عندما كانت ترقد في المستشفى، وقبل يدها، وحافظ على ذلك، في كل زيارة إحتراما لكبر سنها، ولشرف نسبها العلوي، فكان يخاطبها بهذه العبارة التبجيلية، سيدتي، تشرفنا بك.

رافقنا عند المساء لزيارة مرقد الأمام موسى الكاظم.

رأينا ازدحام الطرق بالزائرين القادمين من مختلف المدن، أمسكت يد أمي وانحشرنا معهم، اقتربت من الباب الخارجي العالي، مسحت يدها ببقايا حناء متيبسة وقبلتها، ثم نزلنا للصحن الواسع المحيط بالأروقة حول الضريح، صعدنا رواقا يؤدي له، نزعنا أحذيتنا وأودعناها عند الكشوان، ثم وقفنا لقراءة آداب الاستئذان بالدخول.

كان الازدحام شديداً عند الضريح، يتدفق الناس من أبواب عالية مكسوة بالذهب، ويتحلقون حول المرقد، أجلست أمي تحت الشباك المفضض، فألصقت رأسها به، كانت الأضواء المنعكسة من المرايا الصغيرة التي تزين الجدران والسقف، تبدو كأنها أقمار صغيرة، وضوء أخضر كان ينعكس على وجه أمي، يأتي من وراء زجاج سميك داخل الضريح، انخرطت أمي تبكي، وأنا واقف عند رأسها، أما صديقي يوسف فأتم زيارته وتنحى جانباً يصلي، لم أسمع شيئا من بثها بسبب الضجيج المرتفع، ولكن عندما كنت أدني رأسي منها سمعتها تقول، جئتك.. وضاعت بقية الكلمات لارتفاع عويل النساء، وبكاء الرجال، شعرت ان صرخة محبوسة في داخلي تكاد تنفجر، أسمع بكاءً، وأرى دموعاً تنهمر، جاء الناس ليفرغوا خزين أحزانهم ، ويستسلمون لمصير مجهول، جاؤا لطلب المساعدة والعون، على تصريف أمور حياتهم، وحل مشاكلهم العصية، لأنهم لم يجدوا ملجأ آخرا غير هذا المكان.. في تلك اللحظة صرخ أحدهم بصوت صاعق، كفى..

كانت صرخة إحتجاج، أو ربما حدث في تلك اللحظة، إتصالا روحيا بيني وبينه، كما في توارد الأفكار، فقلت لنفسي أيا كان الصارخ، فأني أستجيب

لصــــرخته، كفى.. أن أمة تبكي حري بها أن تعتزل الحياة، كانت صـــرخته وهو يطلقها في أرجاء المكان؛ أشـبه بسـكين في الظلام، جرحت صـمت الباكين، اندفع على إثرها رجال الأمن، اقتحموا الضريح، وأحاطوا بالرجل، ولم يعد أحد ير شيئاً من المشهد..

أيقظت صـرخته الزائرين، كأنها انتشـلتهم من نوم عميق، فسـاد سـكون مريب، واندفع الناس على أثرها هاربين، مذهولين الى الخارج، نحو الأروقة والصـــحن الكبير وفي دقائق لم يبق أحد منهم، بعضـــهم انتظر في الخارج، ولكن الأغلبية غادروا المكان وتبخروا بسرعة في الأزقة القريبة.

حاولت مســـاعدة والدتي على النهوض، وحمايتها من أن تداس تحت أرجل المتدافعين، تشـبثت أصـابع يدي اليسـرى بقوة بكرات الشـباك الفضـية، التي كانت قبل قليل مكانا محببا للثم والتقبيل، رفعتها من تحت إبطها بيدي الأخرى، وخرجنا حافيين، تاركين أحذيتنا لدى الكشوان..

حكى لنا يوســـف في اليوم التالي، ما تناقله الناس عن الحادثة، قالوا إنها تمثيلية فبركتها المخابرات، لمعرفة ردود فعل الناس، وقالوا كذلك أنه مجنون، قلت ساخراً، الحكومات دائما تحول الأبطال الى مجانين، وهكذا تقتلهم مرتين..

خيم علينا الوجوم.. وجلسـنا صـامتين، حولت أمي الحديث الى موضـوع آخر، ودعنا صديقي يوسف وتمنى لنا ليلة طيبة، وعودة آمنة لمدينتنا.

تحسـنت صـحة والدتي، شـعرت بإختفاء الأوجاع التي كانت تنهش صـدرها، وانفتحت شـهيتها للأكل، فعزت ذلك التحسـن الى بركة زيارتها للإمام ، وتصـدقت على الفقراء، اشترت قبل سفرنا، ملابس لطفلين، كانت تراهما يلوذان تحت عباءة إمراة، تقعد معهم على جانب من الباب الخارجي للمرقد، المعروف بباب المراد.

عدنا لمدينتنا، قبل يومين من عيد النوروز، ينتظر الناس ماذا سـتدور عليه سـنتهم الجديدة، ولسـوء الحظ دارت تلك السـنة على خنزير، فتشــاءَموا، ولكن كعادتهم، ذهبوا لزيارة احد الأولياء الذي يختفي قبره بين أشجار النخيل الكثيفة، ولا يعرف أحد من هو، ومن أين أتى؟ ولكن مرقده صــــار مزارا يحظى بالاحترام والتبجيل، يعتقد البعض انه حامي مدينتهم، ولما كانت منذ نشـأتها لم تتعرض الى فيضـان أو

زلازل مدمر، باستثناء زيادة ملحوظة في مواسم الزود التي تتولى الأهوار ابتلاعها، لذا قامت بعض النسوة بزيارته، كن يضربن الدفوف بإيقاع حزين، وهن يخترقن البساتين، حتى وصلن للمكان، ودخلن الضريح، وأحرقن البخور وأوقدن الشموع عند راسه، خضبن اكفهن بالحناء المعجونة بالدموع، وطبعنها على جدران المزار وأبوابه وشبابيكه، وطلبن منه شارة واضحة على منع الحرب، وانصرفن وقت العصر كما أتين، بعد أن أوفين بنذورهن القديمة، وعاهدنه بنذور جديده إذا تحقق طلبهن..

وعند غروب شمس اليوم الجديد، الأول من سنة الخنزير، تجمعن على كورنيش الدجلة عند نهاية شارع بغداد، أوقدن الشموع على كربات السعف، مزينة بأغصان الياس الأخضر العبق الرائحة، وأرسلنها على مويجات النهر، مودعات يوم جديد دارت سنته الجديدة على خنزير بري هائج، كالذي تعج به الجزر الكثيفة بالقصب والبردي، مستقبلات يوم آخر لا يعلم به إلا الله وحده؛ فهو علام الغيوب..

في يوم الأحد قامت مجموعة منهن بكنس وغسل باحة كنيسة ام الأحزان، بمحلة التوراة بالماء، وأوقدن الشموع في المذبح تحت تمثال السيدة العذراء.. وعند العودة تفرقن لبيوتهن، ولكن اثنتين منهن التقتا بالمجنون عاشور، كنت هناك أقف معه، أريد منه أن يأتي معي، لأعطيه بعض الملابس المستعملة، وكانت أمي بين الحين والآخر تتصدق عليه بشيء من النقود، فقلت له،

- عاشور تعال معي أريد اسمع منك دعاءً لأمي، قل الله يشافيك.

اقتربت منا إحداهن، وضعت يدها على كتفه.

- عاشور، سأخيط لك دشداشة جديدة.

انحنى، رفع ذيل دشداشته المتصلبة بالوسخ والعرق الى صدره، فبرز قضيبه منتصبا، اعتصره بين أصابعه، فصاحت المرأة مغطية وجهها بعباءتها.

- يبوي عليك عزه العزاك عاشور.

وقالت الأخرى وهي تضحك:

- اصخام ايصخمك عاشور.

جاء معي، ولما رأى أمي جالسة على الكنبة، جلس تحت قدميها وقبلهما، ضحكت امي، وضعت يدها على رأسه الحليق المكور الذي كان بحجم جوزة الهند، سألته.

- شلونك عاشور.
- ماما أنا زين.
- أتخاف من التسفير. اجاب على سؤالها بسؤال
- أكو هناك مي، هوا، أكل. ضحكت
- طبعا كل شئ موجود.
- ماكو مشكلة خلي يسفروني.

اختصر عاشور وجوده بأشياء ثلاثة: الماء والهواء والطعام..

ظل ساكتا ينظر اليها ناسيا الدعاء، قدمت له بضع تمرات وكأس لبن، وهما طعامه المفضل، ولكنه في المآتم التي يحضرها دائما، يأتي وبيده قدر متوسط الحجم، يملؤونه له بالأرز واللحم والمرق، لا أحد يعرف لمن يذهب به.

في تلك الليلة رأيت في المنام حلما أرعبني.. استيقظت، أتثاقل بالنهوض من فراشي، جالت عيناي بسقف الحجرة، كأني أبحث عن تفسير، حاولت أن أستعيد بعض تفاصيله الهامة، لكن من الصعب إستعادة الحلم عندما يفقد تسلسله المنطقي، تتداخل الصور، لا يؤلف بينها نسق معقول، كأنها مشاهد مقتطعة من لقطات سينمائية مختلفة ومتباينة، ومن عدة أشرطة تداخلت مع بعضها، ألقيت نظرة في المرآة وتمنيت أن تعيد لي رسم ما شاهدته في منامي، كانت عيناي تحدقان في عمق المرآة كمن يبحث عن شيء مفقود أو فوجئ بشيء غير متوقع..

ذهبت لحجرة أمي، لم تكن في سريرها، خرجت للطارمة فوجدتها هناك، ألقيت عليها تحية الصباح، وحكيت لها ما استطعت أن أتذكره من فتات الحلم..

أناس يتراكضون، تطاردهم نار هوجاء ذات شعب ثلاث تحاصرهم في كل الاتجاهات، وفجأة ترتفع مياه أنهار المدينة الثلاث، الدجلة، الكحلاء، المشرح، وتلتحم كأنها سد مائي مانع، يقف بوجه النار، ويجبرها على التراجع. سألتني:

- هل إنطفأت النار؟

- لا أدري، لا أتذكر بقية الحلم.

- خير أن شاء الله، رؤية الماء في الحلم فأل حسن.

صـــدقتها، تذكرت أنها اعتادت كل مرة، عند ســـفري، حينما كنت طالبا في الجامعة كانت تودعني بطاسة ماء ترشها خلفي..

نظرت لسدرة البيت ناشرة أفياءها وظلالها الوارفة في الأركان، اكتست أوراقا خضراء صغيرة وجديدة،استعدادا لموسم التزهير الربيعي، طارت فاختته من أعلى أغصـانها، وعندما رفعت أمي إبريق الشـاي، هبت سـحابة أجنحة عصـافير حنية اللون، صـــخبت أصـــواتها المزقزقة مرحة في الهواء، نظرت عبر ســـاحة البيت المكشوفة، على سماء صباحية ذات زرقة صافية كالبلور، كانت السدرة الشيء الحقيقي الوحيد في هذه اللحظة، ذكرتني بالخريف عند بداية الســـنة الدراســـية في أيلول، حين تنوء أغصـانها مثقلة بالثمر الأخضـر، يمتلئ كل غصـن فيها بعشرات الكرات الخضـراء الصـغيرة، التي تتحول مع قدوم الشـتاء، ثمار شـهية صـفراء، كانت أمي تقول عندما نتلذذ بمذاقها المزيج بين الحلو والحامض، انه أول طعام أكله ابونا آدم عندما هبط مطرودا من الجنة، هي موئل الطير وبين أغصـانها يهدل الحمام، وهي السدر المخضود لأهل الجنة، والمحرم قطعها لقدسيتها ..

في نيســـان، تفتقت أغماد الجمبد، فنشـــر الجوري ضـــوعه الفواح في بســـتاتين عواشه، الجدة، وحدائق السبع قصور، في هذه الأيام الربيعية الجميلة، ينبعث تموز إله الخصب من عالمه السفلي، يصعد للسماء؛ لتبدأ دورة حياة جديدة في مسارها الأبدي، تفاجأ الناس بحملة تفتيش واسـعة، قادها الجهاز البوليســي في المحافظة، بالتنسيق مع المنظمة الحزبية، والجيش الشعبي، كانوا يطوفون بالشوارع والأزقة، بعد ان تخلو ويخلد الناس للنوم، معهم قوائم معدة بعناوين الأســـرالمقرر تهجيرها الى إيران، يوقظونهم كي يبرزوا وثائقهم العراقية للتدقيق، يحشـــرون الذين من أصـــول إيرانية بعيدة، بسـيارات البك أب مع أمتعتهم القليلة، ويزجونهم في مركز الحجز والإبعاد، يعزلون النســـاء والأطفال عن الرجال والشـــبان، في قاعتين متلاصـــقتين، حتى اكتظتا بأعداد كبيره من الأســـر الميســـانية، المنتظرة دورها

للأبعاد، على شـــكل مجموعات متتالية، عبر منافذ حدودية مشـــتركة بين البلدين الجارين.

وعندما أصـــدر ســـليم الخماش أوامره بأبعاد هؤلاء العراقيين الميســـانيين، كان يشرف بنفسه على ترحيلهم القسري والتدقيق بأسمائهم المدونة في قوائم الأبعاد..

كان يقول لهم متشفيا، وهم يصعدون الحافلات التي تنتظرهم أمام مخفر الدبيسات.

- عودوا من حيث أتيتم..

كان أحدهم، رجل في الخمســين من العمر، تســاءل بحزن وأســى وألم مكبوت وصرخة مخنوقة في صدره:

- الى اين.

فرد عليه سليم الخماش بعنف.

- إلى جهنم وبئس المصير.

عندما ســمعت من أحد الشــهود، ما دار بين ســليم الخماش والشــاعر الميســاني، تخيلته يخاطب نفسه الملتاعة بهذه العبارات: هل لي وطن آخر، غير هذا الذي نبت في تربته، ولوحتني شـمسـه، فاحترقت ونضـج جلدي، كما تنضـج جلود الكفار في نار جهنم..

كما أني سـمعت أنهم داهموا تلك الليلة، بيت شــاب كان يدرس الطب في جامعة بغداد، أعترضـهم ومنعهم من الدخول، فدفعوه ودخلوا عنوة، وكان يقودهم الضـابط فاخر خريبط، ولما سألهم ماذا تريدون، قال له ضابط الشرطة:

- جئتم من وراء الجبل حفاة، وسنعيدكم اليه حفاة.. فرد عليه ساخرا.
- سنعود.. إذا عدت أنت للصحراء التي جئت منها.

هجم عليه عناصــر الأمن وأوســعوه ضــربا وركلا حتى فقد وعيه، ونقل على إثرها الى المســتشــفى بين الحياة والموت.. والأســوأ من ذلك، أنهم كانوا ينتزعون من الناس وثائقهم الرســمية، التي تثبت عراقيتهم، عند ترحيلهم، كما وضـــعت الحكومة يدها على ممتلكاتهم وصادرتها أو وضعتها تحت الحجز بعد ترحيلهم.

عندما فتح المسلمون العرب العراق، في القرن السابع الميلادي، لم يخبرنا التاريخ انهم استأذوا أهل البلاد، تساءلت هل كانت البلاد آنذاك مغلقة بقفل، أم انها كانت مفتوحة للجميع، وكذا إدعى الانكليز انهم جاؤا محررين لا فاتحين، تلك لعمري احدى أكاذيب المحتلين..

داهم رجال سليم الخماش منزل الأستاذ مقبل، وذلك بعد عودتنا من بغداد، في ليلة عيد ميلاد الرئيس، يقودهم ضابط الشرطة فاخر خريبط، فجاءت هيلا مسرعة لبيتنا، تستنجد بي، فوجدتهم أمام المنزل، وكانت أم سعيد تحاول منعهم من الدخول، دفعها أحد عناصر الأمن.. صرخت فيهم ابتعدوا عن بيتي، ماذا تريدون. أجابها الضابط.

- جئنا لنأخذ هيلا للتحقيق .. سألهم الأستاذ مقبل:
- ما تهمتها.. أسألوني أنا أجيبكم.
- لا.. ليس هنا.. نسألها في المخفر.
- أسئلة.. مثل ماذا.
- لا أدري.. القضية لا تخصك أنت..

أحتج مقبل غاضبا:

- كيف لا تخصني، اليست هي زوجتي!
- تعال معها، وخذ معك شهادة جنسيتها، وهناك ستعرف كل شيء.

حاولت إقناع ضابط الأمن بالعدول عن أخذها بالليل، وتعهدت بإحضارها لهم غدا..

- لا تتدخل بعملنا، التحقيق في الليل او النهار، يتم مع كل الذين نأخذهم، وليست هي استثناء.
- هي مدرسه.. موظفة..
- وليكن.. لا فرق عندنا..
- جرجرتها ليلا شيء غير لائق.. قاطعني بخشونة
- ليكن.. نحن ننفذ الأوامر.. لا تتدخل في عملنا..

أخذوهما.. جلس مقبل في الوسط، وزوجته قرفصت منكمشة وملتحمة بباب سيارة البك- أب، بينما توزع عناصـــر الأمن على مصـــطبتين على جانبي المركبة وأســـلحتهم مرفوعة أمامهم، أقنعت الخالة أن تبقى في بيتها أو تذهب لبيتنا، تجلس مع والدتي، وطمأنتها أنى سـألحق بهم بسـيارتي، عبرت الجسـرين، متجها لمخفر شـــرطة الخيالة، هناك توقفت أمام البوابة الحديدية العالية، وترجل الجميع.. فكرت بهيلا التي فقدت أباها صـــبية، وعانت مرارة اليتم والوان الحرمان، حينما كانت طفلة صـــغيرة، لم تحتفل مرة واحدة، كأطفال اليوم بعيد ميلادها، وهي الآن تجهز ملابس واحتياجات الطفل الذي ستلده قريبا، تمنته صـبيا، ربما تحلم بعيد ميلاده الأول، بالسعادة التي تدخل الى قلبها، وتمسح غلالة الحزن التي وشحت أيامها..

لابد أنها قلقة الآن وخائفة على زوجها، وتريد أن ينتهي الاستجواب معها سريعا، فيعودا للبيت ويندســـا في الفراش الدافئ، ويفكران بالإســـم الذي يختارانه للمولود الأول.

في نفس الليلة التي قبضـــوا فيها على هيلا، كان الرئيس يحتفل بعيد ميلاده الثالث والأربعين، وقفت هيلا وزوجها مقبل أمام سليم الخماش، وكان الاحتفال ينقل على شـــاشـــات التلفاز، وكان الرئيس منتشـــيا بعيد ميلاه ، ومن فرط انتشـــاءه لم يشـــعر بوجود أحد غيره، وكان الليل خلف بوابة القصـــــر الجمهوري، يزحف ثقيلا على بغداد، التي بدأت تستعد لمأتم طويل.

كنت معهما أثناء الاستجواب، سألها سليم الخماش عن اسمها وأسم أبيها.. فأجابته، ثم طلب شـــــهادة الجنســـية العراقية، فقدمها مقبل، نظر فيها لحظة ثم رماها على مكتبه دون اكتراث، صـــــوب نظرة حاقدة الى الســـيدة هيلا، وقال بنبرة احتقار واستخفاف:

- أنت إيرانية..

لم تجب هيلا، أسرع مقبل يرد عليه

- هي عراقية.. التقط انفاسه من شدة انفعاله ثم قال ، وستبقى عراقية..

ربما كان نوح يريد أن يقول.. رغم أنفك.

لكن أحد ضباط الأمن، زجره وأسكته، غضب سليم الخماش وقال بنفس حقودة ومتعالية:

- هي من التبعية الأجنبية ، أتفهم ذلك ؟

دافع الأستاذ مقبل عن زوجته بأدلة واقعية ملموسة، كتلقيها التعليم الابتدائي والثانوي في مدارس المدينة، والجامعي في بغداد، وأنها مولودة في العراق بمدينة العمارة، وهذا مثبت في وثيقتها الرسمية الصادرة من الحكومة.. وأنها تخرجت من الجامعة قبل سنتين، وحصلت على شهادة البكالوريوس في علم الفيزياء، وتُدرسُ هذه المادة حاليا في إعدادية العمارة للبنات، أليست كل هذه الأدلة كافية على صحة عراقيتها.. رد عليه الخماش

- أبوها ايراني..

- كيف يكون إيرانيا وهو مولود في العراق ومسجل مع أفراد اسرته في كل احصاءات السكان السابقة..

- الا تفهم.. أبوها إيراني.. من التبعية الإيرانية.

جرفت مقبل موجة حماس قوية، وشعر أنه إذا لم يدافع عن زوجته بشراسة، فهو مقهور ويائس ومهزوم أمام جبروت هذا الرجل الذي يعرف الحقيقة، ولكنه يزوغ عنها، ينكر، يحيد، ويجحد لأسباب سياسية.. قاطعة مدير الأمن:

- كل ما قلته لا أهمية له عندي..

سأله مقبل يائسا:

- وما الشيء الهام عندك.
- قرار ترحيلها الى إيران.. أمر لا رجعة فيه..
- ومن أمر به.
- السيد الرئيس..
- أذن رحلوني معها
- لا.. أنت عراقي.. وهي أجنبية، وأمامك خيار واحد لا غير، الطلاق فتقبض المكافأة الممنوحة من السيد الرئيس.

- وإذا رفضت.
- تطرد من الوظيفة، وفي كلا الحالتين ترحل هي، ها.. ماذا تختار.

عندما نظرت الى هيلا شـــعرت أن قدميها ترتجفان، ولا تقويان على حملها، فهمست للضـابط الجالس جنبي أن يسمح لها بالجلوس، فنقله للمدير، الذي أومأ لها بالجلوس، جلسـت على كرسـي مسـند على الحائط قرب الباب، شـعرت بالراحة عندما استردت سكينتها وهدوئها، وأنها لم تشك لحظة واحدة بما سيختار زوجها، فهي تعرف أنه يحبها بجنون، حتى لو أغروه بكنوز الدنيا، فلن يتخلى عنها..

كنت شـــاهدا على قصــــة الحب العنيفة والطويلة بينهما..حكى لي مقبل عن تلك اللحظة الرائعة التي وقع نظره على هيلا أول مرة.

لقد جمعنا الحســين على أنبل شــيء في الحياة، ولن يفرقنا ســوى الموت.. خفق قلبي، عندما التقت عيوننا أول مرة، أصـــابني دوار لذيذ، كان وجهها المرســوم قمرا، في سـماء ليل عباءتها، قد سـلب عقلي، كانت تقف بين النسـوة المتشـحات بالسـواد، ليلة استشـهاد الحسين، كما ينتصـب تمثال ربة جمال في معبد إغريقي، وكانت مواكب العزاء تواصـل مرورها في الشـارع، وأضـواء الهوادج تحيل ليلة العاشـرمن محرم نهارا، ولكن سـحر وجهها، كان طاغيا على كل تلك الأضــواء الساطعة، كان جمالها الفاتن، يفوق كل وصـف، أسرت قلبي الى الأبد، كانا يلتقيان ســرا، وفي قلبيهما وهج حب عذري لا ينطفئ، ثم خلا لهما الجو، عندما التحقا بالجامعة.. كانت أم سـعيد في البداية، تعارض زاوجهما بشـدة لنزعة عنصـرية لم تكن قد تخلصــت منها بعد، لكنها مع مرور الوقت لانت ورضــخت أخيرا، بتأثير الشـيخ الموحان، وإصـرار ابنها المطلق، وتأثير سـعيد ونزعته الأممية، وأخلاق البنـت الحميـدة، التي حطمـت حواجز العرق، فـأحبـت هيلا وتعلقـت بهـا بقوة، وأغمضت عينيها عن أسطورة الأنساب..

صرخ سليم الخماش، فبدد ذكرياتي الجميلة عن العاشقين:

- ها ماذا قررت.

انتشلني صوت سليم الخماش من حلم جميل، ليلقيني في جحيم كابوس مرعب.

أجابه مقبل بصوت خافت مرتعش من شدة الغضب والانفعال والإحباط..

- أنتظر قليلا..

رفع مقبل رأســـه الى صـــورة الرئيس المعلقة على الجدار، فوق رأس ســـليم الخماش..

توقعت ماذا يدور في راســه الآن، فخفت أن يجرفه تيار غضــبه ويأســه، فيقول شيئا عن الرئيس، لا يحمد عقباه.. فقد كشف لي مرارا عن رأيه، مستندا بذلك على التاريخ كمرجع هام، لمعرفة اســـتبداد الحكام، الذين تعاقبوا على العراق، كان معظمهم قد غدروا برفاقهم، كما غدر الرئيس الجديد برفاقه في الحزب، بعد استيلاءه مباشرة على السلطة، كان مقبل يرفع رأسه وينظر الى صورة الرئيس المعلقة على الجدار فوق رأس سليم الخماش... وكما كان يقول لي أيضاً، الأقوياء دائما، ينكلون بأعوانهم، يزيح بعضــهم البعض في نهاية المطاف، ويحطم بعضــهم البعض كما تحطم الجرار الخزفية بعضــها، وأن الحاكم المســتبد يرتعب أشــد الرعب، ويظن أنه ســيكون بمنجاة من الموت؛ بمجرد أن يتخلص من إعداءه بالقتل..

جال في خاطري وأنا أنظر لمقبل، ما توقعت سيحدث، فقبل بضعة أشهر، عندما أســتُدعي للاســتجواب بخصــوص اختفاء أخيه ســعيد، المطارد من جهاز ســليم الخماش البوليسي، كانت صورة الجنرال العجوز، الرئيس السابق المُقال، وصورة نائبه الرئيس الحالي، يراهما المرء في الدوائر الحكومية، جنبا الى جنب في كل مكان.

خفت أن يخطر على بال مقبل الاســم البديل، الذي أطلقته أمه على الرئيس، فيجهر به أمام الحاضــرين، فتكون الطامة الكبرى، ســمعته بعد أن أنزل نظره عن صورة الرئيس، يتكلم هذه المرة بثقة واطمئنان، وبنبرة قوية رن صداها في أرجاء الغرفة قال:

- أعلن أمامكم أنني سأطلق زوجتي..

ســكت قليلا يلتقط أنفاســه المتلاحقة، والتفت الى زوجته، وتبادلا نظرات طويلة ثم نظر للمدير، وأكمل كلامه..

- بشرط واحد..

أنتفض المدير صارخا:

- أي شرط.. من أنت يا كلب حتى تشترط، انت تختار أحد الأمرين، أتفهم.

لم يعر مقبل اهتماماً لسليم الخماش، واصل كلامه.

- بشرط أن يطلق الدريع زوجته القبيحة..

انتفض المدير غاضبا

- *شنو.. منو الدريع.*

قام ضابط الشرطة فاخر خريبط من مكانه ودنا من المدير، ودار حول كرسيه، وهمس في أذنه.

قلت لنفسي، لقد أخبره الخبيث بمعنى الكلمة.

هذا اللقب اختارته أم سعيد للرئيس، لاعتقادها أنه يليق به. لقد سمعتهم يتداولونه في بيتهم عندما يأتي ذكر الرئيس، أو يشاهدونه في التلفاز..

أستوى سليم الخماش واقفا منتفضا، أندفع كالملدوغ، خبط بسبب هياجه طاولة في وسط الغرفة، أنقض كالمجنون على مقبل، صفعه بقوة على وجهه، طارت نظارته الطبية في فضاء الغرفة، وارتطمت بالجدار وتشظت.. رد مقبل صفعته بأقوى منها، نزلت مدوية على عيني سليم خماس، فطار الشرر منهما..

صرخ المدير متألما، قام الضابطان، ومعهما المفوض فاخر خريبط، وانهالوا على مقبل يضربونه بوحشية، حتى ترنح وهوى على الأرض، فاخذوا يركلونه بأحذيتهم، وهو ينزف ويتلوى من شدة الألم، حتى خيل لي أنه هالك لا محالة بين أيديهم.. كانت هيلا تصرخ وتبكي، تسمرت في كرسيها من هول المفاجأة، لا تطيق حراكا..

سمعت في تلك اللحظة صرخة مكتومة خرجت من حنجرة هيلا، لم يسمعها أحد سواي.. انكسرت أيديكم..

أمسكت يدها وساعدتها على الوقوف، وقدتها برفق خارج الغرفة.. فوجدت أمها تبكي عند الباب.. لم أستطع ان أفعل شيئاً لهما، سوى التعاطف، وقد ندمت على

مجيئي، وأنبت نفسي في السر، وقلت في نفسي، إذا كنت عاجزا تماما عن فعل اي شيء، فلماذا أتيت.

احتضـــنت الأم أبنتها، وراحت تبكي بمرارة، فدفعهما شـــرطي الى غرفة حجز النسـاء، نظرت من وراء قضـبان نافذة صـغيرة في أعلى الباب، كانت هناك نسـوة كثيرات مع أطفالهن، ينتظرن إبعادهن الى أيران..

كان التلفاز ينقل تلك الليلة الاحتفال بميلاد الرئيس، وهو يتأنق ببدلة بيضــــاء، يحتفي بضـيوفه الكبار، يتربع على كرسـيه الفخم والمذهب، وبين أصـبعية سـيجار كوبي فاخر من نوع كوهيبا، مزهوا بنفســـه، بقوته، بضـــحكته المميزة، بأجواء الابتهاج الطاغية، وغرور العظمة الزائفة.. بألوان الطعام الشـــهية، على مائدته الأســطورية، في وســطها كعكة عيد ميلاده، التي تنافس برج إيفيل في كبرياءها، تنتظر يده، ليقطعها بسيف عربي مذهب القبضة..

في تلك الليلة، وفي مخفر شـرطة الخيالة في الدبيسـات، لم تغمض عيون النسـوة المحتجزات للإبعاد الى إيران، هيلا وأمها حليمة، وغيرهن الكثير من الميسـانيات، وهن يحتضـــن أطفالهن النائمين، وفي قاعة آخرى يحتجز فيها الرجال، يمضـــون ليلتهم الأخيرة بالحديث، والتسـاؤلات التي لا جواب لها، عما ينتظرهم من مصـير مجهول في إيران، قلت لنفســـي، أنا خجل أن أعود لبيتي من دون المرأتين، اللتين ستقضيان ليلتهما الأولى؛ تتوسدان أرضية إسمنتية، وكيف سيبدأ هؤلاء المسفرون حياة جديدة من الصـفر، وهم لا يمتلكون شـيء، قال لهم سـليم الخماش سـنعيدكم لبلدكم الذي جئتم منه كما كنتم حفاة، والأسوأ من ذلك أنهم لا يفقهون شـئيا عن لغة إيران، أما الشيوخ والعجزة ذوي الأمراض المزمنة، فهم الحلقة الضـعيفة والهشـة، فمشـــقة الطريق، وربما المطر أو برد الليل، في المناطق المكشـــوفة الخالية عند الحدود، سـتعطبهم لا محالة، ولكن الشـباب المراهقين كعادتهم، كانوا أكثر حماسـة من الرجال، ربما كانوا يفكرون بتشـكيل تنظيم مسـلح على غرار الشـيوعيين في شمال العراق، أو حرب عصابات، يرسمون الخطط الخيالية لعودة بطولية للوطن، كنت أنتظر ماذا سـيكون مصـير مقبل، فسـمعت جدلاً ثار بين إثنين من الشـباب المحتجزين، وتعالت أصـــواتهما، أحدهما كان يقول ســـأقاتل بجانب الإيرانيين إذا حدثت الحرب، فرد عليه الآخر غاضــباً، أتخون وطنك! أجابه: والأنصـــار الذين

يقاتلون الحكومة في شمال العراق، اليسوا خونة !، قال: كلا، فهم يحاربون النظام على أرض الوطن، وقضــيتهم تختلف، يريدون إســقاط النظام من الداخل، وليس بأيدي قوات أجنبية، هذا هو الفرق بين الأثنين، ولما تعالت أصــوتهما وأصــوات الآخرين، تدخل شرطي وشتمهم وهددهم بالضرب، بينما خيم اليأس والقنوط على الأثرياء الذين فقدوا كل شـــيء، ومن العجيب أن المحنة جمعت قلوب الأغنياء والفقراء، واختفى الشـعور بالحسـد والاحتقار والكراهية، الذي كان فيما بينهم من قبل، كأن الإبعاد غسـل تلك المشـاعر السـلبية من النفوس، ولما أخرجوا مقبل من مخفر الخيالة، زجوه في سيارة الشرطة، التي انطلقت به لجهة مجهولة، عدت الى البيت، ألعن في نفسـي الرئيس وعيد ميلاده الثالث والأربعين، لم أنم تلك الليلة، ولم تنم أمي أيضا، وكيف تغفو عيون هيلا وأم سعيد، وهما يفكران بمقبل..

في تلك اللحظة التي هوت كف سـليم الخماش، مدوية على وجه الأسـتاذ مقبل، ربما كان الرئيس لحظتها يقطع الكعكة الأسطورية، محتفلاً بعيد ميلاده.

تســاءلت مع نفســي.. هل كان ما حدث الليلة حقيقة، أم محض خيال وأوهام، تخيلها عقلي المشــوش، هل قال مقبل ما ســمعته عن الرئيس، وإذا كان ذلك لم يحدث، فما الذي دفع المدير لصــفع مقبل، ما الذي قال فأشــعل غضــب ســليم الخماش.. أخيرا توصلت الى استنتاج مفاده:

أن إصــرار مقبل على عدم الامتثال لأمر المدير، ربما كان الســبب في تأزم الموقف، بينما أنتج عقلي تفاصــيل كل ذاك المشــهد العنيف، خفت على نفســي، وارتبت من أنني قد أمر بحالة نفسـية سـيئة، كانت سـببا لهذه الخيالات المفرطة بالغرابة، وفكرت باستشارة طبيب نفسي.. ولكن كنت اتساءل: لماذا إذن، استشاط المدير غضـبا. وقلت مع نفسـي، سـأراه غداً وأتوسـط لإطلاق سـراحه، فأنا كنت المســؤول الحزبي لســليم، بعد أن حلّ في مدينة العمارة لأول مرة، وكان آنذاك مجرد موظف بسيط في دائرة النفوس، لكن سـرعان ما تغيرت الأمور بعد مجيء الرئيس الجديد للحكم، لما بين الأثنين من آصــرة قبلية قوية، وفعلا قمت بزيارة مدير الأمن، ونجحت وســاطتي، ولكن المدير قال لي ســنبقيه عندنا بعض الوقت ليتأدب، وعندما سألته عن السبب، وهل أنه قال أو فعل شيئاً يستحق عليه العقاب، ردّ علي: لا، ومن يجرأ على ذلك، ولكن ليتعلم درساً أن لا يعارض الأوامر العليا،

أتبعت كلامي بتزكية مقبل فقلت، أنا أعرفه منذ زمن طويل فهو كأحد أفراد العائلة، وربما بعد أن استجوبتموه، عرفتم أنه منتمي للحزب، واستعطفته أن يطلق سراحه من أجل أمه المسكينة، التي لم يغمض لها جفن ليلة البارحة. أومأ المدير براسه، وقال سنطلقه بعد استكمال إجراءات بسيطة وسيعود لبيته وعمله، وعندما سألته عن الإجراءات، قال سيوقع على وثيقة طلاق زوجته، ويستلم منحة الرئيس.

بعد أن نجحت وساطتي لإطلاق سراح مقبل، ذهبت مع أمي الى أم سعيد لأُبشرها، وبنفس الوقت أخذتها بسيارتي لزيارة المرأتين المحتجزتين، وأحضرت لهما بعض الطعام لذلك اليوم، وما تحتاجه المرأتين خلال مدة الحجز غير المعروفة، على أن نأتي كل يوم بالطعام، الى أن يحين موعد طردهما الى إيران، لكننا فوجئنا عند وصولنا، بوجود حافلتين تقفان، أمام المخفر، تستعدان للمغادرة بعد اكتمال صعود المبعدين اليهما، كان شرطياً يقرأ الأسماء في ورقة بيده،وكانت هيلا تنظر من نافذة الحافلة الى الشارع، بدا خاليا تقريبا من السابلة، ثمة رجل عجوز يبيع الشاي وطعام الإفطار أمام بوابة المخفر، وكلب يقعي غير بعيد، ينتظر من يرمي له شيئا يأكله، وعلى مسافة قريبة، كانت محطة وقود، حيث كانت السيارات المسافرة الى بغداد تتزود منها.

رأينا الأم تصعد الحافلة وبيدها صينية فيها بيض مسلوق وصمونتان وكوبان من الشاي يتصاعد منهما البخار، وعندما رأتنا هيلا أشارت لأمها، فتركت الأم الطعام على المقعد، وهمتا بالنزول لاستقبالنا، حاول الشرطي منعهما، فتدخلت، فسمح لهما، جلسنا على الرصيف، وأحضر الشرطي الصينية. قالت الأم.

- لم تأكل شيئا منذ ليلة البارحة، وبعد قليل سيرموننا وراء الحدود، والله أعلم متى ستأكل مرة أخرى...!

وقالت أمي:

- هذا يضر بصحتك أبنتي، ويضر بالطفل الذي في بطنك، وأقنعتها أن تأكل..

راحت تأكل ونظراتها شاردة، تشيح بوجهها للجهة الأخرى من الطريق، كلما أقترب أحد من المكان، كان الأحراج باديا على وجهها..

عبرت عن قلقها.. قالت.

- ماذا لو رأتني إحدى تلميذاتي، وبعضهن من هذه المنطقة..

لذنا بالصمت القاهر.

ارتشفت هيلا رشفة صغيرة من قدح الشاي، وقضمت قطعة من الصمونة المحشوة بالبيض ونظرت بعيدا لمحطة البنزين، كانت هناك حافلة تتزود بالوقود، لتنطلق الى بغداد سألت الأم ابنتها:

- كيف سنتفاهم معهم.
- مع من.
- العجم، الإيرانيين، هل يتكلمون لغتنا.
- لا ماما.. هم يتكلمون اللغة الفارسية..
- وكيف سنتفاهم معهم.
- ماما.. ليس مهما أن نتفاهم بلغتهم، اللغة ليست وحدها الوسيلة الوحيدة للتفاهم، والكلمات بدون حب نابع من القلب تتحول الى سياط تلسع دون رحمة..

أرتفع عويل النسوة المبعدات مختلطاً بصراخ الأطفال، عندما بدأت الحافلتان تستعدان للحركة، ناحت أم سعيد، كأنها حمامة جريحة، وبكت أمي، كما لم تبك من قبل، كان حزنها على ما اصاب صديقتها من قهر وحيف، قد أثر على صحتها بشكل خطير.

ساءت صحة أمي بسرعة، وظهرت حبيبات صغيرة حول الثدي، الذي أُزيل منه الورم، فاتصلت هاتفياً بالطبيب الجراح، نصحني ألا أتأخر، وإنه يريد أن يراها في أقرب وقت، فمددت إجازتي قبل أن تنتهي، وتهيأت للسفر، وقد أبدى الكيال رغبته بالسفر معنا لحضور اجتماع تجار المحافظات، الذي سيعقد في غرفة تجارة بغداد بعد يومين.

حكيت لأمي قبل ليلة السفر، موضوع ابنة التاجر سبتي الزبون، وكانت تعرف المرحومة زوجته، لم أذكر لها رفضي للعرض الذي سبق أن تقدم به الكيال للزواج منها، قالت آمرة بحزم:

- قم أتصل الآن بالكيال، وقل له أن يتصل حالاً بالحاج سبتي ، ويخبره أننا نسافر غدا، ويقنعه أن يسافر معنا، ولتأتي معه ابنته الست سيناء، وسنجد لهما مكانا آمنا، حتى تنجلي هذه الغمة، كيلا يحدث لها ما حدث لهيلا.

لم أعص أمرها، عندما ذكرتني بوعد قطعته على نفسي، بعد أن غيرت اسمي من إجباري الى نوح، أن أكون جديرا بالاسم الجديد الذي أحمله، اتصلت بالكيال، وكان لحسن الحظ لم يأو لفراشه بعد، وقد تم كل شيء على ما يرام، وفي تلك الليلة نمت مرتاحاً مطمئناً، لأن الأب وابنته سوف لن يعودا للعمارة، ويتعرضا للتهجير القسري الذي بدأت حملته في الربيع.

لم أفكر بما سيحصل جراء موافقتي، قلت لنفسي، طالما أن حياتنا سارت بهذه الدرجة من الفوضى، فلنترك الأمور تجري على عواهنا، وللغد رب يتولى تصريف شؤونه. ومن أجل سيناء وحلمها بأحفاد وحفيدات، لم ترفض أمي سفر الكيال معنا.

الفصل الخامس

بحقيبة سفر واحدة سنسافر الى بغداد، جلست أمي بجانبي، إنطلقنا صباحا لبيت الكيال، وقفت السيارة أمام منزله، خرج الكيال وخلفه البستاني العجوز، يحمل حقيبة الكيال الجلدية الصغيرة، ذات اللون الأصفر الفاقع، ربطناها على سطح السيارة، حيانا فرددت تحيته، وتغافلت أمي متظاهرة بالنعاس، فسألني عن صحتها، قلت: الحمد لله، لا بأس، هي نائمة الآن، لأننا لم نستطع النوم ليلة البارحة، وقبل أن أصعد للسيارة، أعطيت خادم الكيال شيئاً من النقود، ودعناه ثم توجهنا لبيت الحاج سبتي، وجدناه على أهبة الاستعداد، ما أن توقفت السيارة أمام منزله حتى خرج الينا فوراً، كان ينتظرنا عند عتبة الباب حين وصلنا، أو ربما رآنا من نافذة إحدى الغرف العليا المطلة على الشارع، ونزل لاستقبالنا، كانت إبنته أثناء نزولي من السيارة، قد خرجت تلك اللحظة، وأقفلت وراءها باب المنزل بالمفتاح، تبادل الجميع تحية الصباح، وسلمت سيناء على أمي، وبعد أن تم وضع حقيبتيهما في صندوق السيارة، جلسا في المقعد الخلفي، كان الأب بالزي التقليدي، يجلس في الوسط، يعتمر العقال واليشماغ المرقط باللونين الأبيض والأسود ويرتدي الصاية الطويلة مع الجاكيت، وعلى يمينه يجلس الكيال، في بدلة سوداء، وقميص ابيض بدون ربطة عنق، كان شعر رأسه ناصع البياض، أنحسر عند الجبهة، ولكنه لم يكن اصلعا، وقد تجاوز السبعين بخمس سنوات، وبدا لي عجوزا مهدما، أكبر من عمره بعشر سنوات، وعند النافذة اليسرى جلست سيناء متلفعة بعباءة سوداء.

كنت في ذلك الصباح الرائق، أنطلق الى بغداد، للمرة الثانية في غضون شهر وبضعة ايام، ومعي مسافرون جدد، عدا أمي التي كانت رفيقة سفري، شعرت بأن السفر في باكورة الصباح، أشبه بمواصلة حلم لم تكتمل تفاصيله بعد، فغشاوة النعاس لا تزال تكحل العيون، المثقلة بوسن وخدر لذيذ، وعندما مرت سيارتنا أمام غرفة التجارة، كانت هنالك حافلة تنتظر التجار الميسانيين، كانوا يصلون تباعاً، يحمل البعض منهم حقائب سفر صغيرة، وهم لا يعرفون أنهم سيغادرون مدينتهم الى الأبد، كنت أقود السيارة، وبجانبي تجلس أمي شبه نائمة، وتاجر الأقمشة سبتي، يغالب النعاس في المقعد الخلفي، وسيناء بجوار النافذة، وشمس ربيعية

دافئة تبهج النفس، وحينما اجتمعنا نحن الخمســـة ذلك اليوم، كان ثمة عقدين بقين على أفول القرن العشرين، الشديد الاكتظاظ بالأحداث الهامة في تاريخ البشرية..

رأينا تجارا نعرفهم، يتوافدون على المكان، وفي تلك اللحظة، ســمعت صــوت الحاج سبتي، يأتي ناعسا ممطوطا، متسائلا:

- أستاذ نوح القضية فيها إنَّ..

تظاهرت أني لم أسـمعه، منشـغلا بالتطلع للبيوت وأعمدة شـارع بغداد، تتراجع وراءنا على الجانبين، حتى عبرنا الجسرين، واستقبلنا الشمال قبلة المندائيين، التي يحرسـها الملاك الأثيري أباثر، بعد أن قطعنا شـوطا من مسـافة الطريق، أرسـلت نظري الى أبعد مدى، تســتطيع عينـاي أن تراه، فتراءت لي جبال زاغروس في امتدادها البعيد، تبدت لي في تلك الساعة الصباحية ، دخانا أزرقا متحركا كالغيوم، وفي الأفق البعيد المتواري خلفهـا، هنـاك أيران، الجارة الملتصــــقة بـالعراق من الرأس الى القدمين التصــــاقا أبدياً، وهي الآن عقدة نبوءة المندائي، والمكان الذي يريد سـليم الخماش ابعاد أولئك التجار الميسـانيين اليه، بعد أن يصـادر ممتلكاتهم وكـل مـا يحملون من وثـائق رســـميـة، ويحتجز أولادهم الـذين يؤدون خـدمتهم العســكرية، أوالذين لا يزالون تحت التدريب، بعد تخرجهم من الجامعات، ســألت نفســي، لا بد أن الكيال قد أخبر تاجر الأقمشـــة بفخ الاجتماع، الذي خُطط بدهاء، لجمع أكبر عدد من تجار المحافظات، لطردهم دفعة واحدة الى إيران، فكان ينظر لتلك الجبال أيضــا، ويفكر في نفســه انه غدا أو بعد غد، سـيكون هناك وراء لتلك الجبال البعيدة، التي يتهمه ســليم الخماش أن أجداده تســللوا منها، كالأفاعي التي كانت يجرفها السـيل، وهي في طريقها للسـهول المنخفضـة، حتى تصـدها القناطر الســبع القديمة، ألتي لم يبق لها أثر. ومرة آخرى فرقع التاجر الصــمت، بتســاؤل آخر، ولكنه هذه المرة، كان صــاحيا، وفي نبرة صــوته إصــرار عنيد على إيجاد جواب لتساؤله:

- هل أسأنا لأحد يا أستاذ نوح...
- لا أبدا..
- لماذا إذن يحقدون علينا.

- لا أحد يحقد عليكم، القضية...صراع سياسي، الناس لا ذنب لهم، أكباش فداء، وقد تنجلي الأزمة، كما حدثت في عهد الشاه، وتتوقف سريعاً هذه الإجراءات التعسفية.

تدخل الكيال بعد أن سمع شخير والدتي الضعيف وتأكد أنها نائمة.

- سليم الخماش، أوغر صدور الفقراء.. وأوحى لهم أن التجار العجم يمتصون دماءهم، وأنهم سبب فقرهم، وهم أيضا كما يدعي الطابور الخامس لإيران المجوسية.
- الفقر قضية اجتماعية، لا دخل للتجار فيها.
- ظهر حقدهم علينا بتغيير الأسماء القديمة.

صمتُّ، فتماهت في راسي حزمة من افكار شتى، تتدافع بالمناكب، تريد أن تسبق غيرها..

فمنذ ان غير المحافظ الجديد أسم سوق العجم الى سوق العرب، فهمت الهدف، كسب تأييد البسطاء، ودغدغة مشاعرهم العرقية.. إذ ليست المشكلة بتغيير الأسماء واستبدالها بأسماء آخرى، لأن السوق تبقى سوقا، سواء كان اسمها سوق العجم أو سوق العرب، أو أيا كان اسمها، هذا كل ما في الأمر، وكذلك الماجدية، أقدم حي كبير للكادحين، يقع على ضفة الكحلاء الشرقية، لن تتحسن ظروف معيشتهم بمجرد تغيير أسم حيهم الى حي العروبة.. أجبته.

- نحن مهوسون بالألقاب الفخمة، والإضافات الجوفاء، التي تسبق أسماء الشخصيات، ذوات الشأن في الدولة أو المجتمع، وبتدوير مشاكلنا دائما، سندور في حلقة لا تنتهي، سواء اشتعلت الحرب غدا أم لم تشتعل.
- نحن أخوة في الوطن والدين، لم أفكر يوما انني إيراني وجاري عربي.

التفت الى والدتي، كانت نائمة أرخت عصبتها على عينيها الكليلتين، كي تتقي ضوء الشمس، وعندما التفت للحاج سبتي لأرجوه أن يخفض صوته، كانت سيناء تنظر الى الحقول والبساتين، من جهة نهر الدجلة، العظيم، الذي يمتد على طول الطريق، حولت سيناء في تلك اللحظة نظرها، فالتقت نظراتنا لأول مرة، كانت حقاً في غاية الجمال، أبهرني جمالها الهادئ والبريء، ولكي أشغل نفسي عن

التفكير بها، رحت أفكر بالخالة أم سـعيد التي تركناها وحيدة في البيت، وهي في أسوأ حالة تمر بها، قلت مع نفسي، لم أنجح في مسعاي في قضية مقبل، ولكن سأجد وسيلة لإنقاذه، سأشرح قضيته لصديقي المحامي حنا حمد، وهو صديق قديم، هاتفته قبل بضعة أيام، لأخبره عن قدومي الى بغداد مع والدتي، رحب بي وعرض عليَّ السكن في شقته بالأعظمية، التي كان يتخذها من قبل مكتباً للمحاماة، ولكنه أخلاها بعد أن تفرغ كلياً للعمل الحزبي، والمرافعة أمام محكمة الثورة، في قضايا تتعلق بأمن الدولة، ورفض أن يتقاضى مني أيجاراً، ولكني أقنعته بأن يقبل مني مبلغا من المال، مقابل استخدامنا للماء والكهرباء والتلفون، ولما كلمته عن موضوع والد سيناء، أبدى استعداده للمساعدة، وطمأنني أن السكن في شقته سيوفر له ولإبنته أمانا تاما، فالمنظمة الحزبية في المنطقة، يعرفون أني اتخذتها نزلاً لأقاربي القادمين من تكريت، لتصريف أعمالهم في بغداد. هذا الترتيب الجديد لأوضاعنا أراحني كثيرا..

اما الآن فأنا أسافر مرة أخرى، على نفس الطريق، الوحيد، الذي يربط مدينتي الجنوبية بالعاصمة بغداد، قلب العراق النابض، فقد قطعته في كلا الاتجاهين، مرات عديدة لا تحصى، وظل دائما يذكرني بدرب آلام المسيح، يؤرقني كلما سلكته ذاهبا أو آيبا.. وها أنا اليوم، أسافر عليه ومعي أمي التي انتكست صحتها، بسبب استبداد سليم الخماش وزمرته البوليسية، ومعي أيضاً رجلان، أحدهما أب سيناء الجميلة، والآخر الكيال، التفت مرة أخرى للحاج سبتي، وأومأت برأسي فوجدته صاحياً.

- أمي نائمة الآن، ولكني أعدك يا حاج عندما أعود، سأبحث لك على أجوبة لكل أسئلتك، ولكن ليس عند سليم الخماش، أو الذين تظن أنهم على شاكلته، يحقدون عليك، سأذهب بعد عودتي الى الشيخ المندائي، لأسأله عن سر كراهية سليم الخماش لأهل ميسان، وخاصة أولئك الذين ينحدرون من أصول إيرانية بعيدة، وأغلبهم من الكورد الفيلين العراقيين أصلا، قبل تأسيس الدولة العراقية في العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي، وأسأله أيضا عن حقيقة النبوءة المندائية، التي يريد الخماش أن نصدقها، بينما هو في قرارة نفسه يكذبها.. ضحك الحاج.

- ربما نجد عنده الجواب الذي نبحث عنه.

وقبيل منتصف النهار كنا عند جسر ديالى، توقفنا عند آخر نقطة سيطرة، فأشار لنا العسكري بيده بالتحرك، بعد أن ألقى نظرة سريعة على والدتي النائمة، وبقية المسافرين، ها نحن على مشارف العاصمة.

بصوت مجهد، أعياه الجلوس الطويل أثناء الرحلة، حيث لم نتوقف في الطريق إلا مرة واحدة، ولوقت قصير، طلب مني الكيال أن آخذه الى فندق إبن خلدون، وسألني ان كنت أعرف مكانه.

- سنأخذكم اليه عندما نصل، أنا أعرف المكان، وسبق أن نزلت فيه، فندق مريح وقريب من غرفة تجارة بغداد، اهو الفندق الذين تنزلون فيه عند قدومكم الى بغداد.

وقبل أن يجيب الكيال، رفعت أمي رأسها وقالت ضاحكة:

- نوح يمزح معكم، ستقيمون معنا، المكان موجود ويسعنا جميعا، فلا تحملوا أنفسكم هماً، سنعيش كعائلة واحدة.

لم يمض وقت طويل حتى وصلنا، وفي عصر نفس اليوم، تركت سيارتي تحت بناية العمارة، حيث توجد الشقة في مكان هادئ، وقريب من كورنيش الأعظمية، استلمت المفتاح حسب الاتفاق، من صاحب محل لبيع المرطبات والآيس كريم، صعدنا للطابق الثاني، وفتحت الباب ودخلنا، كانت فعلاً، كما وصفها صديقي المحامي، مؤثثه، نظيفة جداً وحديثة، تحتوي على غرفتي نوم وشرفتين، ومطبخ وحمام، وغرفة صغيرة مقفلة تخص المحامي، وبعد فترة استراحة قصيرة، ذهبنا لمطعم قريب، أكلنا وعدنا للشقة، تركت رفاق السفر فيها، وذهبت مع والدتي بسيارة أجرة، لعيادة الطبيب، وبعد الفحص الدقيق للثدي، لم يقل شيء، وكان يرد على كل سؤال واستفسار أوجهه، بهزة من رأسه وبكلمة واحدة يكررها، بسيطة..

- سأحيلها لمركز الإشعاع الذري، أتعرف مكانه.

بهزة من رأسي فهم، واعطاني رسالة.

عدنا للشقة، كنا صامتين طوال الوقت، لم تسأل عن شيء، استقبلتنا سيناء عند الباب، وقبلت أمي، وبعد قليل من وصولنا ذهبت أمي لتنام.

لا يزال أمامنا يوم آخر، حتى موعد اجتماع تجار المحافظات، في غرفة تجارة بغداد، والوقت لم يكن مناسباً أيضاً للتفكير بموضوع الآنسة سيناء، وكان الكيال والحاج سبتي ينتظران انعقاد الاجتماع غداً، استطعت إقناع العم سبتي بعدم الذهاب للاجتماع، أما الكيال فأصر، ولم يبدِ اي سبب مقنع .

قبل الغروب، عبرنا جسر الأئمة، ركنا السيارة في ساحة للوقوف، مجاورة لمرقد الأمام الكاظم، إنحشرنا مع الزائرين، حتى وصلنا الباب الخارجي، امسكت سيناء يد أمي وقادتها للضريح، وفي الدقائق الأخيرة قبل المغيب، إنتظمت صفوف المصلين لصلاة المغرب، تركت الرجلين يصليان، وجلست أفكر بالأجواء الروحانية التي غمرت المكان.

وبعد أن أنفض المصلون، طلب مني الكيال ان يودع أمي، لأنه غدا صباحا سيذهب باكرا لحضور إجتماع غرفة التجارة وقد لا يتاح له فرصة لتوديعها، دخلت للضريح فوجدتها ملتصقة بالشباك المفضض مع سيناء، لم تبرح مكانها.. أنهضتها وخرجنا، وعندما نقلت لها طلب الكيال، رفضت، أعتذرت للكيال أنها ليست بمزاج رائق، فهم أنها لا تريد ان تودعه.

لم نتكلم طوال النصف ساعة، اثناء عودتنا الى الشقة، كانت أمي مرهقة جداً، فخلدت مباشرة للنوم حالما وصلنا، نامت سيناء مع والدها في الغرفة الأخرى، أما الكيال فنام في الصالة، أمضيت ليلتي مسهدا، أحاول فك الغاز الرجل العجوز الذي أصر على المغامرة بحضور الإجتماع ، ما السر الذي تعرفه امي، وما العلاقة التي تربطها بهذا الرجل الذي لا تطيق رؤيته، ولم تكلمه طوال رحلتنا الى بغداد، التي استغرقت أكثر من أربع ساعات، على امتداد مسافة ثلاثمائة وستون كيلومترا.

طافت في مخيلتي كثير من أحداث الماضي، قلبتها محبطا رأسا على عقب، عليَّ أعثر على خيط يدلني على شيء، وكلما أوغلت الغوص في أعماقه، كلما أمسى شديد الظلمة، ليس فيه بصيص ضئيل من الضوء، كنت كمن يتخبط داخل

بئر ملساء عميقة الغور، كلما صعدت مترا أنزلقُ للقعر عشرة أمتار.. قلت في نفسي.. لربما سأعرف سره عندما أودعه غدا، وفي صباح يوم السبت، أخذته الى غرفة تجارة بغداد الواقعة عند نهاية شارع النهر، بناية عالية ذات طابقين بطراز جميل، حيث مكان الاجتماع لتجار المحافظات، وقفنا أمام الباب الكبير المشرع تلك الساعة لاستقبال الضيوف، وكانت نسائم عليلة تتسلل من نهر دجلة، تهب هادئة، تلطف من حدة التوتر والحزن الذي خيم علينا، قال الكيال وهو يحتضنني بقوة ودموعه تخضل لحيته البيضاء، قال:

- سامحني يا بني.
- أنت يا حاج إنسان محترم، وبمنزلة أبي الذي لم أره، وكنت معي طيباً، طوال معرفتي بك، وأنا سأبقى أحمل في قلبي ذكرى طيبة عنك، كما أنني أحب ان أخبرك بأني عزمت على مفاتحة الحاج سبتي لطلب يد سيناء، أعلم أن هذا الخبر يسرك، كما يسر أمي.

احتضنني مرة آخرى بقوة، وقد تهلل وجهه بالفرح، لم أره بهذا القدر من الابتهاج الذي غمره، كطفل يفرح بهدية إنتظرها طويلا وحصل عليها أخيرا.

إعطاني مظروفا، قال انه رسالة، كنت اريد منك ان تقرأها بعد ابعادي الى إيران، والآن عندما سمعت انك تريد ان تخطب سيناء، أطلب منك أن تفتحها، عندما تعقد قرانك إن شاء الله قريباً على الأنسة سيناء، كم أتمنى أن أكون معكم، ولكن تذكرني، كأني موجود بينكم أثناء الاحتفال بالمناسبة السعيدة، نوح هل تعدني بذلك، وقبل ان أنسى، خذ هذا رقم الدكتور ممتاز احتفظ به، ربما ترغب يوما الاتصال به.

- أعدك يا حاج أعدك.

قلتها بنبرة حزينة، وألم اعتصر قلبي كأني أودعه لمثواه الأخير، وقد دمعت عيناي، حينما ودعني، ودلف داخلاً، لم يلتفت أليَّ، بقيت متسمراً في مكاني، أنظر للباب، وعيناي معلقتان به، حتى جاء آخرون ودخلوا منه واختفوا كما اختفى الكيال قبل دقائق قليلة.

لم أفهم ما كان يقصد بكلمة سامحني بني، ولكني فسرتها بما ترسب في ذهني، عن معتقدات الناس قديما، حينما يطلب المسافر من الآخرين إبراء ذمته، لأنه لا يعلم هل سيعود من سفره أم لا، فاجتماع غرف التجارة المنعقد اليوم، هو ذاك السفر البعيد الذي لا أوبة منه، هو طريق الصد ما رد كما نقول في أمثالنا العمارية، وعندما عدت للشقة تذكرت في الطريق، أن الكيال تهلل وجهه بالفرح، عندما قلت له: أنت بمنزلة أبي الذي لم أره، هل يفتقد الكيال ابنه الدكتور ممتاز الى هذا الحد بحيث تذكره هذه الكلمة به دائماً.

انتظرت حتى ينقضي إسبوع أو أكثر على إبعاد الكيال المحتمل الى إيران، لكي أفض المظروف وأقرأ ما في الرسالة. ولكني تذكرت رجاءه بفتحها عند عقد قراني على الأنسة سيناء فالتزمت بوعدي الثاني.

أخذت سيناء على عاتقها العناية بوالدتي، فقامت بدور الممرضة، وربة البيت في آن، أما أنا فكنت أتساءل كيف لرجل معافى مثلي، ان يسقط تحت وطأة القنوط واليأس، بينما تحدت امي السرطان بقوة.. كنت أعلم أنها تتألم، ولكنها تتسامى فوق المها، لدرجة لم يبد منها أي تذمر أو شكوى، وحين ترى دموعي تنزل، عندما تقوم سيناء بتنظيف القروح حول الثدي، تقول ماما دموعك غسلني، فتقول سيناء: عمرك طويل خالتي، شعرت يوما بغضب لم أستطع السيطرة عليه، فذهبت فوراً للجراج، ألومه على عدم استئصال الثدي كله، الأمر الذي أدى لتلك الآلام الفظيعة.. كنت غاضبا، وعلى وشك أن أضربه، ولكنني تمالكت نفسي وهدأت، عندما شرح لي الخطر المؤكد الذي كان يهدد حياتها، في حالة الاستئصال الكلي للثدي، لم أقتنع بكلامه، ولكني رضيت بالقدر وسلمت أمري الى الله.

في تلك الأيام، التي كانت سيناء تنظف القيح حول ثدي أمي، بشاش معقم ، قالت لنا سأحكي لكم حكاية، والآن حان الوقت، إعترضت بأدب، لأعفيها مشقة الكلام، ورجوتها ان تنام، فلدينا متسع من الوقت لسماعها غدا، وأن في الصباح رباح.

- قد لا يكون لدينا وقتا كافيا، دعني أحكي لكم الآن جزءا صغيرا.. ستعجب سيناء.. استسلمت لإصرارها ولرغبة سيناء لسماعها، ولكن اشترطت عليها أن تتوقف عندما تشعر بالتعب.

- طبعا، أنا لست جهاز تسجيل، الحكاية طويلة، تحتاج وقفة تأمل وعبرة.
- نكتفي الليلة بالمقدمة..
- ارجوكما إذا شـــعرتما بالملل لا تتظاهرا بالنعاس او التثاوب، اشـــارة من أحدكما تكفي لأتوقف.

هكذا تبدأ حكايتنا..

كانت بنت يتيمة.. ولكنها كانت أبنة تاجر ثري، أما أنا فابنة فلاح قاس معدم وعديم الرحمة. الفتاة وأنا نشـترك بالمظلومية، ونختلف بالفقر، والفقر كما تعلمان، أشد وطأة وقهرا، فكيف أذا ازدوج بالظلم كما كانت عليه حالتي.

- كأنك تعقدين مقارنة بينك وبين بطلة القصة.
- نحن الاثنتان من طينة واحدة، صنعوا منها تنورا يستعر بالنار..

هكذا بدأت الحكاية..

هربت المســكينة ذات يوم من زوجة ابيها القاســية، وهامت على وجهها طوال ساعات النهار...

تدخلت أمي في القصة لتحكي عن نفسها:

- أنا لم تكن لي زوجة أب قاسية بل أب قاس..

تاهت البنت في البرية حتى جن عليها الليل، بكت، جاعت، خافت، فآوت الى حفرة في الأرض، طلبا للأمان من الضواري المفترسة..

مرة أخرى تكلمت أمي عن نفسها.

- أنا لم أخف من شـيء في حياتي بقدر ما كنت أخاف من شــيء واحد، أن يزوجني أبي من رجل قاس مثله، ولكن الحمد لله، كان زوجي مختلفا عن أبي تماما، ولسـوء حظي قتل في معارك الجيش مع الأكراد في الشـمال، وتركني أرملة شابة.. قاطعتها:
- ولماذا لم تفكري بالزواج مرة أخرى.
- لهذه قصة أخرى، ستعرفها عندما يحين وقتها.
- قولي لنا، هل أنت تحكين لنا قصتك أم قصة اليتيمة...

- ألم أقل لك، نحن الاثنتان من طينة شقاء واحدة.
- حسنا لنترك اليتيمة تروي الحكاية بنفسها.
- أحسن.. تدخلت سيناء
- تفضلي ماما لن اسمح لنوح أن يقاطعك مرة أخرى، تفضلي أحكي لنا القصة كيفما يعجبك، لقد أثارت المقدمة الرغبة عندي لسماعها.
- سأمثل أنا دور البنت اليتيمة، وأحكي بلسانها، هكذا،اتفقنا..
- اتفقنا.

خفت، جعت، عطشت، أتسخت ملابسي، وجرح الشوك قدمي، وحينما جن الليل عليَّ، التجأت لحفرة في الأرض، لم انم تلك الليلة، من شدة الخوف، الأصوات التي كنت أسمعها، كانت تمزق صمت الليل، تتناوب بين عواء ونباح وزئير، أجلت نظري في أنحاء المكان، لم أر شيئاً سوى الظلام، ولم أسمع سوى زمجرة اصوات مشحونة بروح العداء، كنت أزداد رعبا كلما شعرت بأجفاني تثقل وتنطبق، فأفز مرتعبة أفتح عيني في حلكة الظلام متكورة على جسدي، التمس الدفء والأمان، حتى أشرقت الشمس بنور بارئها، قمت فأجلت النظر حولي، لا أنس ولا جنس، ولا آن ولا ودان، ولكن نظري وقع فجأة على قصر عال، صرخت لدهشتي ما هذا يا إلهي، هل أنا في حلم أم علم، فركت عيني، ونظرت، كان ينتصب وحيدا في الخلاء، اين كان هذا البارحة يا إلهي، ولماذا لم أره، كأنما أنبثق فجأة من أعماق الرمال..

سرت نحوه، وقفت مذهولة أمام بوابته الكبيرة، أحترت هل أطرقها، تغلبت على خوفي، فطرقتها، فانفتح، انتظرت مترددة، سمعت نداءً يدعوني للدخول، ترددت، كدت اهرب، أعود لحفرتي، تكرر النداء يحثني على الدخول.. إقتربي لا تخافي.. تقدمت خطوة، خطوتين، وقفت مترددة، فكرر الصوت نداءه إقتربي أكثر لا تخافي، مشيت بين صفين من الأشجار، ملأ أذني حفيف الأوراق وتغريد الطيور، بأعذب الألحان، فهدأ روعي قليلا، وسكنت مخاوفي، واطمأنت نفسي، وأسلمت أمري الى الله، وقلت مهما يحدث لي لن يكون اسوأُ من حياتي مع زوجة ابي الشريرة..

إقتربي.. اقتربي، حتى وجدت نفسي أقف تحت شرفة تطل على حديقة غناء، تتطلع من أعلاها إمراه عجوز بشعة، ولكن بالرغم من بشاعة منظرها لم اشعر بالخوف، سألتني من أنت ومن أين أتيت، ولم تزد شيئا آخر، فأخبرتها، قالت ستكونين خادمتي في هذا القصر، تطيعينني ولا تعصين لي أمرا، وسأكافئك جزاء ذلك بكل ما تحلمين، نزلت من الشرفة أخذت يدي وقادتني في أرجاء القصر، صالاته الكبيرة، ردهاته العديدة، وأروقته الخافتة الضوء، فتحت الغرف وأرتني ما فيها من أثاث وتحف واسرة نوم من خشب الأبنوس المطعم بالفضة، وكنبات وكراسي ذوات اذرع مذهبة، أشياء لم أرها من قبل، ولم تخطرعلى بالي أو في خيالي أبدا، حتى ايقنت أني في قصر مسحور، وان قصر أبي لا يسوى شيء، أمام هذا القصر العجيب..

توقفت أمي هنيهة، تسترد أنفاسها، قامت سيناء للمطبخ وأتت لها بكأس الماء، شربت نصفه وتركته أمامها، على المنضدة الصغيرة، مسحت شفتيها بطرف شيلتها السوداء، التي كانت محلولة وتغطي مؤخرة رأسها، فانكشف شعرها الناصع البياض، تحت ضوء مصابيح الفلورسنت المتوهجة بالضوء الأبيض، فترة صمت قصيرة... قبل أن تعاود السرد..

- الله يلعن الشيطان، ها.. أين وصلنا بالسالفة مع البنت المسكينة. ها تذكرت..

فتحت العجوز كل غرف القصر، إلا واحدة قالت هذه الغرفة محرم عليك فتحها، أو حتى الاقتراب منها.. خفضت رأسي وقلت سمعا وطاعة مولاتي، بعدها قادتني إلى غرفة، وفتحت خزانة كبيرة، وقالت اختاري ما شئت من الملابس؛ هذه كلها لك، وفتحت صندوقا آخر من الأبنوس الأسود المطعم بالفضة، وأخرجت محتوياته من حلي ذهبية، وأحجار كريمة نادرة، عقد ألماس وخواتم فيها فصوص من عقيق، وأقراط لؤلؤ، وقالت وهذه كلها ايضا لك، لا أريد منك شيئاً، سوى ان تكوني من الآن رفيقتي، تؤنسين عليَّ وحشة عزلتي الطويلة..

كانت العجوز كريمة جداً معي، عوضتني عن الحرمان الذي عشته في بيت أبي، كانت لا تكلفني بشيء فوق طاقتي، نجلس معا على مائدة طعام فاخرة تتوسط

صالة كبيرة، معدة لنا بكل اصناف الطعام والشراب، دون أن أعرف من يعدها لنا كل يوم.. كانت تغيب عن القصـــر يوما أو يومين، وتعود محملة بالهدايا، متلهفة للغرفة السرية، تدخلها وتمضي ساعات طويلة فيها.

مرت الأيام والأشـهر، ومضـت سـنة تلتها أخرى، كما تمر كلمح البصـر في القصـص، ونحن على انسـجام تام لا ينغص عيشـنا شـيء، حتى جاء اليوم الذي أخبرتني أنها ستغيب لبعض الوقت، ولا تعرف متى ستعود، وحذرتني من دخول الغرفة السرية، وفي الصباح ودعتني واختفت، بكيت أول ليلة فارقتني فيها، كتمت خوفي في البداية، على أمل أن تعود كما كانت تفعل كل مرة، كنت كلما تذكرت معاناتي مع امرأة أبي، أتذكر لقمة الطعام التي أغص فيها مغموسة بدموعي، خفت غدر الزمن وقسـوة البشـر. انتظرت عودتها بفارغ الصـبر، ولكن الأيام مضـت ببطء، ثقيلة وكئيبة، ولم تأت سيدتي، حتى يئست من عودتها، وبدأت مؤنة القصر تنفد شيئا فشيئا، أشفقت على نفسي من الهلاك، وحيدة في هذا القصر الكبير، أيقنت أن حادثا قاهرا منعها من العودة، وإلا فهي شـغوفة بغرفتها السـرية لا تصـبر على الابتعاد عنها طويلا.. فقدت الأمل بعودتها، قلت أن العجوز قد هلكت، ولن تعود أبدا، فقررت أن أفتح الغرفة، لعلي أعثر على السـر الدفين الذي اخفته عني العجوز، فتشت على المفتاح فوجدته في مياه النافورة التي تتوسط الحديقة، عثرت عليه تحت صخرة صغيرة، ذهبت من فوري للغرفة، وفتحتها صباحا، وجدت فيها سريرا كبيرا يتوسطها، ينام فيه شاب وسيم، لم يشعر بدخولي، كأنه في غيبوبة، لا يحس بمن حوله، أو ربما كان مسحورا، وعلى منضدة جانبية صغيرة رأيت كومة من المراوح اليدوية، تناولت واحدة، حركتها تخفق فوق وجهه، حتى تنسـلت خيوطها، فرميتها، وتناولت آخرى، تعبت فنمت بجانب السـرير، داومت على عملي نهارا، لا أبرح الغرفة إلا لقضـاء الحاجة، أو لتناول القليل من الطعام الذي إدخرته، حتى هزلت وبرزت عظام وجنتي وبطئت حركتي، كنت في الليالي المقمرة، أخرج للحديقة، أتملى بطلعة القمر البهية، كان يؤنس وحدتي، كنت أعد الأيام بعدد المراوح التي اسـتهلكتها، نفدت جميع المراوح إلا واحدة، ورغم ذلك ، كان الشـاب راقدا كالموتى لا يتحرك، خرجت من الغرفة، نظرت للسـماء، رأيتها كصـفحة كتاب مفتوح، قرأت فيه كل ما مر على حياتي حتى تلك اللحظة، ثم

ســـمعت طرقا قويا على بوابة القصـــر، فتوقف قلبي عن الخفقان، تجمد الدم في عروقي، خطر على بالي أن العجوز قد عادت، وأنها ستعاقبني أشد العقاب عندما تعلم ما فعلت، ستجدني حتى لو حاولت الاختباء أو الهرب، ولكنني لشدة ذهولي لم أفكر بأن العجوز الساحرة لا تحتاج لمن يفتح لها الباب.. تجدد الطرق على الباب، وسمعت نداء استغاثة، يا سامعين الصوت إ فتحوا الباب على حب النبي، قلت في نفســـي، هذا صـــوت فتاة، وتذكرت أول مرة وقفت فيها أمام البوابة الكبيرة، قلت ربما هي في وضع صعب، مثلما كنت أنا من قبل، ولكنني ترددت، خفت أن تكون العجوز قد تنكرت، بهيئة فتاة مسكينة، لتكتشف أمري، تكرر الصوت المنادي مرة آخرى، كان فيه توســـل ويأس وخوف وعجز ورجاء، على حب النبي أفتحوا الباب.. أنا جائعة وخائفة. تجرأت حين ســمعت نشــيجها يأتي متقطعا، فرق قلبي، فتحت الباب.. وإذا بي واقفة أمام فتاة كفلقة البدر، حســـنا وجمالا وانوثة، رغم مظهر الفقر ورثاثة الثياب، قلت ســـبحان الخالق، ما أجملك قولي للقمر غب وأنا أطلع مكانك..

ابتسمت تلك الابتسامة الساحرة، وخفضت رأسها خجلا، قلت أدخلي، قدمت لها الطعام والماء، واغتســـلت وأعطيتها ثيابا نظيفة، وقلت لها أنت متعبة نامي الأن وسنتكلم في الصباح.. كنت متعبة ومرهقة وأشعر بصداع شديد، نمت تلك الليلة، تركت باب غرفة الشاب مفتوحا دون ان اعلم.

ولكي اريح امي عن مواصلة الكلام، وكما اعتدت ان اشارك في سرد قصصها الماتعة، اكملت..

نامت المسكينة تحت السماء، يحرسها القمر، وتهمس لها النجوم، بأسرار ليست بمستوى فهم الأنسان، ليست ألغازا أو طلاسم، ولكنها السر الدفين في سرة الكون، قبل أن تولد النجوم وتنتظم وتدور في أفلاكها الدائرة، وتجري الكواكب في مجراتها الســيارة، الســماء كانت غطاءها والأرض فراشـــها، نامت في أمان الله وحفظه، غافلة عما كان يجري حولها.

هتفت سـيناء، ما أجمل هذه القطعة النثرية، أستغرب لماذا لم تدرس الأدب الأنكليزي، او العربي، بدلا من علم الأقتصاد. قلت، هذه لها قصة، إذا ذكرتيني سأقول لك لماذا.

طلبت أمي أن آتي لها بشيء تأكله، لأنها شعرت بالجوع فجأة، فأسرعت سيناء للمطبخ وعادت وبيدها صحن فيه تفاحة وبرتقالة وبسكوت، وقالت سيجهز الشاي بعد دقائق، ريثما أقشر لك الفاكهة.

- السالفة طويلة، كلي حتى تقوين على إكمالها..
- سوده على تعبتك وياي..
- لا تقولي هذا، تعبك راحة ..

أكلت شيء من يد سيناء واستأنفت قصتها..

صحوت صباحا، يا لهول ما رأيت.. الشاب الوسيم النائم، واقفا أمام الفتاة الفقيرة، يخاطبها بكلمات المودة والإمتنان: لولاك يا جميلتي ما عدت للحياة، ولبقيت على رقدتي الى الأبد. شكرا لك، أنت أفنيت من أجلي مائة مروحة في مائة يوم وليلة، فأبطلت سحر الساحرة، التي خطفتني من مملكة ابي.. أنا مدين لك بحياتي، سـألبي كل ما تتمنين.. لقد زال عني السحر بفضلك، أنا أمير مملكة الأقحوان، يشرفني أن تكوني زوجتي.. انحنت الفتاة للأمير، لم تقل شيئا، اقتربت منهما، فأنتبه الأمير لوجودي، سأل الفتاة، من هذه .. أجابت بكبرياء هذه خادمتي، كتمته في قلبي، هكذا حكم علينا القدر، اصبحت هي السيدة وأنا الخادمة، ورضيت بهذه القسمة، هي تحظى بحب الأمير وأنا يكفيني عطفه، لقد تعلق قلبي بحبه منذ الليلة الأولى التي اقتحمت عليه الغرفة السرية، كنت لا أبالي بالتعب والجوع، انتظراللحظة التي يفيق فيها من غيبوبته الطويلة..

حان سفر الأمير، فغادرنا القصر وتوجهنا الى مملكته، وعندما وصلنا جرى له استقبال عظيم، وبعد ايام قليله أعلن زاوجهما، فأقيمت سرادق الأفراح وزين القصر الملكي بأبهى زينة، وأُعدت موائد الطعام بأشهى الأصناف وألذ الشراب، وتهيأ الناس لهذه المناسبة البهيجة، وبعد انقضاء أسبوع الأفراح والليالي الملاح، قال لي الأمير أنه وزوجته سيذهبان في رحلة شهر العسل الى مملكة الخزامى،

وســــألني عن الهدية التي أحب أن يأتيني بها، فقلت له، يا مولاي قبل كل شــــيء سلامتكما بالعودة هي أهم هدية، وإذ تكرمت فأشتري لي دمية تسمى دمية الصبر، قال لم أسمع بدمية كهذه، قلت يكفي أن تسأل البائع فيعرفها..

كانت أمي تروي القصـــة على لســان البنت اليتيمة، حتى تخيلت أنها لحماســتها المفرطة تحكي قصـتها هي، كانت تواصـل الحديث رغم الأعياء الذي بدأ واضـحا على صوتها، رجوتها أن تتوقف وتكمل القصة غدا، ابت، قالت

- إذا بدأت حكاية يستحسن بك أن تكملها.. فمن يعلم ما يحدث غدا.. الغد في علم الغيب، سألتها مازحاً:
- هل تخشين أن يفسد الموت عليك إتمام حكايتك؟ فأسرعت سيناء تقول:
- أســم الله على حياة خالتي، عمرها طويل، وتشــوف إن شـــاء الله ابناء ابناءها.

أجابت مبتسمة:

- أن شـــاء الله .. من لا يخشـــى الموت يا ولدي، كل واحد منا يقول أنا لا أخافه، ولكنه في قرارة نفسه يرتعب من ذكره، أنا أحب أن أنهي ما بدأت، لا أحب شيئا ناقصا أو مبتورا، فقصة بلا نهاية مثل حياة بلا معنى.
- أو مثل حقيقة ضائعة بين كم من الأباطيل..
- صحيح أحسنت.

قلت متوسلا:

- نامي إذن الآن واستريحي، وفي الصباح غدا رباح.

قامت لتدخل غرفتها، تبادلت مع ســـيناء القبل، وتمنت كل منهما للأخرى ليلة سعيدة، ورجتها سيناء أن توقظها من النوم إذا احتاجت لشيء ما، فسألتها امي عن والدها، فقالت لا تقلقي عليه، فلم يتوه من قبل في بغداد، يعرف الوصــول الى هنا، كما أني أتوقع مجيئه الآن، قمنا أنا وســيناء وجلســنا في الشــرفة، بينما فتحت أمي باب غرفتها، وانطرحت على ســريرها لتشـــاهد التلفاز، أما أنا فكنت أفكر بمغزى لحكايتها غير المكتملة.

- والدتك بارعة في سرد الحكايات.
- آمل يوما أن أجمعها في كتاب.

تحدثت سـيناء عن أبيها بحب وامتنان وإعجاب، لأنه بقي أرملاً يرفض الزواج مرة اخرى، بعد وفاة المرحومة والدتها، وكان وقتها في مقتبل العمر وثري، وألف من تتمنى الزواج منه.

- كنت صغيرة عندما توفيت والدتي، أتمنى أن أرد له شيئا ولو بسيطا مما فعله من أجلي.

فحكيت لها عن معرفتي به قديماً، وذكرت لها قصة البدلة التي تبرع بها لي.

- أبي إنسان طيب، وهو دائماً يمتدح أخلاقك، وسمعتك الطيبة بين الناس.
- كل إنسان حريص على أن يحافظ على سمعة نظيفة أمام الناس، ولكن لا أحد يعرف شيئاً عن السريرة. وما في أعماق النفس البشرية..

قلت ذلك وأنا أنظر مباشرة الى عينيها الناعستين العسلتين.

- ماذا تقصد، تطلعت اليَّ باستغراب.
- طبيعة الأنسـان مركبة وغريبة، فهو يحب أن يُمتدح أمام الناس ولكنه عندما يختلي بنفسه، قد ينتقدها، أو يجلدها بقسوة أحياناً. وأن المرأة تمدح زوجها امام الناس، وهي تعرف انه سـئ ولا يسـتحق المديح، ولكنها تضفي لنفسها قيمة بمدحه.
- تقصد عندما يكون الخطأ الذي نقترفه عيباً أو محرماً، اتقصد ذلك.
- صـحيح أتفق معك فيما يتعلق بهذا الجانب، ولكن في الجانب الأخر الذي يتعلق بالشخصية نفسها، لا يحب أحد منا أن يظهر نفسه، ضعيفاً أو أنانيا أو بخيلاً، لذلك يتصنع القوة، والإيثار والكرم.. هكذا نحن مخدوعون..
- صحيح.. لأن ما نخفيه في سرائرنا شيء يخصنا نحن، لا يطلع عليه أحد غيرنا، إلا الله، لذلك يوجد في داخل كل منا كرسـي اعتراف.. أكملت فكرتها..
- فكرة كرسـي اعتراف داخلي جميلة، هل هي من بنات أفكاركِ، كلنا نحتاجه، ولكن قد يختفي في لمح البصر، إذا كان الضمير غائبا.

- نعم هي فكرتي عن الضمير، هل أعجبتك.
- جداً، يشبه كرسي الاعتراف في الكنيسة.

طرحت سيناء عليَّ هذا التساؤل الغريب.

- أنظر لرجل يبحث عن حواء الملاك السماوي، وينسى أنه كرجل وهي كأمراة طردا من الجنة، هذا الصنف من الرجال لا يحتملون أي عيب في المرأة، حتى وأن كان تافها، نزوة مراهقة، فهم يحرمون عليها ما يبيحونه لأنفسهم.
- مثل أي شيء.
- الحب، العلاقة بين الجنسين حتى وان كانت بريئة.
- هل هناك علاقة غير بريئة.
- الحب بنظرهم اذا فشل ولم ينتهي بالزواج.
- صحيح، الأنسان العراقي صعب الإرضاء والقناعة.
- أستاذ نوح، أي نوع من الرجال أنت.

فاجأتني بهذا السؤال الجريء الذي لم أتوقعه، فقلت ببساطة.

- انا لا أختلف كثيراً، لكنني أحاول قدر المستطاع السيطرة على الجوانب السلبية في شخصيتي، لأنه كما تعلمين أن التشخيص الصحيح للمرض نصف العلاج الناجع، وأن اي قرار إذا لم يأخذ الوقت الكافي لينضج، تأتي ثماره فجة..
- تعني قرار الزواج مثلا.
- نعم.. صحيح.. لأنه أهم قرار في حياة الرجل والمرأة، وبعد فترة صمت، سألتها.
- سيناء هل لديك اهتمام بقراءة الكتب.
- نعم أقرأ كثيراً، ويستهويني الشعر، وأكتب فيه، وأطمح لتعلم الفارسية، لأقرأ لحافظ شيرازي بلغته، كما أقرأ لشكسبير، ولورد بايرون وكيتس، وت سي اليوت بلغتهم، استاذ نوح أسمح لي أن اسألك أنا أيضاً، سؤالا لطالما وجهته لنفسي دون ان أجد جواباً له، هل تعتقد ان الأنسان العراقي

يعاني من عقد مترسبة في أعماق شخصيته، نتيجة لتاريخه الطويل المضطرب دائماً.

- أنا لا أجيز لنفسي أن أسميها عقد نفسية، وإنما هي طريقته الخاصة المفرطة نسبيا في تأكيد الذات، عن طريق القوة، وهذه الصفة متأصلة فيه، حتى تكاد أن تتحول إن جاز التعبير، عند بعض الأشخاص كالرئيس مثلاً، الى المرض النفسي، وعندما تتضخم أكثر نتيجة للغرور وتقديس القوة والرجولة، قد يكون الشخص هو ونقيضه، الجلاد والضحية في آن، ولا أحد يفهم هذه الازدواجية.
- عجيب، هل نحن هكذا ولا نشعر بأنفسنا.
- المرأة العراقية لا تعاني منها، لأنها بالأساس تعاني من قمع مركب، التقاليد والرجل.
- الحمد لله لسنا رجالاً.
- خذي مثلاً المختل عقلياً، يعيش حالة الجنون كحالة

طبيعية عادية، يعبر عن رغباته دون أي عوق عاطفي.

- عوق عاطفي، لم اسمع به من قبل كمصطلح في علم النفس.
- موجود.. الإعاقة العاطفية، هي الكبت للتعبير عن الاحاسيس بطريقة صحية، كالفرح او الحزن، والعراقي صندوق عاطفي مغلق. ولكن احيانا ينفجر كقنبلة موقوته، فيدمر نفسه ومن حوله..

سمعنا طرقات خفيفة على الباب، قامت سيناء لتفتح الباب لأبيها، انتقلنا للجلوس في الصالة وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، كانت سيناء أصغر مني بعقد ونصف، ولم أكن أجرأ أن أطلب يدها من أبيها، رغم معرفتي بموافقته، فهو ينتظر مني الخطوة الأولى، لنعلن خطوبتنا، وبعدها نحضر أنفسنا لحفلة عقد القران، ولكي تسنح الفرصة لأكلمه، يجب عليَّ في المقام الأول أن أحزم أمري، وقد شجعتني والدتي أن أكلمه الليلة، وزاد في حماسي، إعجابي بها، وما دار بيننا من حوار قبيل مجيء أبيها، فقررت ألا أفوت الفرصة السانحة في تلك الليلة، التي قد لا تتكرر مرة أخرى.

- عمي بعد إذنك، لي الشرف التقدم لكم بطلب يد كريمتكم الآنسة سيناء، ويسعدني أن أحظى بقبولكم أولاً، ولكن أحب أن أسمع رأيها مباشرة، أحب أن يكون القبول أو الرفض نابع من إرادة حرة، ورغبة بالزواج مني، وليس نتيجة للظروف الشاذة التي نمر فيها..

ساد بيننا صمت متوتر، شعرت أن كلامي لم يكن مسبوكا بشكل جيد، ولربما كان يخلو من اللباقة والكياسة، أو الأسلوب الفني المتعارف عليه في مثل هذه المواقف الدقيقة.

- فيما يخصني من سؤالك، أقول، يشرفني أبني نوح أن تصبح صهري وابني، أما بالنسبة لسيناء، فهي الوحيدة التي لها الحق أن تجيب عن السؤال الذي يخصها. نظرت سيناء لأبيها نظرة مليئة بالود والإعجاب.
- قبل أن تبدأ الأزمة، كان ابي يرغب أن تتقدم لخطبتي، وبعد أن وجدني لا أعترض، تكلم مع العم موسى الكيال كما علمت أخيراً، ليعرف بشكل عام تطلعك ونيتك للزواج، أنا نفسي لا أحب أن يكون الزواج نتيجة لضغط ظروف قسرية، فرضت علينا فرضا، أو أن يكون سعياً لتحقيق هدف معين.
- حسن، هل لا زالت حالة عدم الرفض التي تكلمت عنها قائمة الى الأن؟ توردت وجنتا سيناء خجلاً، لأني فاجأتها مباشرة وأمام والدها.. ظلت صامتة لا تتكلم، فقال العم سبتي ملاطفاً
- السكوت علامة الرضا، هذا هو الجواب، هل اقتنعت الآن.
- تماما، لأقم أدخل الفرح على قلب أمي.

لحسن الحظ كانت لا تزال صاحية، قبلت رأسها، وقلت لها افرحي يا أم نوح بزواج ابنك أخيراً، ولتذهب الدكتوراه الى الجحيم. قامت وسلمت على الحاج سبتي وشكرته، وقبلت سيناء، واتفقنا غداً صباحا الذهاب لشارع النهر، لشراء خاتمين، ونلتقي بعد الظهر في مطعم قريب من مكان إقامتنا..

قضيت ليلتي مسهدا ولكن سعيداً في آن، أفكر بسيناء التي صدمني ذكاءها في إدارة الحديث، وأفكر أيضاً بما ستؤول اليه الأمور إذا اشتعلت الحرب، وبمصير

الكيال، وبرســالته التي لم أفتحها بعد، وفكرت: لا بد أنه وصــل الآن، لقد مر أكثر من إسبوع على اجتماع غرفة تجارة بغداد..

وخطر ببالي ما يقال عن الرئيس، أنه لا يقتل على الظن والشــبة، ولكن يتخلص من اعداءه كأي رئيس من دول العالم الثالث.. تســاءلت ولهذا ربما يتوجس خطرا قادما من إيران، وقد يكون الخوف وليس الخطر، هو الدافع القوي المبرر لقدح شــرارة الحرب، دون تفكير بازهاق أرواح مئات اللآلاف، اليس هذا طيش.. قد يقوض في النهاية اركان نظامه، فينهار آجلا أو اوعاجلا، اليس من الحكمة تجنب الحرب، وتوصلت إلى استنتاج أن الرئيس لا يهمه الناس، وان هذه الروح الانانية، شــيء خطير، قد تنتشــر بين الشــعب كالفيروس المميت. وفكرت أن أترك الحزب في نفس تلك اللحظة.

أربكتني هذه الأفكار، وحاولت بكل ما أوتيت من قوة، على إيقاف تأثيرها السلبي على علاقتي العاطفية بسيناء، والتي بدأت تنمو بسرعة، بقيت أقلب الأمر على أوجهه المختلفة، فأرى كل وجه أشد سوادا من الآخر، حتى أصابني الأعياء، وكرهت الحياة التي عقدتها السـياسـة وأفسـدتها الأطماع، وطمسـت وشـوهت كل شــيء جميل وخير فيها، حتى غدت شــيئا آخر مختلفا تماما، عقابا وعبثاً وعبءً ثقيلا، ولكن الأمل بحياة سعيدة مع سيناء خفف من وطأة هذا التشاؤم..

في الصباح، كان هواء الغرفة خانقا وراكدا، وكانت أمي مستلقية على السرير، ومن النافذة تسللت أشعة الشمس، فتلألأت حبات العرق على جبينها الأبيض، وبين مفرق شعرها كاللآلئ الصافية..

كانت جلسات الإشعاع في مستشفى الطب الذري تجرى بين يوم وأخر، وستكون أمي مسرورة غداً، لا نها لن تضطر للذهاب لجلسة مرهقة، وسنقضي يوما ممتعا بالذهاب لشارع النهر، لاختيار خاتمي الخطوبة، ثم العودة للشقة للاستراحة قليلاً، ريثما يأتي العم سـبتي ليكتمل شـملنا، وبعدها نخرج للذهاب لمطعم على كورنيش الأعظمية الجميل..

في صــباح اليوم التالي، حكت لي أمي ما رأت بالمنام ، وقد انشــرح صــدرها وهي تحكي بهدوء، شعرت أن دفقة فرح طارئ غمرت وجهها بالنور، رأيته يشع

عذباً ناعما، قالت، طاف عليَّ بالمنام الأمام الكاظم ليلة البارحة، فشـــكيت له الآلام الفظيعة التي أعانيها، فقال لي، لا باس عليك، لقد عانيت كثيراً في حياتك، ولكن ســـترتاحين قريباً، وســـألني عن ســـكني الآن، فأخبرته، فقال لي انت بجوار أبي حنيفة النعمان، أذهبي لزيارته وسـلمي عليه، واختفى كما ظهر أول مرة، نوراً مرَّ خاطفاً، أمام عيني اللتين كانتا لا تفارقانه.. قالت.

- سنزوره بني.
- سنزوره يا أمي قريباً..

في ضـحى يوم جمعة، أدت أمي الزيارة، لمرقد الإمام أبو حنيفة النعمان، وقفت بطول قامتها، عند الشـباك الخشـبي الذي يضـم الضـريح، المزين بكرات فضـية، كالتي رأيناها في مرقد الإمام الكاظم، أطبقت امي أصـــابعها المعروقة على اثنتين منهما، نقلت اليه بصوت خفيض مرتجف، سلام الأمام الكاظم، قالت، الإمام يُقرئك الســـلام، رفعت يديها وقرأت فاتحة الكتاب، وترحمت عليه، ثم تنحت جالســـة في أحد الأركان، خرجت أنا من الباب الداخلية للضــريح، وأرســلت نظري بعيداً الى الضــفة الأخرى من النهر، حيث تُرى منائر الكاظمية الذهبية، تتماهي مع شــعاع شـمس الظهيرة، لا يفصـلها عن المكان الذي كنت أقف فيه، سـوى الماء الجاري، الذي يســميه المندائيون، اليردنة، رأيت الجروف الطينية العالية، والجزر الرميلة، التي تظهر كل ســنة في فصــل الصــيف، تحط عليها النوارس، بدت لي من بعيد، كغيمة بيضــاء، ورأيت ســرب حمائم تحلق عاليا في أســراب متناســقة، تطير بين ضـــفتي النهر، فتقطعـه ثم تعود كرة آخرى، هكـذا لعدة أشـــواط من الطيران المتواصل، ولكنها تنحرف لأقصى الشرق عندما تقترب من مجمع المخابرات عند رقبة الجســر، وفي المرة الأخيرة تنهي اسـتعراضــها الرائع، وتنزل على أسـطح البيوت وتختفي. كنت أراقبها طوال الوقت، فقلت أحدث نفســـي، ربما تلك الحمائم الوادعـة أذكى من الإنســـان، فهي تتجنـب الطيران فوق المجمع، قد يكون ذلـك لتجربة سـابقة مرت بها، حينما كانت تحلق فوقه، فسـمعت صـوت إطلاقات نارية، أرعبتها فكفت عن الطيران فوقه تجنبا للخطر..

في الليل، قصـــدنا الجامع، ســـيناء وأنا، وقفنا نتطلع اليه، كان الجو في تلك الليلة الصـــائفة حارا، تلطفه نســـمات باردة، تهب من النهر القريب، كانت أعمدة النور

العالية، تحيل المكان الى نهار ساطع، تنير الأروقة والصحن الواسع، حتى رصيف الشارع، كنا في الأماسي الماضية، نجلس في الشرفة فنرى البرج الاسطواني الشكل، المصنوع من الألمنيوم الذهبي اللون، ونرى الساعة الكبيرة التي تتوج أسفل الرأس، كانت الساعة تشير الى التاسعة، وقت الهدوء والأمان، وهما السمتان البارزان لهذا المكان في الليل، قبتان ومنارتان، الواجهة الأمامية عند المدخل عالية، عبارة عن مستطيل كبير بداخله مستطيل آخر، يشكلان إطارا يمتاز به فن العمارة الإسلامي الرفيع، في بناء الجوامع والأضرحة، وعلى الجانبين، يتكرر الشكل الهندسي المستطيل، ولكن بارتفاع أقل، وما يميز الجامع أيضاً، الكتابة الضوئية لكلمة الله، وتحتها كلمة النبي محمد بضوء الفلورسنت البراق، تراهما عن بعد، الواجهة العالية والسور الخارجي، كلها مشيدة بالطابوق الذهبي البغدادي الصنع، ومزخرفة بالخزف القاشاني الأزرق الجميل.

تذكرت عندما رأيت الحمائم تعود الى أبراجها ظهيرة اليوم، فقلت لسيناء:

- ليس في هذه الدنيا ما هو أذكى وأروع وأجمل وأنبل وألطف من الحمائم، لأنها أسعد المخلوقات على الإطلاق، فهي تعود لأبراجها آمنة ومطمئنة، ليتنا يا سيناء حمامتين.. أكملت سيناء أنثى وذكر، لتكتمل سعادتنا، فضحكنا كطفلين فرحين.

بعد عودتي جلست لوحدي في الشرفة، أفكر بما شاهدته اليوم وقبله، أحدث نفسي، أن هذه الأضرحة، لابد انها كانت في اول ظهورها، كسائر القبور، ثم أنها تطورت، فشُيدت فوقها قباب متواضعة، ثم مع تقادم الزمن تحولت الى مزارات، للتبرك والسلام على أرواح الثاوين فيها، منذ مئات السنين، وبعاطفة الحب صارت مقامات ذوات شأن رفيع، وإلا لما كانت من قبل والى اليوم، مقصداً يشد اليها الرحال.

الفصل السادس

عندما كنت أفكر بتلك المزارات الشـريفة، ومكانتها في قلوب العامة، وارتباطها العاطفي والنفسي بشقاءهم وعذاباتهم، جاءت سيناء تسألتني، وكنت غارقا في لجة أفكاري.

- بم كنت تفكر.

كنت على وشــك أن أقول بكِ، لكني لم أحب ان أكذب في أمر جدي، يتعلق بحبي ومشاعري تجاه سيناء.

- بشيء أخر لا يتعلق بنا.
- عدت تقول أشـياء لا أفهمها، لا أدري كيف كنت تدير مصـرفاً مشـهورا، بأفكار غريبة.
- على فكرة ســيناء، ذكرتني، لم تعد بي حاجة لتمديد أجازتي، ســأقدم اســتقالتي هنا في بغداد، وســأتفرغ للأعمال الحرة، كما أننى ســأترك الحزب أيضاً.. لم تقل سيناء شيئا، سألت.
- ما هذه القائمة بأشـياء وأدوات كهربائية ومنزلية وأشـياء أخرى، وجدتها في المطبخ.
- أوه، نســيتها على أحد الرفوف، هذه أشــياء جردتها في أحد محلات بيع الأثاث المستعمل في مدينة الحرية.

حكيت لها عندما دخلته قبل يومين، أسأل صاحبه عن منزل صديقي يوسف، كان المحل يغص بهذه الأشياء المدرجة بالقائمة، الأشـياء التي كانت قبل أيام في بيوت المســفرين الى إيران.. كان اليوم جمعة، عرفت الرجل، فهو نفســه البواب في مستشفى الطب الذري، والذي لا يسمح لأحد من المرافقين للمرضـى بالدخول، ما لم يعطيه شيء من النقود، أثناء وجودي في المحل، سألته إمرأه من الجوار، حجي هل طلباتي التي أوصــيتك عنها موجودة عندك، قال لها، كلها عدا ماكنة الخياطة برذر، سأعثر لك عليها، اطمئني، إعتبريها الآن في بيتك، ثم قال لها عفواً، سأغلق

المحل الآن، لا اريد ان أتأخر فتفوتني الصـلاة، فسـألته انا عن صـديقي يوسـف، فدلني عليه، وهو يهم بإغلاق المحل، وأسـرع يركض حتى يلحق بالوقت، عندما رأيت يوسـف سـألته عنه، قال أعرفه، سـآخذك للجامع الذي يصـلي فيه إن أردت، وستراه يصلي في الصف الأول خلف الإمام، إبنه يدير المحل طوال أيام الأسبوع عدا يوم الجمعة، والأب يعمل في يوم عطلته، وقبيل الصـلاة بقليل، يغلق المحل على استعجال، ثم ويعود اليه حالاً بعد انقضاء الصلاة، ويبقى حتى حلول الظلام، يتاجر بأثاث المسفرين، وعندما يدخل بيتاً لتصفيته، لا يترك وراءه سوى جدران عارية، حتى الصـور الشـخصـية المعلقة ينزع عنها إطارتها، يذكرني بسـمكة العجوز سـانتياغو، بطل رواية العجوز والبحر، التي نهشـتها القروش حتى استحالت لهيكل عظمي، فتركها على شاطئ البحر ليراها الناس.

- أدرجت في هذه القائمة، مائة سـلعة مختلفة إلا واحدة، أتعرفين ما هي يا سيناء.
- لا.. لا أعرف.
- الوطن يا سيناء، فهو الشئ الوحيد الذي لا يباع ولا يشترى، أعلمت الآن لماذا كان غير موجود في القائمة.
- كيف استطعت أن تذكرها كلها.
- انطبعت صورها في ذاكرتي، وعندما اختليت بنفسي تذكرتها ودونتها.

صـباح يوم الأحد، ذهبنا لمستشفى الطب الذري، كان آخر موعد، وكان الناس متوجسين من شيء خطير، يتوقعونه قريبا، كان المجهول يتربص بمصائر الناس، أفاع سـامة تزحف ببطء وبدون هوادة.. ورغم ارتيابي من حقيقة نبوءة المندائي، وأنها كشف للغيب، لكنني في ذاك الصباح الصيفي البغدادي الحار، الذي لن أنساه أبداً، استعدت حكمة الشيخ حامد الموحان، بعدم تدخل المشيئة الإلهية في شؤون البشـر، إلا بعد فشـلهم بمنع ودفع الشـر أو الظلم الذي يلحق بهم، ولكن إذا بقوا مكتوفي الأيدي فسـينزل الله عليهم عقاباً صـارماً أشـد، على شـكل حروب وفتن داخلية..

عدنا للشـقة بعد الجلسـة الإشـعاعية، وكانت أمي تعاني من إرهاق شـديد، بدا واضـحا على محياها، لكنها أصـرت على إنهاء حكايتها، رغم احتجاجي بتأجيلها،

قلت لها أن حدثا خطيرا، يوشـــك أن يحدث، وأنه أخذ يطرق الأبواب بقوة، كانت سيناء وأبوها يزوران قريبهم في مدينة المنصور.

سألتني أمي أين وصلنا في المرة السابقة يا نوح.

- لا أتذكر..
- الله يلعن الشيطان والنسيان.. هما سببا البلاء في الدنيا، وعكسهما الذكر والأيمان فهما شيء واحد، وبهما تطمئن القلوب.
- اليس النسيان نعمة كما يقال!
- نعم هو كذلك.. إذا كنت تنســـى أخطاء الأخرين وتســـامحهم عليها، أين نحن.. أين وصلنا.. صاحت ها تذكرت..

كانت البنت المظلومة تريد دمية الصبر، ولما قال الأمير أنه لم يسمع بدمية بهذا الاسم، قالت لا عليك ياسيدي، أسأل في السوق وسوف يدلوك على البائع وهو يعرف ماذا أريد..

ســافر الأمير وزوجته الحسـناء، وأمضـيا أسـعد الأوقات بضـيافة ملك مملكة الخزامى، الذي قدم للعروســـة الجميلة أثمن الهدايا، حتى حان موعد عودتهما، فأنســـته الســـعادة الغامرة، الهدية التي وعد بها الخادمة، وتذكرها في آخر لحظة، فأستأذن مودعيه، وذهب بنفسه الى السوق ليشتري الدمية، دلوه على الدكان الذي يبيعها، ســأل البائع هل لديك دمية الصــبر، أندهش البائع ولكنه أجاب الأمير، نعم عندي يا سـيدي، ولكن اسـتميحك العذر، لمن يريدها سـيدي الأمير، قال لخادمتي، قال البائع، ولكن ياسـيدي يجب أن تراقبها وهي تحكي قصـتها للدمية، قال الأمير ســـأفعل، ودفع ثمنها، فلفها البائع بقطعة قماش وأعاطها للأمير، وعاد ليلتحق بالركب المتأهب للعودة...

قاطعت أمي لأخبرها، أن موسـى الكيال نقل سـند ملكية بيته في السـبع قصـور، هبة بإسمي، منذ عدة سنوات، وأن سند الملكية وصك مصرفي بعشرة آلاف دينار، التي وجدتهما في رســـالته، التي فتحتها اليوم، لأنني وعدته أن أفتحها يوم عقد قراني على سيناء، وغدا كما تعلمين سنحتفل بهذه المناسبة السعيدة، ما وجدته في الرسالة كان مفاجأة لم أتوقعها أبداً، قولي لماذا يهبني بيته ويعطني هذه النقود.

لا أدري ماذا أفعل، هذه أمانة وعليَّ أن احافظ عليها حتى يعود، لكنني سـمعت أخيراً أخبارا مقلقة عن المسـفرين، تتحدث عن حالات موت بينهم، فيها أطفال، عجائز، وشـيوخ يعانون من امراض مزمنة، قضـوا نحبهم في الطريق، وعن آخرين لاقوا حتفهم بإنفجارألغام تحت اقدامهم أثناء إجتيازهم الحدود مشـيا على الأقدام، أخشـى إن يكون الكيال من بينهم، وسـواء مات الكيال في الطريق، أو لم يمت وأستقر به المقام في إيران، فلا بد أن أحتفظ بهذه الأمانة، ولا اتصرف بشيء منها، حتى يعود، أما أذا تاكدت من موته، فسوف أسلمها لولده الدكتور ممتاز في لندن.

- هذا ميراث.
- ماذا تقصدين.

لم ترد عليَّ، فسـمعت شـخيرها المتقطع، لقد كانت نائمة، أخذت مروحة يدوية وحركتها فوق رأسها..

كنا نشرب الشاي، لأول مرة أراها، ترفع الإستكان الصغير، وتنزله بأصابع مرتعشة، نظرت اليها وقلبي يتقطع من الألم.. كانت نظرة سيناء لأمي تشف عن حزن وألم، وهي تطيل النظر الى وجهها الشاحب، كنت قد أخبرت سـيناء عندما كنت اقف معها في المطبخ ،عما تضمنته رسالة موسى الكيال، وما قالته أمي عن ميراث لا أعلم عنه شيئاً، ولم أفهم ماذا كانت تقصد، شيء حيرني، وأطار النوم من عيني ليلة البارحة، همسـت سـيناء بإذني، تمهل،إرفق بها، ربما هو المرض الخبيث، جعلها لا تعي ماذا تقول، أتقصدين أنها بدأت مرحلة الهذيان، قالت سيناء هامسة، لا أدري.

- ماما لماذا ترتعش اصابعك.
- لا شيء مجرد صداع خفيف، لا تقلق.
- ماما.. ماذا قلت أمس، شـئ لم افهمه، عن الأمانة التي بذمتي للكيال.. قاطعتني
- ليست أمانة، هذا حقك في الميراث. صرخت.
- ماذا تقولين أي ميراث.

- ميراثك من أبيك.
- ماذا.. أبي من أبي.

ساد صمت ثقيل، كنا ننزل أستكانات الشاي على المنضدة ببطء وننظر لبعضنا دون كلام.

وبدلا من التوضيح الذي كنت أتحرق لمعرفته، راحت تتذرع بضرورة إيصال القصة الى نهايتها، وكلما ألححت عليها واجهتني بحزم.

- إصبر، وستعلم كل شيء، نهاية قصة الفتاة لها علاقة بقصتنا..
- يا ألله، ميراث من تقصـــدين، خبريني بحق كل الأنبياء، لماذا يعطيني الكيال بيته وعشــرة آلف دينار، نظرت اليَّ ســيناء نظرة فيها شــيء من التأنيب، تعاتبني على نزقي وقلة صبري. وقالت:
- أكملي حكايتك خالتي، نحن متلهفون لسماع نهايتها.

واصلت أمي حكايتها عن الفتاة والدمية..

أعطى الأمير الدمية فشــكرته، ودخلت غرفتها، وجلســت أمام مرآة وأجلســت الدمية بينهما، وبدأت تقص عليها قصتها.. يا دمية الصبر، أستمعي قصتي، وكانت كل ما تحكيه الفتاة للدمية، يظهر بالتتابع على صفحة المرأة..

- توقفي وأخبريني ما صلتنا بالكيال.
- من حقك يا ولدي أن تعرف الحقيقة، يجب أن أخبرك قبل أن أموت، موسى الكيال هو أبوك.

صـــرخت من وقع المفاجأة التي أبكمتني فلم أحر نطقاً، قمت وحدقت في مرآة الصالة التي كانت أمامي، تخيلت أنني أرى شبحا من وراء ظلام الماضي الكثيف، يحدق بي بعينين مطفأتين، خارجا من غياهب المجهول، ليعاقبني، ويقلب حياتي رأسا على عقب، وعندما استعدت شيئا وعيي، عدت لمكاني.

- ماذا تقولين، موسى الكيال أبي، هل هذه قصة من قصص الأفلام الهندية، هل كنتِ متزوجة منه قبل أبي فرحان، الســت أنا الذي كان أســمي ســابقاً إجباري، ونوح الآن، ابن فرحان عبد الله.

- كلا.. أبوك ليس المرحوم فرحـان عبـد الله، زوجي الـذي قُتـل في حرب الشمال، أنت أبن موسى الكيال، هو أبوك الحقيقي.
- ومن تكونين أنتِ.
- من أكون أنا.. أمك..

عند هذه النقطة من الحوار، اسـتـرسـلـت تحكي قصـة شـقيتها، أمي الحقيقة، المرحومـة أمينـة، إمراة الكيـال الثـانيـة، فقد كـان متزوجـا قبلهـا من امرأة آخرى بغدادية، ترفض العيش في مدينة العمارة، هي أم الدكتور ممتاز والمرحوم منير.

- أنـا ربيتك عندمـا كنت لا تزال في القمـاط، أتريد أن تتنكر لي الآن.. بعد أن عرفت الحقيقة!

صرخت وهويت على يديها وقدميها، ألثمهما وأبللهما بدموعي:

- انتِ أمي وحبيبتي وحياتي..

بكت سـيناء بحرقة، ودمعت عينا العم سـبتي، كان طوال الوقت سـاكتا لا ينبس بكلمة واحدة، قلت في نفسي ربما هذا الرجل يعرف كل شيء، ولكنه صـامت كأبي الهول لا يتكلم..

أرتفع صوتها كأنها لم تسمع شيئا مما قلته، واصلت حكايتها كما لو أنها في سباق مع الزمن..

كانت الفتاة تسرد حكايتها للدمية، وكلما مضـت شوطا كانت الدمية تزداد انتفاخا ويكبر حجمهـا، حتى أصـبحت بحجم الفتـاة، أندهش الأمير وأنتظر متحفزا مـاذا يحدث وراء الباب الموارب.

قاطعتها، توسلت اليها تأجيل الحكاية لوقت آخر، قلت:

- فكما ترين يا أمي كل شـيء قد تغير الآن، فها قد حدث المكروه، وقامت الحرب وأصبحت سيدة الموقف، وحكايتها سوف لا تنتهي وشيطانها أخذ يعربد مزمجرا، متوعدا بالويل والثبور، والدمار والخراب، كل شـيء مؤجل الآن؛ إلا الحرب يا أم نوح، فهي سـيدة الموقف بلا منازع، توقفي

يا أمي لقد قامت قيامة الحرب، وسوف تقيم قواعدها التدميرية على شفا حفرة من نار الجحيم.

- الحرب قائمة دوماً يا ولدي، متى قعدت حتى تقوم الآن.
- قصة الكيال يا أمي كانت مفاجأة، رغم الشكوك التي كانت تساورني عنه، والشبه المذهل بيني وبين المرحوم منير، ولكنني لم أفكر بأنه أخي، وأن الكيال أبي، ما يحدث لي الآن يفوق الخيال، أو أبعد من الخيال.

أمسكت يدها، وأوصلتها لسريرها، عدت للعم وسيناء قلت لهما:

- لقد سمعتما ما قالت .
- أنا على علم بذلك، علمت به منذ زمن بعيد، أخبرني به الحاج الكيال، وطلب مني ألا أبوح به لأحد، كان سرا بيننا، ائتمنني عليه.

لم أقل شيئا، أكمل العم كلامه.

- إتفقت من شيخ، سنعقد قرانكما اليوم مساءً، ولنفرح جميعاً بهذه المناسبة السعيدة.

بشرت امي، فأطلقت من حنجرتها زغردة خافة، بالكاد سمعتها، وكنت أجلس على مقربة منها، على سريرها، سمعنا العم سبتي وسيناء، يتناقشان حول لوازم حفلة الليلة، اتفقا على الذهاب لشرائها، قالت أمي.

- قم وادفع لهما ثمن ما سيشترونه، عليك أنت أن تدفع هذه المصاريف من جيبك ابني، لا يجوز أن يدفعها الحاج.

خرجت من الغرفة، لأستأذن الحاج بدفع تلك المصاريف، ضحك، احتضني بين ذراعيه بمودة وحب، عبر عنها بكلمات قليلة ولكنها نابعة من القلب.

- لا فرق.. أبني فرحكما هذه الليلة هو فرحي، وهذا كل ما تمنيت في حياتي.

ودعتهما عند باب الشقة، خرجا وأغلقا وراءهما الباب، سمعت صوت أقدامهما وهما ينزلان السلالم للشارع. عدت لأمي، كنت متأكدا أنها متلهفة لإكمال حكايتها، بعد أن خلا لنا الجو.

- نحن الآن وحدنا، قولي لي متى بدأ نظرك يضعف يا أمي.

حاولت أن أُزيحها قليلا عن الحكاية، فبدأت حكاية جديدة، ولكن هذه المرة كانت عن نفسها.

بعد سنة من وفاة شقيقتي أمينة، أمك، كنت أعاني من الشقيقة، كنت أحسب أن الوجع الشديد في عيني من أثر الصداع القوي، الذي تسببه لي الشقيقة، ولم انتبه لذلك إلا بعد فوات الآوان، حين أخذ العمى يزحف ببطء الى عيني، آخر مرة رأيتك بعينين سليمتين، عندما كنت آنذاك في الخامس الثانوي، أتذكر عندما غرق أخيك منير، أومأت براسي، تابعت أمي ذكرياتها الحزينة..

بعدها ضعف بصري، والآن كما ترى لم يبق منه إلا بصيص من نور، وسينطفئ قريبا..

- كيف عرفت أنه الماء الأسود، أو ما يسميه الطب بالجلو كوما أي ارتفاع ضغط العين؟
- الماء الأسود شخصه الطبيب اليهودي داود كباي، عندما كان لا يزال يعيش في مدينة العمارة، أما الشقيقة فشخصها طبيب مصري قبطي، جاء الى مدينتنا في العهد الملكي، وكانت عيادته في شارع المعارف.

قاطعتها.. حكيت لها عن ذكرياتي عندما كنت تلميذا في المدرسة المتوسطة.. كان يوجد آنذاك مدرسون مصريون أيضاً، أحدهم درسنا اللغة الإنجليزية، في المتوسطة، وكان قبطيا أيضا، طويلا نحيلا أشقرا، يضع نظارة طبية انيقة على عينيه واسمه جرجس، مرة سأل تلميذا من تلامذة الصف الفقراء، عن الواجب البيتي، فأعتذر التلميذ وبرر تقصيره بأنه لم يجد الوقت الكافي قائلا.. أنا يا أستاذ انسان فقير وكادح، أشتغل لأعيل أمي وأخوتي الأيتام الصغار، أدور بعد الانصراف من المدرسة، في الأسواق، أبيع البزر على رواد المقاهي الشعبية، ولا أجد فرصة لعمل الواجب البيتي رد عليه المدرس مستهزئا، والحمار ايضا حيوان كادح، ولكنه يؤدي عمله المكلف به.

- اتعرفين من كان ذاك التلميذ يا أمي,
- لا من هو.

- هو ضابط الأمن فاخر خريبط، الذي داهم بيت الخالة أم سعيد، وشارك في ضرب الأستاذ مقبل. سألتني:
- هل عندك أخبار عن مقبل وهيلا.
- لا أعرف شيئاً عنهما، يقال ان مقبل معتقل في الاستخبارات العسكرية الشعبة الخامسة.
- أراك هذه الأيام تعانين من الصداع النصفي، ألم تخبريني بأنك شفيت منه تماما.
- صحيح.. ولكنني أعاني منه الآن، ربما بسبب الإشعاع، الحمد لله على كل حال، منه المرض وبيده الشفاء، وكلاهما حسن، المرض يأتي ويروح، وكل مرض يأخذ معه الذنوب التي اقترفناها، فهو يغسل ذنوبنا، كما يغسل الماء الوسخ عن أجسامنا.
- الأ تخافين الموت.
- لماذا.. الموت آخر دواء لأمراض البدن، يأتي فيمسح بأنامله كل الآلام.

عادت سيناء والحاج، لم يتأخرا، ركنت الأشياء في إحدى زوايا الصالة، ودلفت للمطبخ أدخلت الكعكة المكللة بالكريمة البيضاء وحبات الفراولة الحمراء، ثم زينت الصالة بالبالونات والشرائط الورقية الملونة، ونزعت الورق عن باقتي الورد الجوري، البيضاء والزهرية، وضعتهما في آنيتي زهر من الكريستال على طرفي مائدة الطعام وسكبت فيهما ماءً لمستوى الربع، ارتحت كثيراً، لم اتخيل انني سأتزوج بهذه السرعة، ما قامت به سيناء يدل على ذوق راق، قلت مع نفسي، الحمد لله، تم كل شيء قبل أن تأتي عمتي التي دعوتها وابنتها بدور، لأنها كثيرا ما تتدخل في مثل هذه المناسبات، فيفسد ذوقها الأشياء، جاءت واعتذرت عن عدم مجيء زوجها لظروف طارئة.

إقتصرت الحفلة على الأصدقاء، المحامي حنا، يوسف، الحاج إبراهيم، قريب العم سبتي، ومن الأقارب عمتي وإبنتها.

سلموا على والدتي وتمنوا لها الشفاء، همس المحامي بأذني، أمك شخصية قوية، ابتسمت له وشكرته على المجيء، قال معبرا عن فرحه، بعبارات جميله.. لا أحب إهداء الحلوى لأنها تضر بالصحة، وأيضاً لأنكما حلوين فأنتما لا تحتاجان لها، أما

الورد فيفتح شـهيتكما لحياة زوجية دائمة وسـعيدة، ابتسـمت سـيناء وشـكرته على تمنياته الرقيقة، وقع حنا ويوسـف بإسـميهما على عقد الزواج كشـاهدين، همس الشيخ لي، عندما قرأ أسم حنا، بأن لا يجوز شـهادة النصراني، ابتسمت، قلت، هو مسلم، ولكن الأسـم هو المسيحي فقط، أحس حنا بما يدور بيننا من همس، فأخرج بطاقته المدنية وقدمها للشـيخ، أخذها مرتبكاً، ألقى عليها نظرة سـريعة، ثم أعادها معتذرا، ضحك حنا، لا عليك يا شيخ حصل خير، ليست هذه ليست المرة الأولى، لا عليك، أخي نوح يسـتحق أن يشـهد على زواجه، مسـلم ونصـراني ويهودي، الأديان الثلاثة مجتمعة، كما هي موجودة في العراق منذ القدم، ولا تنسـى هذا نوح أبو الطوفان الذي أنقذ البشرية من الغرق والفناء. ضحك الجميع لخفة روحه.

كانت أغاني مطرب الريف المحبوب داخل حسـن، التي تحبها أمي، تصـدح في هواء تلك الليلة الأيلولية الدافئة، ودعنا الجميع وتمنوا لنا زواجا سعيدا.

ثم كان صـوت كوكب الشـرق، يهدهد روحينا، كأنه أرجوحة سـماوية، ترفعنا عاليا، وتظل شاهقة، معلقة بأهداب النجوم، وضوء القمر، الذي غمر الشرفة بنورة المخملي المنسـاب كالحرير الدمشـقي. كانت القبلة الأولى التي طبعتها على جبين سيناء، حينما قطعنا معا الكعكة بسكين واحدة، لا تزال دافئة على شفتيَّ..

سـألتني بنبرة هادئة ناعمة تقطر عذوبة ورقة، بعد أن جلسـنا صـامتين ننظر لبعضنا، نظرات شوق ورغبة وجنون:

- نوح.. أهذه هي اللحظة الجميلة، التي تمنيتها في حياتك، والتي سـتذكرها دائما.

كان صـوت أم كلثوم يصـدح برومانسـية الحب، وتلفاز الجيران ينعق بأناشـيد الحرب النارية، احترت أي لحظة سأتذكرها في هذه الليلة الرائعة. قلت مع نفسـي، لتذهب الحرب للجحيم، ثم قلت لها.

- بل هي الأجمل في حياتي كلها، وسأذكرها الى آخر لحظة من عمري.
- مسـكين، لم تكن حياتك سـعيدة، ولم تر فيها لحظات هانئة وجميلة، سأعوضك عن كل دقيقة ضاعت.

قمت أخذتها من يدها برفق، الى زاوية معتمة في الشـرفة، احتضـنتها بحنان بين ذراعي، طوق ذراعيها رقبتي، وتبادلنا قبلة طويلة، شـعرت أني غبت، وغامت عيناي، ولم أعد أسـمع شـيئاً من حولي، سـوى أنفاسـنا اللاهثة الدافئة. وبعد أن غمرتنا السعادة بفيض كرمها، لحظات ليست من حساب الزمن، جلسنا متقابلين، بعد ان استعدنا شيئا من الهدوء، سألتني سيناء.

- ما قصة صديقك حنا، لماذا اختاروا له هذا الاسم.

حكيت لها قصته.

كان أبوه ضـابطا قديما في الجيش، وهو متقاعد الآن، عشـق فتاة مسـيحية من تكريت، وتزوجها رغم معارضـة أهله، لكن الفتاة اشـترطت عليه أن يُسـمَّى أول مولود لهما باسم ابيها، فقبل ولم يكسر بخاطرها. ثم قلت.

- حنا إنسان نبيل ونقي السريرة، ربما كان لأمه المسيحية تأثير كبير على تربيته، هو عضو بارز في الحزب ومحامي بارع.
- اخبرتني أن شقته التي نسكن فيها كانت مكتبه.. وماذا يعمل الآن؟
- يتولى المرافعة في قضايا سياسية تتعلق بأمن الدولة.
- تقصد يدافع عن متهمين ضد الحكومة .. كيف!
- لأنه لا يحق لمحامين مسلتقين القيام بذلك.
- وهل يستطيع حقا ان يقوم بواجبه كما ينبغي!
- هنا تكمن المشكلة، لانه في هذه المحاكم يجب ان يتصرف محامي الدفاع كالمدعي.
- كيف ستتحق العادلة اذن!
- لا اهمية لذلك في محكمة أمن الدولة.
- يقول انه يحاول قدر استطاعته مساعدة اولئك الذين ساقهم سوء الحظ ، بسبب عداء شخصي أو وشاية لئيمة، يسميهم ضحايا الأفاعي السامة، ويقول عنهم انهم كالمسـيح عندما حوكم أمام الحاخامات اليهود، لم يكن هناك من يدافع عنه.
- حقا هو إنسان نبيل..

في يوم الثاني والعشــرين من أيلول ســبتمبر، ذهبت مع أمي لمســتشــفى الطب الذري، كانت القوات المســلحة العراقية في ذلك اليوم تخترق الحدود، وتتوغل في العمق الإيراني، وصلنا المستشفى، كان موعدها لحضور الجلسة، يبدأ في العاشرة صباحا، وتستغرق ساعة كاملة، جلستُ في بهو الانتظار، أنظر لساعة الجدار، وأراقب انفتاح الباب، في الدقائق الآخيرة المتبقية، على انتهاء الجلسة، خرجتْ من الباب الذي دخلتْ منه، في تمام الحادية عشرة، كان الممرض المعالج يسندها من تحت كوعها، كانت قواها خائرة وفي حالة يرثى لها، لا تكاد تقوى على المشــي، خلافا للمرات السابقة، أسرعت اليها لأسندها، طوقت خصرها بذراعي اليمنى، شــكرت الممرض، قالت له يمه الله يرضـــى عليك .. عندما لمســت يدها وأحطت ذراعي بخصرها، ابتسمت وقالت: لا تقلق.. أمك أقوى من المرض...

عدنا للشــقة، كانت بغداد قد تغير وجهها الى الأبد، حدث شـــيء غريب، ومؤذ ودخيل، أقتحم حياة المدينة، شيء طارئ ومعتد، حال بينها وبين شموس نهاراتها الضاجة بالحركة، الزاخرة بالحياة والنشاط ، كان شعاع الشمس الذي يخترق في الظهيرة مياه دجلة، قد انطفأ فجأة، وصُـــب مرح البغداديين في قالب كونكريتي، وانقلب إلى وجوم رمادي..

من ساحة الأندلس إلى الأعظمية، اخترقنا عدة شوارع، حتى وصلنا لشارع الرشيد، بعد أن تجاوزنا ساحة التحرير، ثم باب المعظم، فخيل لي أن سحابة دخان تشــكلت في ســماء بغداد وطمســـت معالم المدينة التي كانت بالأمس القريب قبلة الناظرين، وبهجة القلوب...

نامت أمي تلك الليلة مبكرا، فحمدت الله أنها لم تذكر حكاية الفتاة.. الحكاية التي شارفت على الانتهاء..

كانت منهكة بتأثير الإشـــعاع، وهواء الغرفة الخانق، تحركت مروحة الهواء الســـقفية، ولكنها لم تؤثر في درجة الحرارة المرتفعة، كانت مرهقة جدا فما ان وضعت رأسها على الوسادة حتى غطت في نوم عميق، وأرتفع شخيرها عاليا ولكنه هدأ بعد قليل..

جلست أدخن في الشرفة، كانت معي سيناء، فذكرت دولاب الخالة أم سعيد، كان رمزا لحالة التشـــوش والدوار، الذي يصـــيب من تفاجئه المصـــائب، فيدور به الدولاب، ولا يترك له فرصـــة لإلتقاط انفاســه، يدور به ويدور، حتى يفقد توازنه، ويدوخ وتختلط أمام عينيه الأشـياء، وتمتزج وتتداخل الاتجاهات، ولكنه مع ذلك لا يفقد وعيه كالمخمور.. يظل صـاحيا رغم التخبط الشـديد الذي أصـابه.. لقد ازدوج دولاب ام ســعيد مع طرقاعة زهلول فأنجبا مســخا أســمه: الطر- قلاب.. ســألت سيناء:

- هل سمعت بامرأة اسمها الدهلة أم سعيد.
- لا.. من هي.
- هي امرأة رائعة، توأم أمي الروحي، نحتتهما الحياة من صـــخرة واحدة، وعندما تسـتعيدهما الطبيعة الى أحضـانها، سـيمضـي وقت طويل حتى تنجب إثنتين مثلهما، شــيء لا يتكرر دائما بســهولة، الطبيعة تســترجع ودائعها إذا وجدت أنها لا تلاقي الامتنان والترحيب بما تعطي.
- هذه ألغاز لا أفهمها.
- تبدو لك ألغاز، لأنك لا تعرفين المرأة، اســألي أمي عنها فهي صــديقتها، وسوف تحكي لك عنها.
- سأفعل.
- وهل تعرفين العراف المندائي.
- سمعت الناس يتحدثون عنه، اليس هو من تنبأ بهذه الحرب؟
- هو تنبأ في الحقيقة بشيء آخر، اسمه طرقاعة، وام سعيد حين تلفها الدنيا، وتدور بها حتى تذهلها عن نفســها، تســمي ذلك دولاب، ومن اقتران طرقاعة العراف بدولاب أم ســعيد ولد الطر- قلاب، وهذا الاســم من اختراعي انا، أعرفتِ الآن كم هذه المرأة عانت في حياتها.. أترين يا سيناء أنتِ اخترعتِ كرسي الاعتراف الداخلي، وأنا الطر- قلا ب.

وبينما كنا يقظان، ســيناء وأنا، في الليلة الأولى لاندلاع الحرب، كان صـــوت تلفزيون الجيران ينقل صـــورا من المعركة، كانت حالة امي آخذة بالتدهور، وفي انتكاس مستمر، بينما كانت الحرب في تصاعد مستمر، هما على طرفي نقيض.

في هذا الجو الكئيب، كدت أن أكرر تساؤلي، عما إذا كانت علاقتنا ثمرة الظروف الاستثنائية، أم إنها الصدفة الجميلة والحظ السعيد، ام المشيئة الإلهية، المعبر عنها بالقسمة والنصيب، كما يقولون، كنت منذ أن بدأت علاقتنا، أتلهف لمعرفة ميلها العاطفي نحوي، وها انا قد تأكدت أنها تحبني، وأنا أبادلها حباً لا حدود له، ولا شطآن لمحيطه، فماذا أريد أكثر من ذلك..

في اليوم التالي، بعد ترويقة الصباح، قصت أمي ما تبقى من الحكاية، وعندما وصلت الى انفجار الدمية وانقذاف الخنجر المرهف من بطنها، سمعنا انفجارا قويا مدويا في سماء بغداد، أحدثته طائرة أف 16 إيرانية، أغارت على بغداد، وكسرت حاجز الصوت، كان الأنفجار متزامنا مع انفجار دملة في صدر أمي.. عندما قالت أمي: كادت الفتاة اليتيمة أن تغرز الخنجر في صدرها، توقفت، أمسكت صدرها وصرخت متألمة، انبجس قيح أصفر كثيف وكريه الرائحة من وراء ثوبها، ثم استأنفت سردها.. ولكن يقظة الأمير أنقذت حياتها.. قالت أمي:

- سأذهب لأغير ملابسي.
- أتحتاجين سيناء تساعدك.
- لا.. سأغير ثيابي وأعود لكما.

عادت أمي بعد قليل، وقد اكتسى وجهها بإشراقة الفرح، ورفت على شفتيها الذابلتين ابتسامة رضى، استجمعت ما تبقى من قوتها الآفلة، ركزته في نبرة صوتها الذي رن كأجراس الانتصار في المعارك، قالت:

- الحمد لله، لم تبق على النهاية سوى شئ قليل.
- شكرا يا أمي أجهدت نفسك كثيراً، نحن الآن أمام نهايتين، إحداهما سعيدة، أقصد ما قام به الأمير، عندما نزع الخنجر من يد الفتاة، فلولا تحذير بائع الدمى ويقظة الأمير، لقتلت المسكينة نفسها، ولكن يا تُرى من القادر على نزع فتيل الحرب المشتعل، كما فعل الأمير الشهم، من القادر يا أماه.. هل كنا نيام أو تناومنا وتركنا حبلها على غاربها! حتى رأيناها اشتعلت في السماء كما تشتعل في الأرض.

قامت سـيناء وقبلت أمي في رأسـها، وعانقتها عناقا حاراً، كما تفعل البنت مع أمها، قالت:

- ماما.. اتسـمحين لي أن انهي حكايتك، التي أعجبتني جدا، باختصـار بعد سماع الأمير قصة الفتاة، رق قلبه اليها، فتزوجها، وطرد زوجته المدعية التي انتحلت شخصية السيدة..
- وكيف عرفتِ ذلك.
- هذه نتيجة متوقعة، وخاتمة تقليدية للحكايات القديمة، هكذا عادة تنتهي الحكايات القديمة، نهاية سعيدة.. وينال الأشرار في نهاية المطاف عقابهم الصارم. قاطعت استرسال سيناء.
- ولكن من سـيعاقب الأشـرار الذين أشـعلوا فتيل الحرب، وأججوا نيرانها التي تزداد سعيرا كل يوم.

غيرت أمي الحديث عن الحرب، ولكن سـؤالها أعادنا اليها كما في لعبة الحية والدرج.

- هل نمتما جيدا ليلة أمس.
- لم ننم، سـيناء وانا، إلا مع حلول الفجر، كان صـوت تلفاز الجيران عاليا ينعق بـأخبـار الحرب، يعرض صـور من المعركـة عن بطولات وانتصارات جيشنا على الفرس المجوس، في ميادين القتال.. قالت.
- كنت مرهقة جدا فلم أسمع شيء.

الفصل السابع

استغرقت أتأمل بنهاية الحكاية.. بالفتاة المسكينة التي كادت تودي بحياتها في لحظة يأس ساحق.. وبالأمير النبيل الذي أعاد الحق لنصابه، ولم يقابل التضحية بالنكران..

وفكرت بالحرب، التي لم يخمد أحد شرارتها الأولى، حين اندلعت، وانتشر اوارها، ذكرتني بالدمامل التي تنفجر فيسيل منها القيح والصديد والروائح الكريهة.. فكرت أيضا بمستوى التعامل اليومي والعادي بين الناس، فوجدت أنه قائم على التنافس الاناني، واللهاث الذي لا يتوقف، والأهم من ذلك كله، التنصل عن المسؤولية، المتوارية وراء ستار ضبابي واه، من الاعذار والتبريرات الزائفة، التي برعوا فيها على مدى عقود من الزمن.. حفزني هذا التفكير، على استحضار شخص افتراضي، استدعيه من مخيلتي لأتحاور معه، يجلس امامي مطرقا مفكرا، فتخيلته رجلا في الستينات، عليه سيماء وقار طاغ، فكان عليَّ احترامه اثناء الحوار، واختيار كلماتي بدقة، استحوذت عليَّ الفكرة، لأنني كنت مشغولا بها طوال الأيام القليلة الماضية، وحينما حضر، بدأت اسأله من حيث انتهيت..

- أين نحن الآن يا عم.

ابتسم كأنه يتوقع السؤال، ويريد ان يختصر الجواب على قدر الامكان.

- في نفس المكان الذي كنا فيه.. لم نغادره بعد، حتى لحظة طرح السؤال.
- عفوا سيدي، هل افهم من كلامك ان المكان يعني الحيز.. الفراغ الذي تشغله الأشياء، فنقول هذا المكان مشغول، وذاك المكان خال..
- لا يا بني المكان يعني عندي المكانة، او سميها إن شئت المنزلة.
- هل يرجع لأننا إفتقدنا روح المغامرة والاكتشاف، وأننا ننكص على اعقابنا بعد كل محاولة فاشلة، فنعود من حيث ابتدأنا..
- نعم يحدث ذلك بلا وعي، عند الرهبة من المجهول.
- وهل كان الخوف هو الدافع لهذه الحرب!

- بالتأكيد.. الخوف من اقتحام العقبة الكأداء.
- لم أفهم ماذا تعني.
- الخوف من المستقبل والهوس الشديد بالماضي.
- الماضي.. الحضن غير الآمن، الذي نلجأ اليه عندما تعصف الرياح حولنا.
- صحيح.. واضرب لك مثال على ذلك: الحرب الدائرة الآن بين بلدين ينتميان لنفس المنظومة الفكرية والدينية تقريبا.

أوضحت فكرته، كما كان يتوقع مني ان افهمها..

- فرجل إيران الكبير يلوي عنان التاريخ، يرجعه القهقرى، لأربعة عشر قرنا ونيف، فيختار للحرب الدائرة الآن، شفرة إسلامية " دفاع مقدس " تذكيرا بمعركة بدر، فيقول كما نُقل عنه ’الخير فيما وقع ‘.. ورئيس العراق القوي، يختار لحربه شفرة قومية، ’القادسية الثانية‘ استلهاما لأول معركة اندحر فيها الفرس، على ايدي العرب قبل الإسلام.

انتهى الحوار مع الرجل، عندما لمحت على شفتيه شبح ابتسامة شاحبة، مرت كضوء خاطف، واختفت سريعا، احترت في تفسيرها، اكانت ابتسامة سخرية ام شفقة وتعاطف..

عدت لنفسي أفكر بميزان الحق المتقلقل دائما، إحدى كفتيه العدل والأخرى القوة، واستقرأت احداث التاريخ، فوجدت أن كفة القوة كثيرا ما تطغى على الأخرى، ونتيجة هذا الطغيان تحدث الحروب والمآسي في العالم.. وقلت في نفسي لذا ينبري الرجال الشجعان في كل عصر، يتصدون بإخلاص، وهم دائما في الصدارة، لإنجاز هذا العمل العظيم والخطير.. المحافظة دوما على كفتين متعادلتين، وبلا أدنى ميل، كالصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.. ولكن ماذا سيفعل الضعفاء المقهورين الذي هم اشبه بخشاش الأرض، عندما لا يجدون أحدا ينبري لهذه المهمة النبيلة، سيهرعون طبعا، وبلا أدني تردد، كما رأيتهم، لمراقد الائمة، يتمسحون بالعتبات وبالشبابيك طلبا للرزق، الشفاء، الشفاعة.. نستطيع ان نختصرها بكلمتين ’العدل الإلهي‘ المفقود على الأرض، والمؤجل في السماء..

الأشـــياء التي قد تبدو تافهة، ولا قيمة لها بنظر الاخرين، قد تكون على العكس بنظر غيرهم.. اذكر يوما في مدرســتي الابتدائية، كنت ابري قلم رصــاص جديد، اثناء فترة الاســتراحة، جاء تلميذ فخطفه مني وهرب، جريت وراءه، ولكن حين لحقت به لأستعيده ، كسره نصـفين ورماه للأرض.. كان الولد أكبر واقوى مني، فلم أستطع ان افعل شئيا، شعرت بانسحاق قاهر.. كان قلبي تلك اللحظة يغلي بنار الغضــب.. يا إلهي الرحيم لو ان ذرة من عدلك تسـود العالم لكانت كافية، ولما كنا نعاني كل هذا العذاب الذي لا ينتهي.. كما هو عذابي حين اكتشــفت ان لي أبا حقيقيا، هو موسى عمران الكيال، غير الأب الذي احمل اسمه: فرحان عبدالله..

عند تلك النقطة من الحوار مع نفسي، آثرت السكوت، التوقف، لان الاسترسال هكذا وبدون ضـــوابط عقلية، قد يقودني من تلابيبي للجنون، وكالمتلبس بجرم، يحاول انكاره، ولكيلا اتهم بأني بدأت أكلم نفســي، وتلك علامة خطيرة، كبحت جماح خيولي المنطلقة في برية لا حدود لها..

جاءت سـيناء فأخرجتني من دوامة افكاري، ذكرتني بالخروج، للعشــاء في أحد مطاعم المنصـور الراقية، رأتني أهم بالدخول لغرفة امي، دخلنا معا، قبلتها سـيناء في رأســها، كانت في اغفاءة فاســتيقظت، لترانا نقف امامها، رحبت بنا، وثمة ابتسـامة تسـاؤل واسـتغراب، ارتسـمت باهتة على شـفتيها الذابلتين. جلسـنا على الاريكة المريحة المسندة الى الحائط امام سريرها.

- يا أمي الحبيبة.. ها قد انتهت حكاية دمية الصــبر، وجئنا نشـكرك، وبحق كانت رائعة، أليست كذلك يا سيناء.
- رائعة وذات مغزى.
- قولي لي ماما، لماذا تخلى عني ابي الحقيقي موســى الكيال.. هذه قصـــة حقيقة اريد ان اعرفها وتسمعها سيناء ايضا.
- لم يتخل عنك.. كنا نحن الثلاثة، أبوك وجدك وانا، في منزله القديم، الذي تزوج فيه بشــقيقتي أمينه، المرحومة أمك، كنت أنت نائماً، أشــار جدك اليك، وأومأ اليَّ، خذيه، نظرت اليك، كنت ملاكا، فكرهت إيقاظك، فلما رآني لا أتحرك، انحى اليك ليرفعك، فسبقته، وعندما اقترب وجهي منك، صـــحوت انت من نومتك، كنت تنظر إلي ويداك ترفرفان كجناحي

عصفور، تخيلتك تلك اللحظة، تريد ان تطير وتحط في حضني، رفعتك وأخفيتك تحت عباءتي وخرجت. سألتها:

- إذا كان هو أبي الحقيقي، لماذا فعل ذلك، لماذا تخلى عني..
- ليس أبوك، بل جدك هو من أجبره على فعل ذلك..
- لماذا.
- لأن زوجة موسى الكيال لم تكن تعرف بزواجه الثاني، كانت تعيش في بغداد، وتستنكف العيش في مدينة العمارة.
- إذن هكذا طوى الرجلان صفحة أمي بعد وفاتها بسرعة، ليمهدا الطريق لمجيء الزوجة الأولى.
- نعم هذا ما حدث، باتفاق وتفاهم بينهما كما قلت لك.
- كنت أجهل تلك العلاقة التي كانت بين أبوك وأبي، وخاصة المتعلق منها بزواج أمي، وموتها بعد ولادتي بوقت قصير.

توقفت عند تلك النقطة، التي دار فيها الحديث حول المرحومة امي، ولكن استطردت بما تحتفظ به ذاكرتي من معلومات عن مدينتي، فأنا اعرف الشيء الكثير، أجزاء هامة من فصول تاريخها، حينما كانت مستوطنة صغيرة، في أواخر القرن التاسع عشر، تحيطها بطاح ونقائع، كانت مرتعا للبعوض، ليس فيها بناء بوسع المرء أن يراه شاخصا، او قائما على أساس، عدا مبنى سراي الحكومة التركية، وبيوت متناثرة حوله، وإسطبلات الخيل في مكان يطلق عليه السوارية.. سألتها عن الجد الأكبر آغا كيال، أكان من ملاك الأراضي الكبار، فاستطردت في الكلام عن تاريخ العائلة الكيالية.

في تلك الأيام الخوالي، جاء آغا كيال، الجد الأكبر، بصحبة أبنه الوحيد الشاب عمران أب موسى الكيال، ولم يكن بوسع أحد حين ذاك، مهما كان فضوليا ومحبا للاستطلاع أن يعرف من أين جاءا.. أمن شرق، ام شمال.. وسرعان ما أنشأ صداقة مع القائم مقام التركي، فكان يسامره في ديوانه الخاص، وقيل إنه كان يحمل توصية من والي بغداد، تمنحنه الحق بامتلاك أراض.. وبعد أن أستقر بما فيه الكفاية، صار إقطاعيا صغيرا، حاول أن يمد جذوره للتعايش مع من حوله، مثل نبتة غريبة، فلم يستطع منافسة أقطاعي العمارة الكبار، ذوي القوة والسطوة

والأصول القبلية العريقة.. الذين بسطوا ايديهم على أراض شاسعة، بحكم أنها كانت مشاعا، فنشأت الاقطاعيات الكبيرة، التي يكدح فيها الفلاحون كعبيد تحت رحمة حفنة من الشيوخ، الذين استأثروا بخيراتها وتركوا الفلاحين في فقر مدقع، فاعتبروا الكيال منافسا غريباً وضعيفا، ولا ينتمي إليهم مطلقا..

- كان كالغراب الأبقع بين الصقور الجوارح المفترسة.
- بل قولي كان متطفلا ودخيلاً على بيئة عشائرية غريبة عليه، لا يفهمها ولا تفهمه. ولكن عُرفَ عنه، أنه أشتهر بالذكاء والسياسة..
- صحيح، انه كان يوصف بهما، ولكن كان يتعين عليه ان يشتغل بالتجارة فهي مهنة اجداده، التي نشأ وتربى عليها.
- هل كان يتكلم اللغة العربية؟
- والتركية والفارسية أيضاً، وكانت لهجته العامية بغدادية اصيلة.
- إذن قد يكون متحدرا من سلالة من التجار الشرقيين القدامى، الذين كانوا يجوبون البلدان من بحر الخزر حتى الخليج، وقد اختلطت دماؤهم منذ أجيال بعيدة، بالغزاة الذين تناوبوا على حكم العراق، منذ سقوط دولة بني العباس.
- انا اعرف يا نوح.. قالتها متعجبة، ثم أكملت، أنت أعرف يا بني مني بذلك، أنت تقرأ كتب التاريخ، أما أنا فقد توقف عندي منذ مقتل الحسين، وبعده عم الحزن البكاء.
- وكيف تعامل معهم.
- مع من.
- مع كبار ملاك الأراضي.
- إي. أخذوا يضايقونه ويؤلبون الفلاحين ضده، حتى اضطر أن يتنازل عنها..
- لقاء امتيازات تجارية، كما اعلم، تمنحه حق احتكار شراء الحبوب من أراضيهم الزراعية.. أنا أعرف ذلك.. فبنى مخزن كبير للحبوب ، وامتلك بيوتاً، وبساتين في محيط المدينة، كل هذه الثروة الطائلة آلت في النهاية

لأبي.. وأثناء احتلال الإنكليز، أســتورد مكائن انكليزيه لجرش الحبوب وطحنها..

- ها.. أنت تعرف الشيء الكثير عن عائلة الكيال، فلماذا تسألني.
- لأتأكد من صحة معلوماتي.
- أحكي ماذا تعرف أيضاً.

حكيت.. أني أعرف أيضـــاً.. أن الجد الأكبر كان ذو ميول تركية قوية، أما ابنه عمران فقد عقد علاقة قوية مع القوميسير الإيراني في البصـرة، مصـالح تجارية، وشجع أهالي محلة السرية على تسجيل ابنائهم كرعايا للدولة الفارسية، أقنعهم أن ذلك يعفيهم من التجنيد الإجباري في الجيش التركي، والانخراط في السـفر برلك.. كان التنافس التركي الفارســي، امتدادا للصــراع الطويل منذ قرون، بين الدولتين الصـفوية والعثمانية، ولكن في أول إحصــاء رسـمي للسـكان، عندما جاء موظفو الحكومة العراقية الى محلة الســرية حيث كان يعيش، ودقوا باب بيته، رحب بهم وقدم لهم الشـاي، وحين سـألوه من أي رعايا الدولتين هو، قال انا من رعايا الدولة العثمانية، كان ذكيا يعرف أن رعاياها سيكون لهم شأن هام في المستقبل، وأنهم أي الأتراك هم من قام بتدريب الكوادر لإدارة دفة الحكم المحلي في البلاد، لأنهم كانوا آخر من حكم العراق، قبل هزيمتهم على يد الغزاة الإنكليز، في أواخر الحرب العالمية الأولى.. وأعرف أيضـاً أن والدي موســى الكيال كان ذو نزعة رجعية في البداية، وشـديد التعصـب للملكية، وفي غضـون السـنوات المتعاقبة، أخذ يتقلب مع السـياسـة حيثما اتجهت رياحها، حتى أنه انقلب على أفكاره، وتبنى أفكار ثورة 14 تموز، تشــفياً بمصــادرة الزعيم لأراضـــي الإقطاعيين، وصـــار من أنصـــاره، والمتحمســـين له، حتى أنه كان يعلق صـــورته في مكتبه، ثم أنزلها بعد إطاحته، واحتفظ بها مع مقتنياته الشخصية القديمة، التي يحرص ألا يراها أحدا غيره، وبعد ذلك أنطوى على نفســه، وآثر العزلة ومال للزهد، خاصـــة بعد غرق أبنه منير وموت زوجته وسفر ولده ممتاز للخارج..

تحدثت أمي عن أبيها.. أما جدك فكان يعمل وكيلا له بتجارة الحبوب، ينقلها أثناء موســم الحصـــاد، من الحقول مباشــرة لمخزنه، وفي ذاك الوقت، توطدت بينهما علاقة صـــداقة، وفي أحد الأيام وقعت عيني موســى الكيال على شــقيقتي أمينه،

والدتك، وكانت لا تزال طفلة، اقل من نصف عمره بخمس سنوات، إذا افترضنا أن عمره كان أربعون سنة، طلب يدها من جدك وتزوجها، ولكنها ماتت بعد ولادتك بحمى النفاس. ولم تمض سوى فترة قصيرة، على وفاة المرحومة حتى جاءت زوجته البغدادية، سألتها:

- هل عقد جدي، أعني أبوك، مع الكيال صفقة. بالمناسبة قولي لي لماذا لم ينطق لسانك باسمه ولا مرة واحدة طوال الحديث عنه.. لماذا لا تحبينه؟
- أنسيت ما حكيت لك .. لا أحب أن أذكر اسمه. أما إن كانت بينهما صفقة، كما تريد ان تعرف، فلا أدري.. ربما.

تحدثت عن النفقة التي كان يقبضها ابوها من الكيال، كوصي عليَّ، ولكن لا تدري كم كان يقبض، ظل الأمر سراً بينهما، بعد موت بوها، أخذ الكيال يبعث النفقة مباشرة لها، استمر الحال هكذا، حتى تخرجت من الجامعة وتعينت موظفا حكومياً، فرفضت اية مساعدة منه، هذا السر كتمته عليك..

صمتت هنيهة ثم تنهدت وزفرت آهة حارقة من صدرها المكلوم الذي نهشه المرض الخبيث..

- ألم أقل لك أن جدك كان ظالما، وقد عاقبه الله فهلك بالجمرة الخبيثة، خرقت جمجمته، ونزلت على مخه فأكلته، والكيال أيضا سيلاقي حتما عقابا اشد وأقسى.
- ربما لاقاه وانتهى الأمر..
- كيف.
- ربما هلك من التعب والجوع والعطش والمرض، أو انفجر به لغم أرضي، أثناء اجتيازه الحدود الى إيران.. لقد تناهي لسمعي أن عناصر الأمن المكلفين بنقلهم وخفارتهم، كانوا عندما يصلون للحدود، يرمونهم من الشاحنات العسكرية، كأنهم نفايات، ويطلقون فوق رؤوسهم وقرب أرجلهم النار، لإخافتهم لكي يهربوا بأقصى سرعة، فيتخلصوا منهم بأسرع وقت، اتألم عندما اتخيلهم يركضون خائفين، يحملون أمتعتهم القليلة، يسقطون بالحفر، أو يدوسون لغما ارضيا فينفجر، ويمزقهم

أشـــلاءً.. كم هي مفارقة غريبـة.. أن يموت الكيـال على الحدود، ذليلاً ومطروداً.. ربما كانت آخر أمنياته أن يناديني يا بني.

- هل أنت حزين عليه يا نوح
- لا أدري يا أمي.. أحزنٌ ام رثاء ما اشـــعر به حيال ما حدث، ولكن بقي لدي ســـؤال اخير، وكان طوال الوقت مؤجل.. ولكن لا.. لا داعي له، لم تعد له أهمية.
- ما هو.
- هل اختار ابي إسما لي عند ولادتي.
- نعم اســـم ابيـه عمران، ولكني رأيـت أن كـل مـا جرى لنـا، لـك و لي وللمرحومة شـــقيقتي، كل ما حدث قبل وبعد ولادتك، كان ضـــد إرادتنا، فسميتك اجباري.
- اتعبتك وأنت بأمس الحاجة للراحة.
- والآن حكيت لك الحكاية كلها.. دعني أنام.. اشـعر بوهن شـديد، وصـداع ينبض في صدغي.. أشعر بالتعب وأريد أن أنام..

خرجنا للعشـــاء، وبعد عودتنا، تمنيت لســيناء ليلة ســعيدة، ودلفت لغرفة أمي، وجدتها نائمة، جلسـت قبالتها على الاريكة، أتطلع لوجهها أُصـيخ السـمع لتنفسـها، كان تارة يعلو وأُخرى يخفت، أدنو منها لأتأكد أنها لم تمت، كنت في تلك اللحظات من الليل، تساورني أفكار غريبة، كيف ستكون حياتي بعد وفاتها، يقف شبح الموت جدارا أسـودا بيننـا، ملئ بالنتوءات والشـروخ الغائرة، خاصـة بعد أن عرفت حقيقة بنوتي للكيال، وفي هدأة السـكون، كنت لا أسـمع سـوى صـوت تنفسـها الآخذ بالاضـمحلال، كما أن ذكرى أبي اخذت تؤرقني مرة آخرى، فوجدت نفسـي أثور على ذاك الماضـي، الذي حرمني من أسـم جميل في طفولتي، ومن ابوين حقيقين، وأخذ مني منير، دون أن أعرف أنه أخي، رغم أني كنت أتسـاءل عن سـر الشـبه الكبير بيننا.

والان.. قامت الحرب ليس كما تنبأ بها المندائي، وإنما إنقيادا لنزوات فرد أو مجموعة من الأفراد، وعندما زارني المحامي حنا، تحدثنا عن ذلك، فابدى قلقا من العواقب، عبر عنه بأن الأمور مرهونة بخواتيمها، وتشـعب الكلام عن المهجرين،

فوصفهم بضحايا نزاع سياسي بين الدولتين، عقبت على كلامه بأنهم ليسوا اقلية عرقية، لأنهم ذابوا كليا في ثقافة المجتع ولغته، منذ عقود من الزمن، وطلبت منه ان يحصل لي عن إذن بزيارة جاسم أخ هيلا المحجوز مع مجموعة من الشباب، اغلبهم تخرجوا من الجامعة، وانهوا تدريبهم العسكري، وفيهم من يخدم حاليا في الجيش ويقاتل الأيرانين في جبهات القتال، فوعدني بإحضار إذن الزيارة، في المرة القادمة.

قبل أن يودعني سلمني ملفاً، وطلب مني أن أخفيه بمكان آخر غير الشقة.. وبأن لا أقول إذا سألني أحد بأنه صديقي، أقول أنني إستأجرت منه الشقه بعقد إيجار.

بعد يومين، جاء وسلمني عقد الإيجار وأذن الزيارة، ولم أره بعد ذلك، إختفى فجأة...

لبضعة أيام أخفيت الملف في السيارة، كنت أركنها في ساحة قريبة..أخبرت سيناء بكل شيء دار بيننا، فتوجست وخافت، طمأنتها بأني سأجد مكانا آخر، وطلبت منها أن تخبر أبيها، وأخبرت أنا أمي أيضا، فوجئنا بزوار الليل يطرقون الشقة بعنف، فتحنا لهم، فتشوها، كسروا قفل الغرفة الصغيرة التي تخص المحامي، وبعثروا محتوياتها، واستجوبونا، واطَّلعوا على عقد الإيجار، وجهوا الي أسئلة، وفي النهاية، اتصلوا بجهة لا نعرف من تكون، وغادروا الشقة.. سألت أمي:

- هل أفزعوك.

- بالعكس أنا التي أفزعتهم.

- كيف.

- لا أدري ربما رأوا ملك الموت يحوم قرب سريري فارتعبوا منه.

كانت سيناء خائفة، ولكن الحاج كان شجاعاً..

لنذهب نعيش في حي المنصور، إقترح العم، جمعنا أمتعتنا القليلة، وذهبنا لنسكن في المنصور، بالطابق العلوي في منزل الحاج إبراهيم، قريب العم سبتي، وهو رجل في مثل عمره، تاجر اقمشة رجالي، ثري جدا، لديه محلين واحد في سوق

دانيال والآخر في شـــارع النهر، يعيش مع زوجته، وخادمة أربعينية، تســكن في الطابق العلوي، ولكن بعد مجيئنا انتقلت الى غرفة في الطابق الأول.

قمنا العم وأنا بزيارة جاسـم، في مركز الاحتجاز بمعسـكر الرشـيد، وقدمنا له صندوقاً كبيرا من الورق المقوى، مليئا بالمواد الغذائية، وكل ما يحتاجه المحتجز، كان رغم الألم الظاهر على وجهه ونبرة صـوته، يحاول أن يبقى أمامنا قويا ومتماسـكا، أخبرنا أنه بعد ان علم بتسـفير أهله، فكر جديا بالهرب، ولكنه فوجئ برأس العرفاء، في أحد أيام التعداد الصباحي، يأمر كل الجنود الذين سُفرت أسرهم الى إيران، بالخروج من الصـف، اعتقد انهم يريدون الحاقهم بأهلهم المسـفرين، فخرج من الصف، وهذا ما كان يريده فعلا، عندما فكر بالهرب.. ولكنهم في الواقع كانوا يريدون احتجازهم، والآن لا يدري الى متى سيبقى محتجزا، هل حتى انتهاء الحرب.

اعتصر قلبي الألم عندما قال الى متى، فلم تكن هذه الـــ متى للسؤال عن الوقت والانتظار، وإنما كانت شيء آخر، يدل على اليأس والإحباط والقهر.

رأيت إثناء حديثه أحد الشـبان المحتجزين، بالبيجاما، أشـار اليه جاسـم، هذا من مدينة الكوت، يخرج وقت الزيارة، ويظل يدور ويلف السـاحة، ينتظر أحدا يأتي لزيارته، وعندما تنتهي الزيارة، يرفع رأسـه للسماء، ومنذ احتجازه الى اليوم يقوم بذلك، أشـك أنه فقد عقله.. لم يسـألني عن أهله، أكيد انه علم بما حدث لهم، انتهت الزيارة بالإعلان بمكبر الصوت، وعند خروجنا من البوابة الرئيسية، كان الحارس عند بوابة الخروج، يتفحص الختم الأحمر المطبوع على ظاهر أكفنا عند الدخول..

تدهورت صـحتها بشـكل خطير، بينما ازدادت الحرب قوة وشـراسـة، ايقنت أنها لن تعيش طويلا، وباتت أيامها معدودات، لقد تألمَتْ امي لجاسم كما تألمتْ لشقيقته هيلا..

كانت امي امرأة قوية الى آخر لحظة في حياتها، اليأس بنظرها ضـعف لا يليق بالمؤمن أو المؤمنة، ولكن البكاء في نظرها شـيئا مرغوبا، عاطفة إنسـانية نبيلة، يغسـل الحزن المكبوت في أعماق النفس، وبعد ان يؤدي وظيفته ينسـرب تلقائيا بهدوء، في مسـرب الدموع، علمتني كيف أنال السـلام مع نفسـي، وإعتبرته اكثر

فائدة من تأدية الطقوس المرهقة للجسد والعقل، علمتني في فترة وجيزة، الشيء الكثير، الذي لا يتوفر للمرء أن يتعلمه، حتى لو دأب على ذلك سنوات طويلة، كانت تقول، الحياة مدرسة مفتوحة، ما ان تلتحق بها في اي يوم من عمرك، حتى تجد نفسك مستمرا ومواظبا على التعلم، وما دمت حيا وجادا، ستتعلم كل يوم درسا جديدا، قد تنسى الدرس القديم، ولكن مع ذلك تبقى فوائده موجودة في الدرس الجديد، وهكذا تتابع تعليمك درسا يتلوه درس، دون هوادة.. حتى الدرس الأخير.. الموت، فإذا لم تستوعب الدروس السابقة، ستجد نفسك أمام فراغ هائل وهوة سحيقة.. قد لا تتيح لك سنوات عمرك، خارج أسوار هذه المدرسة، إلا فرص قليلة، ومتناثرة، لتتعلم النزر الضئيل.. لماذا.. كانت تسأل وتجيب. لأن الأنسان يصيبه التراخي، ويركن للخمول، كما أن طول الأمل يرديه في متاهات الغفلة، ولن يدرك أنه ملاحق بعدو لا يتركه ولا يغفل عنه لحظة واحدة ليلتقط أنفاسه، يظل في لهاث محموم لا ينتهي، وفي النهاية يدفعه دفعا نحو نهايته المحتومة، مهما تشبثت رجليه في الأرض، أو ساخت أقدامه في عمقها، فأن دفعة واحدة كفيله ان ترديه الى القبر..

الموت الذي استحوذ على تفكيري، كنت أفلسفه لأخفف من وطأته على نفسي، أفكر ان غياب انسان عن ناظريك هو موت مؤقت، وأنت عندما تغمض عينيك يموت العالم من حولك، وفي النوم نموت أيضا، ليس بمعنى انطفاء الإحساس والشعور، وخمود الحركة والتوقف عن التفكير، لا.. وانما لأن النائم يقصيه النوم عن تيار الحياة المتدفق، فشعاع الشمس لا يغمره، والهواء لا يداعب وجهه أو يحرك ثيابه، وضوء القمر ونبضات النجوم المتلألئة في الليل، لا تثير انتباهه.

وكما أن المخاض يسبق الولادة، فكذلك الاحتضار يمهد الطريق للعبور، لأولئك الذين يموتون حتف انفهم، نتيجة المرض او الشيخوخة، كانت امي تريد ان تستقبل الموت بالأحضان، كما نستقبل نحن حبيبا غاب عنا طويلا، كانت كلما شعرت بدنو اجلها، او بعد صحوة غيبوبة غشتها، تحاول ان تنهض من الفراش، ترفع نفسها على يديها، لتقوم، ولكن المجهود الذي تبذله يحبط محاولتها، شعرت انها لا تريد ان تموت مستلقية على ظهرها، كشجرة طرحتها ارضا ريح عاصفة، تخيلتها

فاتحة ذراعيها كشـراع لتحتضـن الموت وتبحر معه الى عالمه المكتنف بالضـباب والظلام..

تخيلتها تموت كشـمعة تنطفي بهزة خفيفة، دون نفخة هواء ضـعيفة حتى.. وهذا ما حدث فعلا..

لك الحمد أيها الاله الرحيم، لك الحمد لأنك في لمح البصـــر مســـحت كل آلامها مرة واحدة..

في ليلتها الأخيرة، احضرت لها عند العشاء، صحن الرمان الذي كانت تشتهيه، وضـعته على منضـدة صـغيرة امامها، وكنت اريد ان آخذ واحدة لأقطعها بسـكين الفاكهة، ولكنها سـبقتني، وبيد ثابتة امسـكت السـكين وقطعت الرمانة الى نصـفين متســـاويين، قمت انا بعد ذلك بتفريطها الى حبات، واكلتْ واكلنا معها.. ونحن نضحك، كانت تمزح مع سيناء وهي تلتهم حبات الرمان بشهية:

- من بين كل أنواع الفاكهة أفضـــل الرمان، واحببت كل الناس، ولكن حب ابني نوح شيء آخر..

وعندما استفسرت سيناء عن المقصود بالشيء الاخر، شرحت لها الفكرة، فهمت انها تعني حبا غير مشـروط. وبنفس الروح الطيبة والنوايا الصـادقة أحبت سـيناء أمي، فتاقت في ساعة الوداع الأخيرة، ان تسألها عن مكانتها في قلب المرأة الكبير

- -احبك.. انت ونوح بمنزلة واحدة قي قلبي.
- بعد هذه الكلمات الأخيرة التي عبرت بها عن حبها النقي لســـيناء، لم تقو على الكلام، بقيت صـامته تحملق بسـقف الغرفة، وكأنها ترى من خلالها السماء المرصعة بالنجوم وليلها المكتنف بالغموض والأسرار.

وقبيل الفجر غابت عن الوعي، وكانت ســـيناء طوال ســـاعات الليل راكعة عند السـرير، تقرأ سـورة ياسـين بنبرة حزينة، تخنقها العبرات، وكان العم سـبتي وانا نقف عند قدميها، ومن نافذة الغرفة المطلة على الحديقة الخلفية، لاح ضـوء الفجر، اكتســـحت خيوطة الناعمة عتمة آخر الليل، وانزاحت ببطء دكنة قمم الأشـــجار المنتصبة وراء سياج البيت.

لفظت أنفاسها الأخيرة في بيت غريب، بعيداً عن الناس الذين احبتهم وأحبوها، وعن البيت الذي حمل أسمها، بيت أم نوح القديم، وعن البلدة التي ولدت وترعرعت فيها، وواكبت نموها حتى أصبحت مدينة من مدن الجنوب العامرة بالحياة. تركت في قلبي جمرة لن تنطفئ أبداً، كنا نحن الثلاثة فقط؛ الشهود الأحياء على وفاة أمرأه من جيل من النساء؛ اغدقت عليهن الحياة كل ما تختزن من قسوة وعذاب، وربما ستضيف الى الجيل الذي بعده مآس جديدة من هذه الحرب الدائرة الآن..

توفيت أمي في الشتاء، أقبل تلك السنة مبكراً، بغيوم رمادية ورذاذ مطر وموجة برد قارس، وحل اول عيد أضحى في أيام الحرب، كانت ضحاياه تلك السنة اروحا بشرية تذبح كل يوم في جبهات القتال، الممتدة من الجبل مرورا بالسهل وإنتهاءً بالبحر، ومن الأرض الى السماء، ومع استمرار الحرب، كان عمود الحزن الاسود، يرتفع مثل جبل عال يوما بعد يوم، فانتشرت اللافتات القماشية السوداء، في كل المدن، على جدران المنازل والأسواق، والكنائس، والمساجد والحسينات، وستغطي مع استمرار الحرب، كل مكان تقع عليه العين، تعلق كرايات تعلن انتصار الموت بجدارة على الحياة..

الموت حقيقة ساحقة أكثر التصاقا بالإنسان من الحياة نفسها، اما فاجعته فإنها تتوارى وراء جبل هائل الارتفاع من الحزن، لا يعلم الا الله متى بدأت اول صخرة ترتفع فيه عن الأرض وتشهق في السماء.

قمنا بتشييعها الى مثواها الأخير، لترقد بوادي السلام، استبدلت سيناء ثياب الفرح بالحداد، حزنت عليها كما تحزن أي بنت على أمها.. وبكت أيضا عند وداعي، وبكى الحاج متأثرا حزينا على ابنته التي انقلب فرحها الى حزن، ودعتهما بابتسامة حزينة، لأعود لمدينتي، لكي أقيم مأتم العزاء، وعدتها بالعودة بدون تأخير، وقلت سأتصل بك من هناك..

شعرت بالقهر وبانسحاق مميت، وبرغبة عارمة للبكاء، عندما قلت كلمة هناك.. ارحمني يا إلهي. فانت تعلم كم تعذبت ونزفت نفسي، في جحيم المسافات.

الفصل الثامن

عدت في ظهيرة يوم بارد، كان صحوا، وشمسه تسطع بقوة في السماء، تبعث الدفء في اوصالي، والأسى بنفسي المكتئبة، كلما التفت يمينا بين الفينة والاخرى، لأرى مكانها خاليا يغمره الضوء، يعتصر قلبي الألم، اخاطب نفسي: هناك يا نوح بعيدا في صحراء مقفرة قاحلة، ليس فيها أفياء غير ظلال شواهد القبور، وليس فيها شجر ولا نهر سوى بحر من الرمال. هناك في وادي السلام، تركتها ترقد الى يوم الدينونة، كيف طاوعتك نفسك ان ترجع بدونها..

كنت ارفع يدي بلا وعي مني، كلما مرت سيارة بالاتجاه المعاكس، تحمل على سطحها المعدني (الذي يبرق تحت الشمس) نعشا ملفوفا بالعلم العراقي، احصيت ثلاثة، أربعة.. بعد ذلك طوحتني دوامة افكاري وهواجسي بعيدا، كأني كنت أعرج في سماوات عجيبة ورائعة، لم تصفها أي من كتب الاناجيل الأربعة، او التوراة العبرية، ولا حتى جاء ذكرها في القرآن العربي، سماوات بيضاء، أنصع من القطن النظيف، بعد قطفه مباشرة من شجيراته في الحقل..

كانت أصوات الآلات الموسيقية المتنوعة، تصدح بمقطوعات لم اسمعها من قبل، ليست من تأليف أحد من عباقرة الموسيقين العالميين، هل كانت الملائكة تتخذ اماكنها في قاعة أوركسترا كبيرة، وثمة ملاك عظيم يقف امامهم، يقوم بدور القائد، المايسترو.. كان بيني وبينهم شلال ضوئي كالبلور الصافي، أرى من خلاله الجوق الملائكي، الكورال وقائده بكل التفاصيل الدقيقة، الملابس الآلات، وعصا القائد التي كانت تلمع كالبرق في السماء.. لم اصحو من حلمي حتى نبهني بوق احدى السيارات التي حذرتني من الاقتراب منها، تخيلت انه بوق يوم البعث؛ الذي يقيم الموتى من قبورهم الدارسة..

في أمسية اليوم الذي وصلت، كنت في مأتم عزاء على روح شاب ميساني سقط في الجبهة الشرقية، هو ابن أم حنون، المرأة التي أطلقت عليها قديما، الرقم الصعب في المعادلة الجنوبية، لأنني لم استطع اقناعها آنذاك، ان استبدال اسم بأخر مسألة عادية، تحدث كل يوم تقريبا، هذه المرأة التي لا زلت عندما اغمض عيني، لأستعيد ذكريات الطفولة، أرى قامتها الفارعة منتصبة كالرمح، أمام تنورها الملتهب بالنار، والوهج يلفح وجهها الأسمر، فيزيده دكنة، اقرب للسواد، تخبز كل يوم عددا لا يستهان به من الارغفة، كنت اشتهي كسرة خبز أكسر بها جوعي، حين ارى الارغفة يتصاعد منها البخار، تتساقط من يدها بخفة لطبق على الأرض، يسيل لعابي، ترحب بي باسمة، ترمي لي رغيفا ساخنا، ارقصه بيدي حتي يبرد قليلا، ثم التهمه بشهية، صنعت هذه المرأة شابا ناجحا، من بيع الخبز في السوق، تخرج حنون من الكلية العسكرية، الدورة 83 / العام 1980 ضابطا، برتبة ملازم ثان، في السنة التي اندلعت فيها الحرب..

حين سمعت مصابها بإبنها الوحيد، تألمت كثيرا.. كنت اردد مع نفسي، وأنا في طريقي لمأتمه، هاتين الكلمتين: خسارة فادحة..

فعندما يختطف الموت الأبن الوحيد، لامرأة بفقر وبؤس وشقاء وكدح ام حنون.. فتلك يا عالم خسارة فادحة..

كان المعزون كالعادة منهمكين بأحاديث، لا علاقة لها بالفقيد، يتحدثون عن هموم ومشاكل تخصهم وحدهم، تساءلت اليس الاجدر بهم، والاجدى في ظروف

كهذه رثاءه، بكلمة يترجلها احد اصـــدقاءه المقربين، او واحد من افراد اســـرته ، يذكر فيها شيء عن سيرة حياة الفقيد، استذكار سيثير الشجن في النفوس، اما وان المأتم قد خلا من ذلك كله، فما الجدوى منه إذاً، هذا الشـيء اثار الأسى في نفسـي.. نـاهيك عن عدم الإنصـــات لتلاوة القرآن، او انـهم يعتبرونـها كما يبدو اطـار ديني للوحة حزن كئيبة، وأن المأتم مناســـبة للاجتماع، وتجاذب أطراف الحديث، كما هو الحال الآن، حيث يجري الحديث بين شخصين يجلسان بجانبي، يسأل إحدهما الآخر عمـا إذا تـأخر ترفيعـه الوظيفي، ثم يتحول الى توزيع الأراضـــي على الموظفين، يبدأ بسـؤال، ماذا عن قطعة الأرض، هل تفكر في بيعها، عندي لك من يشتريها بثمن جيد.

قلت في نفسي، تلك التي حصل عليها بالقرعة، من الجمعية التعاونية للموظفين، قبل الحرب بثلاث سـنوات، وبثمن رمزي.. لا.. أفكر ان ابنيها.. هل تعرف مقاول جيد.. لا تشغل بالك، سأتدبر لك الامر.. سأبني بيتا من طابقين.. فكرة جيدة.. طبعا يجب ان نفكر بالمستقبل.. العائلة تكبر.. صحيح الأولاد سيتزوجون وتزداد العائلة افرادا جدد، يحتاجون لغرف اضـــافية.. أنا يا صـــديقي عندي ابني ســيلتحق العام القادم بالجامعة... ما شاء الله.. نأمل ان تنتهي الحرب قريبا.. إن شاء الله.. اسمعت عن حرب كرة القدم، او ما تسمى بحرب المائة ساعة بين السلفادور وهندوراس.. لا، هذه أقصـــر من حرب الأيام الســـتة بيومين.. نعم أقصـــر حرب في التاريخ الحديث.. نتمنى ان تنتهي حربنـا مع ايران بـأســـرع وقت..لا اعتقد، الإيرانيون متعنتون جدا، والعناد فيهم صفة متأصلة.. احقاد قديمة ياصديقي.

قلت في نفسـي اخطـاء متبادلة. لأنهما يخافان من التخلص من عقدة الماضـي، لذا يخوضان الحرب على خلفية تاريخية عفي عليها الزمن.

تواصلوا في تجاذب أطراف الحديث بينهما.

سيرضـخون اخيرا للأمر الواقع، الجيش الإيراني ضـعيف ومفكك، بعد هروب معظم جنرالات الشـاه الكبار الى الخارج وهذا ما اغرى الرئيس على الهجوم عليه الآن.. ولكنهم بدأوا يجندون المتطوعين، ويزجون الأطفال للقتال.. لن ينفعهم ذلك

عندهم أزمات داخلية متفاقمة.. وأيضا ازمة الرهائن الأمريكيين.. أتوقع ان الحرب لن تستمر أكثر من سنة.

انتقل الحديث الى موضـــوع آخر، لينتهي بالكلام عن شـــخص ثالث، غائب، لم يذكرا اسمه، اشارا اليه بـــ هو.. هو لا يهمه سوى الوصول لمصلحته الشخصية النفعية، وبأي ثمن او وسيلة.. ولن يتهاون ابدا على كسر رقاب الآخرين.. صراحة هذا هو واقعنا..

قلت في نفسي، واقع مؤلم، قاس، غير إنساني، وشاذ وبائس.

واصـــلوا الحديث. امثاله كثيرون في مجتمعنا.. فرد عليه الآخر.. وكما يقال، البقاء للأصلح.. للأقوى.

تدخلت عند هذه النقطة من الحديث من باب المشاركة في النقاش.

- عفواً.. البقـاء للأصـــلح، تعني ان تتكيف أنواع معينـة من الاحيـاء مع تغيرات البيئة الطبيعية، وهي فرضـية بيولوجية جاء بها دارون في سياق نظرية النشوء والارتقاء..

نظر الي الرجل الذي يجلس بجانبي شـزرا، كأني قلت شيئا سخيفا، قطع عليهما استرسـالهما في الحديث. لم اقل شيئا، لأنهما لزما الصـمت لبضـعة دقائق، ثم قاما وخرجا دون كلمة وداع، حتى وإن تكن من اجل المجاملة فقط.. لمت نفســـي على التدخل في حديث لا يعنيني، ومع أناس غرباء..

انتهى المأتم على روح الضـابط حنون، نسيت اسم ابيه، كما ينتهي في كل يوم، مـآتم آخر جديد، في جميع ارجاء البلاد، وفي أمكـان آخرى في العالم، دون أن يتغير شيء في لعبة الحياة والموت.

ولكن البلاء بوجود أمثال سـليم الخماش وغيره من الأشـرار، في حياتنا، أعظم من مصـــيبة الموت، وجودهم شـــيء مفزع، لأنهم يتسـلون بالحاق الأذى بالناس.. خاصـة أولئك الذين ليست لديهم اشواك حادة.. تساءلت مع نفسي، لماذا لم يخلق الله او الطبيعة لهؤلاء الضـعفاء من البشـر (الذين بلا حول ولا قوة) دروع او تروس تحميهم عند الحاجة، وتصد عنهم غدر الاقوياء، كما لدى بعض الاحياء..

انا لســت بصــدد حكم أخلاقي، في موضـــوع حســاس كهذا، ومثير للجدل اوالاجتهاد.. ولكن قررت مع نفسي، على ضوء ما رأيت وسمعت الليلة، ولمرات عديدة لا تحصى، أن اصرف النظر عن إقامة مأتم لوالدتي، كهذا التي يطلق عليها جزافا كلمة مآتم، عزاء، او تأبين..

وحينما يسـألني الشـيخ حامد الموحان، عن سـبب هذا التحول والاعراض، عن تقاليد توارثناها منذ اجيال عديدة.. ســأصــارحه برأيي، ســأقول له: "بأن العزاء سيقتصـر على النسوة فقط، وفي بيت صديقتها أم سعيد.. وسأطلب منه ايضا ألا ينعى والـدتي للنـاس، لأني ســأجلس في بيتي، أرثي أمي أمـام نفر قليـل من الأصدقاء..

هذا ما وطدت العزم عليه، لقد كرهت أن يتسـرب الزيف في اصـدق مشـاعر الانســان.. في حزنـه بمن يحب، وكرهت كذلك ســمـاع ثرثرة المعزين، ودخان السـجائر، وإرتشـاف القهوة المرة بفناجين تدور على المعزين، عادة غير صـحية، ومدعاة للقلق، وقد تكون سببا لانتقال الامراض من شخص لآخر..

ولما كان لميســان ارث حضـــاري يمتد آلاف الســنين، وطابع جنوبي فريد، وخصـوصـية ذات ملامح سـومرية اصـيلة، وجذور ضـاربة في أعماق الأرض، ارتحت لهذا القرار، فأمام فاجعة الموت، يجب أن يغدق الانسان حزنـه بسخاء، كما غدقته عشـتار على الإله تموز، لا ان يتخلص منه بأسـرع وقت، سـأرى خالتي أم سعيد، سنفتح كتاب المراثي القديم جدا، قدم مسوبوتيميا، سنبدأ من اول فصل، ولن نتوقف حتى تفيض العيون بالدموع الغزيرة.

عانقني الشيخ بحرارة عند باب الجامع، فبينت له ما انطوت نفسـي عليه؛ بشـأن تأبين الوالدة، تفهمني بأريحية، لكنني شـعرت أنه يخفي في نفســه شــيء من القلق والحيرة، حيال افكاري الغريبة هذه..

- سأحضر مساء غد لبيتك.
- سأكون بانتظارك هناك.
- سـأجمع من المحسـنين شـيئا من النقود، للمرأة العجوز أم حنون لتسـتعين بها..

- حسنا تفعل يا شيخ، مساعدتها أفضل من التخافت بعد قراءة الفاتحة، بالأحاديث، التي أن لم نقل ان فيها بعض الغيبة، فإن الانشغال بالثرثرة الفارغة، عن الانصات لتلاوة القرآن، وعدم الاستجابة للأمر الإلهي.. فيه اثم يا شيخ.

مرت برهة صمت قصيرة، كافية لأمد يدي لمحفظتي، اخرجتها من جيبي، تبرعت بالدنانير التي كانت مخصصة لمأتم المرحومة، سلمتها للشيخ، وانا اشعر براحة عظيمة، كأني تخلصت من مشكلة عويصة، او خرجت توا من حمام شرقي مليئ بالبخار في ليلة قارصة البرد.

- اعطها من فضلك يا شيخ لام حنون، فهي بحاجة أكثر اليها، في مثل هذه الظروف القاسية..

اجتمع الأصدقاء في بيتي، حضر الشيخ والدكتور هلال والقاضي عبد الهادي وابنه المحامي حسن، وشخص آخر غريب ملثم، جلس متنحيا عند الباب، أثارت هيأته الريبة في النفوس، قام صديقي حسن، قدم القهوة للجميع وعندما وصل اليه اومأ بيده ايماءه الرفض، رثيت أمي امامهم، بكل ما حملت نفسي من اسى، حكيت لهم باختصار عن شجاعتها وصبرها العجيب، ومعانتها في ايامها الأخيرة، عن حكمتها وطيبتها، عن ذكريات طفولتي معها، عن الحب الذي غمرتني به، وفاض على كل من كان حولها، تمنيت تلك اللحظة، لو كنت شاعرا لرثيتها بقصيدة تخلد اسمها، تأثر الجميع بكلامي فقد كان حقا نابعا من القلب، كانت صورتها معلقة على الجدار محاطة بشريط اسود، كنت بين الفينة والأخرى ارفع رأسي وانظر اليها، فجأة أنتحب الرجل الملثم وتعالى نشيجه، كنا الدكتور هلال وأنا نرتشف القهوة المرة على مهل، غارقين في أفكارنا، نتفرس بالسجادة القديمة ذات اللون الأحمر الناصل.. أخبرني تلك اللحظة، بأنه سيلتحق بعد غد بالجبهة، في وحدة طبية ترابط وراء الخطوط الأمامية، في القاطع الجنوبي، منطقة الفكة..

تذكرنا الرحلات المدرسية الربيعية للمنطقة، التي تدور فيها الآن معارك شرسة..

اندهش عندما سألته عن العراف المندائي، في مثل هذه الظروف الحزينة، ولكنه مع ذلك أجاب مبتسما.

- هل لا زلت تفكر به يا نوح.. نظم نبوءته شعرا، وعدني بترجمتها من السريانية الى العربية، إذا عثر على القصيدة بين أوراق والده.
- ومتى سأراك ثانية.
- لدي يوم واحد قبل إلتحاقي بالجبهة، فإذا لم يشغلني شيء فسوف أراك غدا قبالة المركب الغرقان..
- سنلتقي هناك.

قلت في نفسي.. هذا المكان المحبب لنا، كان يدعوني لمشاهدة طقوسهم الدينية؛ كمراسيم الزواج على شاطئ الكحلاء المواجه لمنازلهم..

ودعني الدكتور وخرج، ثم القاضي وابنه المحامي حسن، وعدت القاضي بزيارته قبل عودتي الى بغداد، لم يبق سوى الشيخ والرجل الغريب، قمت اليه، قدمت له القهوة، اخذها مني، جلست جنبه، فأماط لثامه، فإذا انا وجها لوجه امام سعيد.. الرجل الذي كان يثير الريبة قبل قليل، والذي توجست أنه أحد رجال سليم الخماش، دسه بينا للتجسس، راح سعيد بعد أن اطمأن، يرتشف قهوته على مهل، دون ان يتكلم، قام الشيخ وأنضم الينا وعانق ابن عمته بحرارة، وصب لي وله فنجاني قهوة، جلس معنا، نظر لفنجانه بعد أن ارتشفه دفعة واحدة.

- سيبقيني هذا الفنجان الاخير صاحيا هذه الليلة.

قام الشيخ وطوى طرف السجادة القريبة من الباب، علامة على خاتمة الأحزان، وعاد لمكانه، شعر سعيد بالأمان عندما انصرف الجميع وراح يحدثنا عن معاناته اثناء البحث عن ملاذ آمن طوال فترة غيابه..

وعندما سألته ماذا ستفعل:

- سأقتل سليم الخماش انتقاما لأخي وزوجته.. ثم بكى.
- كانت المرحومة أمي أيضا، ولن أنسى ما فعلته لنا..

وعندما قام ليودعنا عند الباب، دس بيدي ورقة، توارى في حلكة الليل.

قصــدنا الشــيخ وأنا بيت الخالة أم ســعيد، فاســتقبلتني مولولة باكية،احتضــنتني وقبلتني، بللت دموعها وجنتي.

أعرف أن سعيد جاء لمواساتك.. تساءلت متعجبا، كيف علمت.. قلب الأم يعلم يا نوح.. يقول انه لن ينسى ماحدث لأخيه ولهيلا، وأنه سينتقم من سليم الخماش.. وما فائدة الانتقام، انتهى كل شيء، سأذهب معك في أربعينية المرحومة لزيارة قبرها، وبعد ذلك الى إيران أبحث عن هيلا وأمها.. سفرك ياخالتي الى إيران ليس سهلا، فالحدود مشتعلة، ولكن سأتدبر الامر.

توقعت قد تسألتني عن إبنها مقبل، فإني سأقول لها، سأعرف اين يحتجزوه.

توسلت بي أن أجد لها طريقا الى إيران..

شــعرت أن هذه المرأة لم تعد قوية كما كانت من قبل، وأنها لن تحتمل مزيدا من العذاب، فقد انهار كل شيء أمام عينيها. وطاف بخاطري انكسارها عندما اعتذرت عن اخذها معنا، عندما ذهبنا الى بغداد اول مرة لعلاج أمي..

- فقدتُ أمك، وأحد أبنائي محبوس والآخر مطارد، وهيلا لا أدري ما حل بها. لا تتخلى عني يا نوح، لم يعد لي أحد غيرك.. اريد ان أرى ابن مقبل، فهل ستساعدني؟

تنهدت عميقا.

- اعدك سأفعل..

قبلت يدها ودلفت للغرفة المعدة لنومي. فأومأت بيدها

- -سينام عندنا الشيخ هذه الليلة في الصالة.

ســمعنا طرقا على الباب، تفاجأنا بالمدعوة عمتي وزوجها عند الباب، قالت انها ذهبت اولا لبيتنا، وعندما لم تجدني هناك، ســألت الجيران عني، فدلوها على بيت أم ســعيد، لأنهم رأوني ادخل لبيت الخالة. رحبت بهم، ولأنهم قدموا من بغداد، ومتعبين من السـفر، قالت الخالة سـتنام عمتك معي، وأنت وزوجها سـتنامان في غرفة سعيد.

كدت ابوح لأم سـعيد عن السـر الذي لا تعرفه عن ابي الكيال، وأن هذه المرأة المدعوة عمتي لا تمت لي بصـلة القرابة البته، كل ما في الامر هي اخت فرحان عبد الله، الذي حملت اسمه بإعتباره ابي. ولم يكن سوى زوج المرحومة.

دخلت الغرفة لأنام، وجدت المخبر زوج المدعوة عمتي، يغط في النوم، يشخر بصوت عال، جلست على حافة السرير، أقرا رسالة سعيد.

'' كان التوديون يريدون أن يتفادوا الضـربة القوية التي أطاحت بالشـيوعيين العراقيين، فحاولوا بجرأة تثير الدهشة، استباق الأحداث، للاستيلاء على الحكم في إيران، في الأول من إيار، ولكنهم للأسف فشلوا، فصعد التيار الديني، ونكل بهم بقسوة، واستفرد بالسلطة، ولو انهم (أي التوديين) نجحوا لما كانت هناك حرب، الحرب كانت نتيجة لصـعود التيار الديني في ايران من جهة، وانقلاب القصـر وتبديل القيادة في بغداد، من الجهة الأخرى، ولذلك لم أسـتطع الهروب الى الاتحاد السـوفيتي بدون مساعدة حزب توده، لذا عدت للعراق، سأحاول التسلل الى هور الحويزة، سـيكون ملاذا للجنود الهاربين من المحرقة، أما هدفي الآن فهو الانتقام لأخي وزوجته.. بلغ تحياتي لأمي..،،

سعيد

لم أسـتطع النوم بعد قراءتي للرسـالة، لقد أثارت قلقي، خاصـة وانني أشـارك حجرة النوم مع الرجل المخبر، المدعو زوج زوج عمتي..

كان شـخير الرجل مزعجا جدا لا يطاق، شـعرت ان هذه الكتلة من اللحم المتورم، تشفط هواء الغرفة بطريقة جشعة، تملأها شـهيقا وزفيرا وصـفيرا، هذا المخلوق البائس، المسخ، الذي يغدر بالناس، يكتب تقارير ضـدهم، ولا يتورع أن يشـي حتى بأقربائه، لذا كنت أتحاشـاه دائما، ولا أحبه، حتى قبل ان اعرف ان زوجته لا تمت لي بصـلة، على كل حال كنت أتجنب هذا الرجل عندما تجمعنا الصدف، أحترس وأحذر عند الحديث معه.

خرجت من الحجرة للبحث عن علبة كبريت في المطبخ، لأحرق رسـالة سـعيد، تفاجأت بالشيخ جالسا في ظلمة الصالة، يتمتم بكلام لم أستطع ان افهمه..

- ماذا تفعل، ولماذا أنت جالس في الظلام.

- الخلوة مع الله، يا نوح خير وسيلة للخلاص، اناجيه، اقرا الأدعية المجربة، اتضرع اليه لكشف الغمة عن هذه الأمة، ابتهل اليه يا نوح.

جلست أستمع لأدعيته، فتلا عليَّ بعضا منها، قرأ في كتاب صغير الحجم غلافه اسود سميك، دعاء المشلول ودعاء الفرج ودعاء الغريق، حتى أشرف الوقت على طلوع الفجر، فقام الشيخ للوضوء والصلاة.. دخلت أم سعيد، وكان لا يزال متوركا، يرفع يديه عاليا بالدعاء، عقب انتهاءه من صلاته. ختمها بهذا الدعاء، ''اللهم إنّا نعوذ بك من شر سلطان سوء، وقرين سوء، ويوم سوء، وساعة سوء..''

قطع استرساله دخول أم سعيد، انزل يديه، ارخاهما على ركبتيه، اخبرتنا الخالة.

- الجماعة يريدون العودة مبكرا الى بغداد، سأعد الريوق ، تعالوا نتريق ونودعهم، خرجت الخالة، فهمستُ في أذن الشيخ:
- أحذر الرجل، فهو مخبر...

تتمتم ثم رفع صوته:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله علينا.

بعد ان انتهوا من شرب الشاي، قام المخبر ليخرج حقائب السفر، وأبدت زوجته رغبتها بأن آخذها معي لزيارة قبر المرحومة في اربعينيتها.

بقيت مع أم سعيد أواجه قرارا صعبا، ولكني حزمت أمري أخيرا، وقررت ان أساعدها في البحث عن هيلا، تلهفت هي لمعرفة ذلك، فطمأنتها، وأكدت لها أني لن أتركها لوحدها مهما كلف الأمر.

- انت تحتاجين لرجل يقف بجانبك وأنا أحتاج لإمراه بمثل شجاعتك وحكمتك ياخاله..

عانقتني وقبلتني، شرحت لها خطة الهرب.

بعد زيارة قبر المرحومة، سنذهب لمدينة السليمانية بالتحديد، سنجد المهرب الذي يسهل لنا طريق الهروب الى إيران، وهم أدرى بالطرق الآمنة، الفرصة

مواتية الآن، فالقتال لم يحتدم بعد في الجبهة الشـمالية، وبإمكاننا عبور الحدود من إحدى الثغرات التي ينشط فيها المهربون..

لم تقل شيئا، دلفت لغرفتها، وبعد دقائق خرجت وبيدها صرة وضعتها في يدي.. ما هذه يا خاله..هذه نقود، كانت هيلا قد وفرتها للمولود، لجهازه.. وأضـــافت متحسـرة، لو انهم تركوها هنا، حتى تلد، لكان عمر طفلها الآن ثلاثة أشـهر، مدت يدها، وهذه أقراط ذهبية لزوجتك، لم تقل لي ما اسمها..

خنقتني العبرات.

احتفظي بهذه النقود لحفيدك يا خالتي.. نوح ما أسـم زوجتك، أهي جميلة، بنت من.. أسمها سيناء، بنت الحاج سبتي، نعم جميلة، لم نتزوج بعد، مجرد عقد قران.. كانت امنية المرحومة ان تعيش حتى ترى أحفادها..

وبينما كنت ارد على إسألتها فكرت بما قالته قبل قليل عن هيلا ' لو أنهم تركوها هنا ' تقصـد طبعا، تركوها في بيتها، الوطن، الأمان، الحب والحياة، كل ما كانت تتمناه لحفيدها وأمه، وهل معنى التهجير هناك لإيران، إلا الغربة والخوف والموت..

ولكن الوطن.. مكان العيش والفرح، أنقلب قبو تعذيب.. تداخل الوطن بالمنفى، والموت بالحياة، ولم يعد التفريق بينهما ممكنا..

أخبرني سـعيد عند حضـوره المأتم، أن هيلا ولدت صـبيا، في مخيم اللاجئين بمدينة جهرم محافظة عيلام، كان وقع الخبر مؤلما في نفسـي، فمجيء صـبي لمقبل، كان سيفرح أم سـعيد، لو حدث ذلك في ظروف عادية، فكرت أن اخبرها، ولكنني لم افعل، لأن ذلك سيضاعف حزنها، سيعذبها ويقتلها. كتمت الخبر، علمت منه ان الطفل وأمه وجدته، يعيشـون الآن في قبو أحد البيوت القديمة، القريبة من محيط ضـريح السيدة معصـومة في قم، هذا كل ما عرفته من سـعيد ايضا عندما جلسـت معه نتحدث في بيتي قبل أن يودعنا ويختفي تحت جنح الظلام، سـأبوح به للخالة، قبل أن نشرع بالرحلة المحفوفة بالمخاطر الى إيران..

دعتني الخالة للمبيت في بيتها حتى يحين موعد السـفر، المغامرة المحفوفة بالمخاطر..

- نم في غرفة مقبل وهيلا فهي مريحة أكثر.

قضيت نهار ذاك اليوم هائما في حواري المدينة وأزقتها، كأني أبحث عن شيء مفقود، عن آثار أقدامي التي طمستها السنين وغبار الأزقة.. كنت أينما نظرت، فثمة أكف أنهار مبسوطة بالخير، ندية بالعطاء والمياه..

قبل هبوط الليل، اتجهت صوب النهر، أنتظر مجيء صديقي هلال..

لم يأت، عذرته حتى دون معرفة السبب، فالحرب قد ألغت جميع المواعيد، صارت لها الأولوية، لابد ان شيئا طارئا منعه من المجيء، أعرف دقة مواعيده كطبيب، أرسلت نظرات تائهة الى المياه الجارية، أو الياردن كما يسميها المندائيين، وهي تنساب وتنفلج عند نقطة غير مرئية، قديما أغرق الأتراك مركبا بخاريا في هذا الجزء من النهر، في محاولة فاشلة ليعيدوا التوازن المفقود، لمياه الدجلة، وقيل إن الإنكليز هم الذين أغرقوا المركب، لأنه كان محملا بذخيرة حربية للجيش التركي المتجحفل في مدينة العمارة..

وهناك ليس بعيدا، على الجبهة الشرقية، الاطول إمتدادا، تدور الأن وفي هذه اللحظة،معارك أكثر دموية وعنفا، كم يا ترى سيصل عدد الجنود الذين سيسقطون مضرجين بدمائهم، بينما أقف هنا انتظر صديقي الدكتورهلال..

رحت أخاطب نفسي.. هل انا لا ازال تحت تأثير النبوءة، هل استحوذت على عقلي، ورسمت مخيلتي هذه الصورة الوهمية.. لماذا أرى مياه النهر اصطبغت بحمرة الدم، اصحيح ان الطبيعة أحيانا تواسي الأنسان وتشاركه أحزانه، أو تناصبه العداء.. كم مرة شعرت أن الرذاذ الخفيف، يتحول الى أحجار قاسية، تطرق راسي بقوة فتؤذيني.. لكن الطبيعة في الحقيقة محايدة، لا تكترث بأ فراح أو أتراح الناس، قد تبعث أحيانا رسائل مشفرة، ينبغي فك ألغازها، هل الاندماج بين مشاعر الأنسان والطبيعة، يصل في بعض الحالات حد التماهي، وهل اصطبغت السماء فعلا بالدم عندما قتل الأمام الحسين.. هممت بالقيام بعد ان يئست من مجيء صديقي الدكتور، وقبل أن أنهض من مكاني، شعرت بيد حانية حطت على كتفي، رفعت رأسي، كان عمود النور القريب، يكاد ضوؤه يبدد شيئا من عتمة المساء، رأيت شيخا مندائيا، يتسربل بالضوء الخافت، بينما يلف الظلام المكان، جاء

ليواسيني، ويمسح بابتسامته الوضيئة، جبلا من الحزن الذي جثم على صدري، كنت قبل مجيئه أشعر بأن حياتي أصبحت صورة مشوهة لموت مؤجل..

رفعت رأسي اليه، قال بصوت ملائكي:

- قم يا بني، وأذهب لبيتك، لن يأتي صاحبك الذي تنتظره، ولكن سيأتي في المرة القادمة..

واختفى كما جاء خيالا خفيفا، بين الظلال الداكنة لأشجار اليوكاليبتوس، تلك الأشجار الباسقة التي شاهدتها يافعا، أول مرة في حديقة مرسى القوة النهرية. وعندما اختفى ترك وراءه خيطا نورانيا، كدت أن ألمسه بيدي، وهو ينسحب ويتوارى في عتمة الليل، تركني غارقا في ظلام تساؤلاتي المحيرة، ولكنه حررني من قيودي الارضية.

شعرت أن روحي تسمو تلك اللحظة في معراج سماوي، أشفقت على نفسي من العبء الثقيل، الذي يشدني للأسفل، بينما روحي تتلهف للصعود عاليا.. سألت نفسي: أين بيتي الآن.. لم يعد لي بيت منذ رحيل أمي عن هذا العالم، النهر الذي احببته دائم الصيرورة، في حالة زوده وصيهوده، وأشجار اليوكاليبتوس الباسقة لا زالت تخفي بين أغصانها الكثيفة أعشاش العصافير، ومدرسة السلام التي كانت هنا اختفت ايضا.. الزمن كالأفعى يزحف بوتيرة ثابتة على حراشف الضجر او المفاجأة، لكنه محاط بالقسوة دوما، على مقربة من هنا، لا يزال جسر الملك فيصل منتصبا، فوق مياه نهر الكحلاء المتهادية في جريانها، حتى تنتهي بالهور الواسع، الناس والبهائم الذين يعبرون الجسر، الذي شيده الإنكليز ابان احتلالهم لمدينة العمارة، لم يفطنوا للعلم البريطاني الذي يعلو رؤوسهم، حديقة المرسى النهري، بناية البلدية القديمة ذات الطراز التركي، منازل الصابئة ذوات الطابق الواحد، وشارع بغداد الممتد عموديا بين الكحلاء ودجلة، ومركز صحي صغير وعيت عليه صغيرا، حين كنت أعاني من غثيان دائم، لمجرد رؤية الطعام، بعد ذلك تحول المركز الصحي لمخزن كتب وقرطاسية تابع لمديرية التربية.. كل هذه الأماكن القريبة من بيتنا، كانت تتشكل باتساق وتماسك في ذاكرتي الفتية، صورة غائمة، تعبق برائحة المكان المتمرد على جبروت النسيان، وتتناهى صوتا واهنا،

ينبثق خافتا من الحلم والخيال الجامح، أعطت هذه الصور لحياتي إطارا سحريا لا أزال أعيش تحت تأثيره الحميم المدهش حتى الآن.. لم تترك لي الأحداث المتلاحقة فرصـــة لالتقاط الأنفاس، ولن يكون بإمكاني بعد الآن، ان أتفســح بين مفاصـــل الزمن، كما يحلو لي من قبل، تركته ورائي، لا أســتطيع أن أكيفه أو أروضـــه، وأخضـعه لمزاجي المتقلب، لقد تمرد على الزمن.. لربما عندما أترك مدينتي، ولن أراها مرة آخرى، ربما سـأنسـى كل شـيء، لكن النهر، الذي عشـقته، حفر مجراه عميقا في ذاكرتي، لن أنساه أبدا، أستطيع ان أغمض عيني، فأتخيل أمواجه تتهادى بطيئة بين الضـفتين، وتحت الجسـر، أعد الركائز الحديدية التي ترفعه، من جهة بناية البلدية القديمة، الركيزة الأولى القريبة من الجرف الرملي، الثانية على مبعدة خمسة امتار، وهكذا الثالثة، والرابعة، فتنتصب أمامي الركيزة الخامسة، ملاذا آمنا ورائعا، اسـتراحة وجيزة، لالتقاط الأنفاس، لسـباح تخطى مرحلة التدريب، يرتاح على حديدها الأملس البارد، المغموس في المـاء، قبل عبور النهر لشــاطئ الماجدية..

مسؤوليات جسام اضطلعت بها سابقا، ولكن أيا منها لن ترقى لمهمة تهريب أم سعيد، فهي مسألة أشد صعوبة من الصعود لقمة إفرست، تساءلت:

هل تحتمل امرأة عجوز مشــاق السـفر، على دروب وعرة بجبال كردســتان الشـاهقة، وقد بدأ فصـل الشـتاء ببرده وثلوجه وامطاره، هذه المرأة الرائعة، التي قضت طفولتها وشرخا من شبابها، لا تقع عينيها سوى على صفحة المياه الساكنة، ولا تسمع اذناها في الشتاء؛ غير زعيق الطيور المهاجره من الأصقاع المتجمدة، وصـياح الخضـيري والحذاف ودجاج الماء، المتماهية مع خفقات المياه بين سـوق القصـب والبردي، وتسـتمتع حد الإنتشـاء، حين ترى رؤوس الجواميس مشـرأبة فوق مياه الهور، المزدانة في الربيع بزنابق الماء ذات البياض الثلجي، كل هذا الجمال الأسـطوري بهجة للناظرين، أي فردوس مفقود، منجمه الطبيعة السـاحرة، إضـطرت على هجرانه، لأجل العيش في بيئة حضـرية.. كيف سـتقوى على رحلة عذاب تنتظرها في أرذل العمر!

في تلك الليلة، لم تغمض عيني، جلسـت على طرف السـرير العريض، المغطى بمفرش حريري بصـــلي اللون، مطرز بورود بألوان حمر وصـــفر وبنفســجية،

ومنثورة في حاشيته بفن راق، فراشات ملونة تصل لصرته، ومشغول بخيوط البريسم وحبات خرز بيضاء شبيهة باللؤلؤ..

هذه الغرفة التي أنام فيها الليلة، مخدع الحب، لمقبل وهيلا لا تزال رائحة جسديهما تعبق في السرير، أكاد أسمع همساتهما بين لهاث الأنفاس المتلاحقة، والقبلات السريعة الملتهبة، لا توجد لحظات تتماهي فيها السعادة بالعذاب، كما هي في لحظة العوم على موجة متعة مغرقة بالموت اللذيذ، يحترق فيهما جسدان عاشقان الى درجة الذوبان ببعض..

أخذت وسادة وبطانية وانطرحت على الأرض، أنبت نفسي ولمتها، على النوم في سريرهما الخالي.

عند الفجر كنت مرهقا، فأخذتني إغفاءة لم أستطع مقاومتها، لا أدري كم مر من الوقت.. أصوات عيارات نارية، صوت مكتوم عند ارتطامه بجدران البيت، الدخان يملئ البيت، فتحت الباب قليلا، بمقدار يتيح لي رؤية ما يحدث خارجها، توقف إطلاق النار، أم سعيد تخرج من غرفتها، تصرخ بهم وتتوسل إليهم، أنها ستسلمه إليهم إذا كفوا عن إطلاق النار، رد عليها ضابط الأمن فاخر خريبط، تنحي جانبا، وصرخ بأعلى صوته، أخرج الينا وارفع يديك عاليا. أنتهز سعيد تلك الفرصة فهرب من نافذة الغرفة، وتسلق الى السطح، وأخذ يطلق النار من مسدسه، ردوا عليه برشقات من رشاشاتهم الكلاشنكوف، توقف سعيد عن الرمي، فاعتقدتُ أنه قُتل، صرخ فاخر خريبط، لقد جرح أحد رفاقنا، سنقتل الكلب حالا، وصرخ أحد العناصر، لقد قُتل الشيخ مجبل، فاجأهم سعيد ثانية من داخل المنزل، وعندما نفدت ذخيرته حاول الفرار، لكنهم حاصروه، فهبت أمه لنجدته، وقفت أمامه لتحميه، بينما كان هو يحاول دفعها ويلوح بمسدسه، أطلق أحد عناصر الأمن النار فقتلها، وقبضوا عليه جريحا.. سحلوه من رجليه خارج البيت وهم يضربونه ويركلونه حتى أثخنوه، فراح يصرخ بألم قتلتم أمي

قبل ان افز مرعوبا، كانت الستائر غير مسدله، وضوء الشمس يغمر الغرفة، ولكن ظل السرير الكبير حجبه قليلا عن عيني، نظرت حولي، لم اصدق أنني كنت أحلم، صحوت تماما، قمت فخرجت، لم يكن أحد في البيت، كنت وحدي في بيت

اشباح، كان ذاك الذي رأيته كابوسا، اشبه بالواقع الذي نعيشه بكل تفاصيله وظلاله القاتمة..

ذهبت لصالة الاستقبال، هناك عثرت على رسالة سعيد القصيرة '' أعفيك من القيام بتهريب والدتي الى إيران، سأقوم انا بالمهمة واعود لأكمل واجبي''

ربما يذكرنا الزمن البعيد بالمكان القريب، لكن الماضي غائب الآن، متوار وراء ستار النسيان.. شيء طرأ فجأة على ذاكرتي فتخيلت منزلها غارق بالدموع، وأمست دارها خالية خربة، كما تنبأت هي بتلك المأساة يوما ما، كانت تنعى بصوتها الشجي، متوقعة ما سيحدث لها، تمثلت المشهد امامها، استوحت منه كلاما تخاطب فيه الدار التي أقفرت من اهلها، فتصفها بالخائبة..

تسألها أين أهلك وماذا حل بهم..

وفجأة تذكرت زوجها الميت، الذي ترك لها طفلين احتضنتهما تحت جنحين مهيضتين، وفرت بهما للمدينة، هربا

تخاطب زوجها الميت..أدخل الدار وتفقد ابنيك، واسأل أين هما الآن ...

سمعتها يوما، تذكر ابنها سعيد، فتعبر عما يجيش في نفسها بشكل مباشر.. آه يا وتدي وقوتي.. ما أريد منك ذهبا ولا مالا، اريدك لحاجات أعظم من الذهب والمال..

متى يا أم سعيد.

حينما تكون في أرذل العمر، عندها تكون الحاجة ماسة اليه، للابن، للولد، لحبة القلب ونورالعين، ليرد النزر اليسير من الدين الذي في عنقه، ويبرهن على معدنه الأصيل.

كانت الغربة أقسى ما يرعبها ويؤلمها، فهي تشعر دائما أنها وحيدة وغريبة، بين جارات كلهن أقارب، فكيف بها إذا ما نزل بساحتها المرض وداهمتها الأوجاع، لمن ستلجأ، وعلى من تعتمد، فيتعاظم شعورها بالأسى والحزن..

ســتعود أم ســعيد، الســومرية، من رحلتها يوما ما، كما تعود الطيور المهاجرة لموطنها الأصلي، رغم تجربتها القاسية مع الخوف.. من الوقوع في شباك الصيد المنصوبة لها على أسطح مياه الهور الساكنة..

الفصل التاسع

بعد تلك الليلة المروعة التي رأيت فيها مصـــرع أم ســـعيد، كأنه حقيقة ماثلة للعيان، وليس كابوسا مرعبا، رغبت عن الإفطار الذي أعدته وتركته لي في غرفة المطبخ، خرجت عند الساعة السابعة صباحا، احث الخطى لبيتي القريب، الذي لا يبعد سوى مئة متر تقريبا، كنت مسرعا كأنني مطارد من اشباح الليلة الماضية، كنت اروم توضيب حقيبة ملابسي للسفر غدا..

وقبل ان أصل البيت، رأيت شاحنة عسكرية تدخل الزقاق، توقفتْ امام بيت من المهجرين لإيران، ترجل الســـائق ومرافقه، انزلا نعشـــا ملفوفا بالعلم العراقي، وتركاه امام الباب المغلق، وعادا للشـــاحنة وانطلقا،عندما وصـــلت انحنيت اليه، قرأت في الورقة الملصـقة بخشـب التابوت: الاسـم، الميلاد، الوحدة العسـكرية، العنوان، تاريخ ومكان الاستشهاد..

دار حديث بين بعض الشبان، اصدقاءه، تكلم واحد منهم وكان يبكي بحرقة، جاء آخر مرة بإجازة، قبل تسفيرهم.

فرد الآخر متألما، من سيخبرهم عنه.. لا أحد يعرف اين هم الآن.

حاولت تهدئة مشاعرهما الثائرة.

- الواجب علينا الآن ان نرفع نعشـــه، نشـــيعه أولا، ثم ندفنه. قال الذي كان يبكي.
- ونقيم على روحه مأتم العزاء.

رفعناه عن الأرض، وســـرنا به، من منزله الى جامع النجارين، هناك ســـجيناه في الباحة الواســـعة، وبعثت واحدا ليخبر الشـــيخ حامد، ولكنه اعتذر عن المجيء، فهمت لماذا لم يأت ليشـــترك معنا بالتشـــييع، ربما خوفا من تهمة التعاطف مع التبعية، دار نقاش سـريع بين الحاضـرين، واتفقوا على دفنه بمقبرة وادي السـلام، وإقامة مراسم التأبين على روحه مساء نفس اليوم.

عرفت الشاب عدنان منذ صغره، كان ابوه الممرض في المستشفى الجمهوري يطمح ان يدرس ابنه الطب، عندما تخرج من الثانوية، بينما كان الأبن يحب ان يلتحق بالكلية العسكرية، لكنهم رفضوه رغم لياقته البدنية، بسبب اصله الأيراني، فأنصرف للأعمال الحرة، أختار تجارة ساعات المعصم السويسرية المشهورة، أفتتح محلا لبيعها في السوق الكبير، اكثر زبائنه من الموظفين القادرين على شراء الساعات من الماركات العالمية. كان يعتني بهندامه كثيرا، وبتصفيف شعره الاسود، يفرقه من جهة اليسار، وجهه الحنطي وسيم وحليق دائما، يتحدث بلهجة ميسانية حضرية. كان كريم النفس، يبادر بالمساعدة عن طيب خاطر، ويغض الطرف عندما يلتقي في الطريق بإحدى فتيات المحلة، أحبه الناس الذين عرفوه عن قرب..

كان يزورني في مكتبي بالمصرف، عندما يأتي ليودع مبلغا في حسابه الخاص، او يسحب شيئا منه، وقد عرض عليَّ يوما ساعة باهضة الثمن، واشتريتها دون مساومة، كان لبراعته في ترويج بضاعته، ولنزاهته ايضا دور هام، في شعور زبائنه بالراحة والرضى والامتنان عند التعامل معه..

- انت ناجح في عملك رغم صغر سنك، واتوقع لك مستقبلا باهرا في التجارة. ولكن كأي شاب في عمرك، أكان لك حلم لم تستطع ان تحققه.
- كان لي حلم يا أستاذ نوح.. ولكن..

ظل عدنان صامتا، ارتسم حزن طارئ على وجهه الأسمر الحليق، تنهد بعمق.

- كنت احلم بالكلية العسكرية، وقدمنا اوراقنا، صديقي حنون وانا في نفس السنة، لم أجتز المقابلة، قبلوه ورفضوني، قالوا انني لست عراقيا.. هم على حق نحن مواطنون من الدرجة الثانية، هذا الحديث دار بيننا قبل سنة تقريبا، عندما جاء عدنان واشتريت منه ساعة المعصم، وقد ذكرته بشيء اخر فاستغرق ضاحكا، ذات يوم تشاجر حنون وعدنان، كانا آنذاك صبيان، عير أحدهما الآخر هكذا.
- يا ابن الخبازة.
- يا ابن العجمي.

صـالحتهما ومنذ ذاك الوقت صـارا صـديقين حميمين..أحبهما جدا، أحبهما جدا، توقعت للتاجر عدنان مســتقبلا ناجحا، وتمنيت للضــابط حنون، مســتقبلا مهنيا مرموقا في الجيش العراقي، فهو شــاب عصــامي بمعنى الكلمة، نشــأ يتيما منذ طفولته المبكرة، كنت التقيه في اجازاته، قبل التخرج من الكلية العسكرية، فانصحه الا يورط نفسـه في أي انقلاب عسـكري، وان يضـع دوما وقبل كل شـيء، الدفاع عن الوطن، نصـب عينيه، والا يتحزب لأي اتجاه سياسـي، يتصـارع على الحكم.. كان يؤكد لي انه سوف يتذكر نصيحتي.. كنت اعطف عليه كأب..

تذكرته وهو صـبي حافي القدمين، يحمل طبقا على رأسـه، مليئا بأرغفة الخبز الحار، ليبيعه في السوق بعد عودته من المدرسة مباشرة..

وكما انني حضــرت مأتمه قبل ايام، ها انا احضــر مأتم صــديقه عدنان، اثنان فجعنا بهما، من شـبان محلتنا الصـغيرة، خلال أسـبوع واحد.. وعندما خرجت من المأتم، بكيت في الطريق الى البيت.

في صـباح اليوم التالي، حدث شـيء غريب، بطله المجنون عاشـور، الذي طرد سليم الخماش أهله الى إيران، في حملة تهجير الربيع الكبيرة، شوهد يُطاف به في الشوارع، مرتديا عمامة سوداء، تكاد تسقط عن رأسـه الصـغير، قادوه الى السوق الكبير، كانوا يضربونه ضربا خفيفا بقصد الإهانة، ويرددون ضاحكين باستهزاء: "هذا المجوسي الدجال"

هناك تركوه، واعطوه طعاما.. بقي المســكين واقفا في مكانه بلا حراك، يلتفت حائرا يمينا ويسارا، الى الناس الملتفين حوله..

وفي اليوم التالي، كان عاشــور يرتدي هذه المرة بدلة الرئيس العســكرية، ذات الرتبة والانواط والنياشين، ويعتمر قبعته، وفي نفس المكان، ابتعد الناس عنه، وهم يخفون ابتسـاماتهم الماكرة، جاء الذين اقتادوه بالأمس على جناح السـرعة، وجدوه واقفا عند المدخل الآخرالسـوق الكبير، المتقاطع مع سـوقي العرب والصــافرين، ســحبوه بقوة، فسـقطت القبعة عن رأسـه، بان رأسـه الصـغير المحلوق، اقتادوه بهدوء، وســاروا به بين الناس، ولكنهم لم يرفعوا أيديهم عليه، كما فعلوا في المرة الأولى.

اختفى عاشور عن الانظار لبضعة أيام، ثم شوهد جثة هامدة، شبه عارية، كانت دشداشته الجوبان القصيرة والقذرة، ممزقة وملطخة بالدم، الذي استحال الى سواد، وجثته مرمية في نفس المكان السابق،مغطاة بقطعة من ورق المقوى، لم تكن كافيه لتغطي الجثة بأكملها، فمرة يأتي أحدهم فيسحبها ناحية قدميه المتسختين الحافيتين، ويأتي آخر يسحبها ليغطي الرأس الصغير.

تساءل أحدهم متبرما:

- لماذا تركوه وحيدا، ولم يسفروه مع اهله!

وعلق آخر بتهكم ولكن بنبرة حزينة:

- لنتسلى به وننسى الحرب..

اسرع احد المحلقين حول الجثة، الى جادة النجارين، وأتى بتابوت، كنت اشاهد في طفولتي تلك التوابيت الخشبية، التي تصنعها ورش النجارة اليدوية من خشب رديء، وتترك ليلا معروضة في الخارج، يشتريها بعض المحسنين، ويجعلونها وقفا لجامع النجارين، فهي مجرد وسيلة نقل، وتنتفي الحاجة اليها مباشرة بعد الدفن، ولم يكن عليها طلب كثير في تلك الايام.

قلت في نفسي ها قد جاء اليوم الذي ازدهرت فيه هذه التجارة، التي كانت كاسدة من قبل.

ذهبت لزيارة رجل الدين المندائي، طرقت الباب، خرج صبي يعرفني، فرجع مسرعا يخبره، جاء الشيخ ورحب بي، أدخلني حجرة الضيوف، على أحد جانبي المجاز، واجلسني على كنبة مريحة، واسندت ظهري على وسادة، رحب بي وإحتفى، هنأته بعيد البنجة ، ولما سألته عن الدكتور هلال، أخبرني انه عاد لوحدته في نفس الليلة التي كان فيها معك في مأتم المرحومة..

- لندعو له بالسلامة.
- الحي العظيم مبارك اسمه يرعاه.

احتضنني وقبل وجنتي فغرق وجهي في لحيته الكثة البيضاء الناعمة، واساني بوفاة الوالدة، لترتاح روحها الزكية في عالم الانوار مع القديسين الابرار.. يؤسفني

جدا انني لم أستطع المجيء لبيتك لأعزيك.. ثم احتضني مرة آخرى وقبلني وهنأني بالزواج.. شـكرا سـيدي من أخبرك.. صـديقك الدكتور.. نعم هاتفته من بغداد واخبرته.. والآن أكملت نصـف دينك كما تقولون.. وهل كنت بنصـف دين ولا أعلم.. أخشـى ان مسـؤولية الزواج ومشـاكلي الأخرى قد تذهب بالدين كله.. اهلا وسهلا بك ابني نوح، تشرفنا بزيارتك. خذ راحتك، انت في بيتك.

جلسـنا متقابلتين، كنا ننظر لبعضـنا طوال دقيقة صـمت، بدت لي طويلة جدا، حولت بصـري، وتطلعت خلال النافذة المفتوحة على الشـارع، فرأيت شـمس الظهيرة الشتوية الدافئة، تضئ نهر الكحلاء، فينعكس شعاعها للسماء، كمرآة تلمع بوهج ساطع.

كنت في تلك اللحظة ايضـا أفكر بموت المجنون.. وأريد ان أخبره بمأسـاته، ولكني ترددت، كيلا أفسـد عليه فرحة العيد بأخبار الاموات، ولكن من غرائب الصـدف، انه بادر هو بالسـؤال عنه، وعندما لاحظ الاسـتغراب باديا على وجهي، اوضـح انه يريد تقديم مسـاعدة للمسـكين، الذي أصـبح بلا اهل، وحسـب تعبيره غصن مرمي على الأرض، مقطوع من شجرة.

أخبرته.. أمعن النظر بوجهي، كانت عيناه تتحركان قلقتين، تبحثان عن شـيء من المصـداقية، في الخبر الذي سـمعه توا، ولما تأكد أني جاد فيما اخبرته، امتقع وجهه وغشت عيناه سحابة حزن.. لم يقل شئيا، كان صمته تعبيرا عن شجبه لهذا العنف، الذي اخذ يتخبط به سـليم الخماش دون رادع يقف بوجهه.. ولكي اخرجه من حالة الوجوم التي اسـتحوذت على مشـاعره، وصـفت هذا العنف الذي فقد التوازن والسيطرة.. بالأهوج..

- قتلوا انسانا بريئا..
- وبدأوا بحملة اعتقالات واسعة.
- يا للعار..

نهض الشـيخ، قطع حجرة الضـيوف، وقف بقامته المديدة ولحيته البيضـاء الطويلة، وسـط الحجرة كأنه عمود نور ابيض، بثوبه وغترته التي يعتمرها، ثم تحرك ونادى من وراء باب مغلق، يفضـي لداخل البيت الفناء المكشـوف للسـماء،

تناهى لسمعي اصطفاق اجنحة طيور، وسمعت أصوات أطفال، يلعبون ويتصايحون فرحين بالعيد، تخيلتهم يدورن حول النخلة، التي إرتفعت واصبح بالإمكان ان تراها من خارج البيت، وقد كانت قبل خمسة اعوام فسيلا صغيرا، أُهديت اليه، من احد البساتين المحيطة بالمدينة، فتح صبي الباب واطل برأسه داخل الحجرة، قلت في نفسي، ربما هذا الصبي أحد احفاده، امره الا يزعجنا أحد، وطلب منه ان يحضر لنا شرابا خاصا بمناسبة العيد.. وبعد قليل جاء الصبي يحمل صينية وعليها كأسين من شراب ماء الورد، والمحلى بالعسل الطبيعي، قدمه وخرج، وضعت كأسي على منضدة التقديم المربعة الشكل، المصنوعة من خشب الساج الأسود.. وعندما رفع الشيخ كأسه وارتشف منه قليلا، رفعته وتذوقت الشراب، كان مذاقه طيب، شعرت في هذا الجو الحميم براحة نفسية.

تحدث الشيخ عن الزمن الاول. غير البعيد كثيرا، والذي لا يزال أثره باق في النفوس الطيبة، يسميه زمن الخير والناس الأوادم. لم افوت الفرصة، استدرجه للمقارنة بين الأول الذي يفتقده والثاني، زمن الحرب وسليم الخماش، الذي نعيشه، فتساءلت الم يعد للطيبين وجود الآن.. لهم، ولكنهم قلة يا أستاذ نوح.. وهذه القلة أليست ضرورية لقلب المعادلة لصالحهم.. بالتأكيد.. نعم ضرورية جدا، فلو خلت الدنيا منهم لأنقلبت، الأنبياء والصالحون هم النور الذي سيبقى عندما يعم الظلام العالم.. لكن يا شيخ قد تقود القلة العالم بأحد الإتجاهين لخيره، او بالعكس لتدميره، فالمشكلة بالإنسان نفسه، فهو الذي يوجه الحياة كيفما يشاء.. قاطعني بلطف.. وأين إرادة الله ومشيئته، إذا كان الانسان هو الكل بالكل.. الانسان ارتضى وبمحض إرادته الحرة، تحمل المسؤولية الأخلاقية.

لم يعلق الشيخ على ما قلت.. فأكملت الفكرة، لنشبه الزمن او بالنهر الجاري، والإنسان بالصخرة الكبيرة التي تعترضه، فيضطر ان يلتف حولها، وإذا كانت تلك الصخرة كبيرة جدا، كالجبل.. سينحبس الماء خلفها ويفيض، فيغمر الأراضي المجاورة و يغرقها.. إذاً انت تقول ان المشكلة بالإنسان.. طبعا به عندما يتحول هو نفسه الى مشكلة لغيرة من بني جنسه، فترة صمت قصيرة.. قد اسميها صمتا تأملياً.. ربما كان الشيخ يفكر ايضا فيما قلت.

اتفق معك أستاذ نوح، ما قلته ينطبق على الانسان غير المقيد بالعهد والميثاق الإلهي.. نعم يا شيخ العهد أو الأمانة كما يسميها القرآن، الأمانة التي اشفقت السموات والأرض عن حملها فحملها الانسان، فكان ظلوما غشوما.

رفع الشيخ يديه.. مبارك اسمك أيها الحي العظيم، ارحمنا.

تناولت كأس الشراب، وصكت شفتاي عليه حتى ارتويت، فأنعشني مذاقه الطيب، فامر الشيخ بالمزيد منه مع الكليجة واقداح الشاي..

تجاذبنا أطراف الحديث، وخضنا في موضوع الحرب ومسيرتها الشيطانية، كنت اود ان استفسرعن القصيدة التي تنسب للشاعر المندائي، ولكني اجلت ذلك، ونسيته بالمرة، لأنه طرأ على بالي تلك اللحظة، محنة الجنود المندائيين في جبهات القتال، فسألته عن الذين سقطوا في ارض المعركة. وتعذر إخلائهم، ودفنوا دون مراسم الدفن الدينية.. أتعرف يا نوح مراسمنا بدفن الأموات.. نعم.. يجب ان يكون رأس الميت باتجاه الشمال.. صحيح كما قلت بإتجاه قبلتنا، حيث يستقبلهم الملاك الاثيري اباثر، لكي يحضون بالموت النظيف.. اليس إذا من واجبكم ياشيخ، ان تخاطبوا الجهات العليا لاعفاءهم من القتال في الجبهات الأمامية، او على الأقل تنحصر خدمتهم في الخطوط الخلفية.. كيف نستطيع ذلك يا أستاذ نوح ..لإعفاء على اساس الإستنكاف ضميريا، المستند على عقيدة دينية تحرم القتل في النزاع المسلح بين الدول، كما أُعفي اتباع جمعية الكويكرز وشهود يهوه، من الخدمة الإلزامية أثناء حرب الفيتنام .. وبأي حق نطالب بذلك .. بالقرار 1978/ 77 الذي دعت اليه لجنة حقوق الإنسان، أسأل القاضي عبدالهادي إجباري وسيشرح لك الموضوع.. ومن يجرأ على طلب كهذا يا نوح.. الطيبون ياسيدي، أنتم ..

تحولت أبتسامة الشيخ الى ضحكة أشبه بالبكاء، قال وقد دمعت عيناه .. وأين حقوق الإنسان يا نوح .. قلت في نفسي، صدق الشيخ، من يجرأ، سيحترق كالفراش قبل أن يلامس اللهب.

سأحكي لك يا شيخ قصة حقيقية، عن علاقة مائزة وحميمة بين إمرأتين، من ذاك الزمان الذي افتقدته وتحبه، كانت أم سعيد تسكن مع ابينها في بيتنا، وذات يوم هاجمت امي نوبة صداع نصفي حادة، فقامت أم سعيد بالعناية بها، وشوت لها

سمكة صغيرة، وقدمتها ملفوفة بالخبز، ولما عاد أبنها مقبل من مدرسته الابتدائية، كان جائعا، ولم يجد شيئا يأكله، بكى،

قاطعني الشيخ يسأل عن الأستاذ مقبل، هل لا يزال معتقل.. نعم ولا أعلم أين بالضبط، واصلت.. كان الولد لا يجد حرجا عندما يجوع، الذهاب لأمي، كانت تحبه وتعطيه ما لديها من الطعام.. وقف عند الباب المفتوح يحملق فيها، رآها تشد عصبة سوداء حول صدغيها، ظل واقفا كالتمثال، فأحست امي انه جائع، ولا يوجد عندهم شيء من الطعام، ابتسمت، وأومأت براسها، فدخل، اشارت للمنضدة التي عليها الطعام، بحركة من يدها تنم عن.. لا تتردد، مد يدك للطعام وخذه..عاد الولد مسرورا لامه، وبيده السمكة الملفوفة بالخبز.. هذه المرأة احبت الناس كثيرا.

استلطف الشيخ القصة، وتحسر على ذاك الزمان، الذي احبه، كما يحب النهر القريب من بيته، مسترجعا ذكرياته عن طقوسهم الدينية في مياهه الجارية، او اليردنه كما يسمونها، فكان يرى أرواح الأجداد ترف قبيل طلوع الفجر، كأجنحة النوارس على صفحته الهادئة.

في البدء كان الخالق العظيم، العارف الحي، ملك النور، ولم يكن أحد غيره، ثم كان الماء ومنه كان كل شيء حي.

أيقظ الشيخ المندائي ذكرياتي عن النهر، فشعرت وانا استمع اليه، أن قدماي تغوصان في حبات رمله الندية الناعمة والباردة، وعيناي ترى محاره وصدفه اللامعة، مرمية على الشاطئ الرملي، تحت شمس الصيف الجنوبية الثرية الساطعة.

الفصل العاشر

عاد نوح على نفس الطريق الذي ســـافرعليه مئات المرات، منذ الرحلة الأولى مع ســـعيد الى بغداد، في الثالث عشـــر من تموز- يوليو عام 1958م، وهذا اليوم العاشر من كانون الثاني عام 1982م.

كم مرة خلال هذين التاريخين دارت الأرض حول نفســها؟ كان سـؤالا واحدا يلح عليه طوال تلك السنوات، يدور في رأسه، كلما تذكر قول توينبي:

''عجلة التاريخ ليست آلة شيطانية، تبتلي الناس بعذاب سرمدي''

فيسـأل نفسـه لماذا إذاً ابتلانا التاريخ بعذاب سـرمدي، هل نحن اسـتثناء، ام ان لعنة ابدية حلت علينا!

التفت الى جانبي الطريق، فرأى على أحد جانبيه جثة المجنون عاشـــور، كما شاهدها عارية مرمية، كانت عيناه لا تنظران لشئ ما، ولكن يراهما الآن تخترقان حجب السماء، لأبعد من الشمس والكواكب، الى ما فوق العرش، تشكوان للخالق، الظلم الذي وقع على صاحبها، بعتاب صامت..

ولشد ما حيرته أيضا ابتسامته البلهاء التي جمدت كدم تيبس على شفتيه،ِأرتعب من نظرته الحادة، التي يراها الآن كلسان ناري يمتد للسماء.

ربمـا لم يكن لحظـة موتـه العنيف ينظر لجلاديـه، ولكن عينيـه الآن مختنقتـان بالدموع والدم..

كان كل هم الذين شـاهدوا الجثة، تغطية عورته.. وعندما ألتفت الى الجانب الآخر من الطريق، ترآى له نعش عدنان ملفوفا بالعلم العراقي، يطير نحو الشرق ليلتحق بعائلته المسفرة الى إيران..

كان رحيل نوح من مدينته، هروبا من الموت، المتمثل بجثة ونعش، يلاحقانه على طول الطريق، رحلة اخيرة وبلا عودة، اشعرته بالخوف من مستقبل مجهول..

قطع ثلث المســـافة، توقف فجاة، ركن ســـيارته على كتف الطريق الترابي، عند مقهى صـغير، طلب اسـتكان شـاي، شـربه سـاخنا، أومأ بيده لصــاحب المقهى، وعندما جاء، سأله:

- أتعرف شخصا باسم نوح.

- عفوا.. لا أعرف أحدا بهذا الاسم، عدا النبي نوح عليه السلام.

أومأ بيده بطريقة تخلو من الذوق، تأمره بالإنصراف.

عاد الرجل لمكانه، واقفا امام المقهى، شاخصا بنظره للسيارات المارة بالاتجاهين، آملا بتوقف سيارة للأستراحة، قام نوح ونفح الرجل اضعاف ثمن الشاي، شكره الرجل، ودعا له بسلامة الوصول..

عاد نوح لسيارته، استدار في الاتجاه المعاكس، من حيث كان قادما، صاح الرجل منبها اياه، هذا الاتجاه غلط ..

كرر الرجل التنبيه بصوت اعلى قبل ان تبتعد السيارة، ''يا أستاذ هذا الاتجاه غلط.. لا يوصلك الى بغداد..'' في المرة الثانية رد عليه '' لا يهم كل الاتجاهات سواء.''

أدهش تصرفه صاحب المقهى، فهز يديه، وظنه مجنون.

عاد أدراجه الى مدينته، فوصلها بعد الظهر، عبر جسر الكحلاء، استدار يمينا محاذيا النهر، التفت للمركب الغرقان، القى نظرة على بوجته المتوارية تحت الماء، ومر على قصر المحافظ، وألقى نظرة على نهر الدجله عند تفرعه الى نهر الكحلاء، في هذا المكان يتسع النهر حتى كأنه بحيرة، ظل جائلا في أزقة المدينة وطرقها وحاراتها القديمة، وكان حيثما يمضي يتطلع للناس، فيراهم كأشباح غريبة، دمى من الخرق البالية، كأن لم يسبق أن عرفهم من قبل، رغم أن معظمهم يعرفونه جيداً، وله ايد بيضاء على المحتاجين منهم.

كان يحز في نفسه وهو يتطلع لهم، انه لم يستطع انقاذ مقبل، ولا مساعدة أم سعيد، لم يقتنع بأي تبرير يعفيه من تأنيب الضمير.

ترجل بين حين وآخر، ركن سيارته، وسارعلى غير هدى، حتى أعياه التعب، فوجد نفسه عند العاشرة مساء على مقربة من بيت القاضي عبد الهادي إجباري، خطر بباله أن يطرق الباب، تردد في البداية، ولكنه أخيرا طرقه، خرج الرجل بالمنامة، تفاجأ بوجوده امامه، كان الإرهاق بادياً على وجهه، فهولم يحلق ذقنه منذ إيام، ولم يخف الشيب الذي غزا لحيته، رحب به القاضي، وأدخله غرفة الاستقبال،

دعاه القاضــي الجلوس امام مدفأة الكيروسـين، لم يسـتجب في البداية، ولكنه جلس اخيرا على السـجادة، فإنعكس على وجهه لهب المدفأة الأزرق، هَمَّ القاضـي بإحضـار الشـاي لضـيفه، قام نوح وضـع يديه على كتفي العجوز، وأجلسـه على الكنبة، وظل واقفاً، أثار تصرفه الخوف في قلب العجوز، قال نوح بصوت آمر:

- جلس.. جئت أسألك عن شيء واحد، وسأذهب.
- أعرف جئت لتطلع على قانون الجنسية العراقي..
- لا تهمني.. جئت لأعرف أن كان بإمكاني أن أعود لأسمي القديم إجباري.

تفاجأ القاضي، وظل صامتا لا يحير جواباً..

- ألم تسمع السؤال، أم عليَّ أن أعيده عليك.

دار بينهما نقاش حول ذلك، ولما تأكد انه لا يمكن ان يرجع لإسـمه القديم، نظر طويلا للقاضي.

- أنت محق يا سيدي، نحن لا نزال نعيش في عصر السفر برلك.

وخرج دون وداع، فترك العجوز في ذهول وحيرة. وعاد مشـيا على الأقدام لبيته.

في تلك الليلة نام في فراشـه، وعندما اسـتيقظ صـباحا، كانت أشـعة الشـمس تغمر الغرفة، شـعر أنه جائع، نهض من الفراش، وبحث عن شـيء يأكله، وفي أثناء وجوده في المطبخ، رأي سـكينا، فخطرعلى باله أن يقتل سـليم الخماش، أخذها وخبأها بملابسـه، تذكر السـيارة، التي ركنها الليلة الماضـية، لصـق جدار بيت القاضي، لم يخرح من البيت حتى حلول الظلام، ذهب هناك ليستعيد سيارته، وجد نفسه مدفوعا برغبة قوية لطرق الباب، طرقه فخرج المحامي حسن، أبن القاضـي الأكبر، وكانا زميلين ايام الجامعة، سـأله عن والده، إن كان نائما في هذا الوقت، أمسك حسن يده وأدخله لغرفة الاستقبال، كان القاضـي جالسـاً، يتابع نشـرة اخبار السـاعة التاسـعة على التلفاز، سـلم عليه واعتذر، قام القاضـي واحتضـنه وأجلسـه قربه، تابع الثلاثة أخبار المعارك المحتدمة على الجبهة الجنوبية الشـرقية، على طول الحدود المحاذية لمحافظة ميسان، عبر القاضي عن قلقه.

- هذه حرب ما كان علينا ان نتورط فيها.

هم نوح بالانصراف، ولكنهما منعاه، وعرضا عليه المبيت عندهم.

- ستنام هنا، سيأتيك صديقك حسن بمنامة نظيفة وفراش، ستنام هنا في الصالة.

ارتاح نوح لفكرة قضاء ليلة لطيفة مع أصدقاءه، استأذنهما القاضي وذهب لينام، بينما سهر الصديقان حتى ساعة متأخرة، أدار حسن مؤشر محاطات الراديو، لسماع آخر البيانات العسكرية الصادرة من الجانبين، عن الخسائر بالأرواح والمعدات. تحسر حسن وتنهد بعمق.

تورطنا يا صديقي كما قال والدي، حرب لن تنتهي قريبا.. لا يهم متى تنتهي، ولكن كيف ستنتهي.. تقصد من سيخسر في النهاية..سيخسر الاثنان طبعا، ولكن البادئ بالحرب سيكون الخاسر الأكبر، لأنه خاض حربا ليس فيها اهداف استراتيجية محددة مسبقا.

ناقشا الأستراتيجية، على ضوء المعطيات وآراء المحليين العسكريين المتباينة، فوجد نوح ان تصدير الثورة الأسلامية فقاعة وهمية، وان الدفاع عن البوابة الشرقية كذبة سياسية مفبركة، اخُترعت في حينها بذكاء شيطاني، عند تطور الأحداث، وأن نظام الملالي كان سيسقط من تلقاء نفسه من دون حرب، وأن الحرب بالعكس ساعدت على رص صفوفهم، والتخلص من اعدائهم في الداخل، فإستنتج حسن ان الرئيس لم يفكر تفكيرا استراتيجيا، خاض حربا ليس لنا فيها ناقة ولا جمل.. حسن،على فكرة، لا زلنا نفكر بالناقة والجمل، السنا نعيش في مجتمع السيارة والطائرة.. لا يا صديقي نوح، البدوي بتقاليده المتحجرة، لا يزال يختبئ كالقدر في حياتنا.

ران صمت متوجس بينهما، قطعه حسن بنفاد صبر.

ومتى الخلاص..لا أدري..أظن أن الخلاص سيتحقق في النهاية، عندما يتحطم شيء في داخلنا، شيء نتهيب منه، ولا نجرأ أن نظهره للعلن، كما يحدث للجليد عندما يبدأ بالذوبان، في اللحظة الأولى تسمعه يتكسر ولكنك لا تراه.

فجأة غير حسن مجرى الحديث، لو سألتك ان تعرف الوطن بكلمتين فقط.. بيت الأم، وأنت ماذا تعرفه ايها المحامي الذكي.. بيت الراحة.. هل تقصد الوطن مرحاض.. طبعا، اليس الأنسان يرتاح فيه،عندما يتخلص من فضلاته، بغض النظر عن رفاهية ونوع المرحاض، انت سميت الوطن بيت الأم، فماذا حصلت الأم من هذا البيت، غير الخرا، فهي اما ارملة، ثكلى، او محرومة ومضطهدة.

وبسرعة انقلب الحديث الجاد والثقيل الوزن، الى مزاح وفرفشة. بدأه حسن بخفة دم وحب للضحك.

لماذا لا يصدر الإيرانيون لنا فستقهم المشهور بجودته، سمعت ان أحد الشخصيات الهامة في الحكم، يمتلك مزارع كبيرة لاشجار الفستق.. وماذا نصدر لهم..

قال حسن دعني أفكر.. ها لقيتها، لبن أربيل.. ها ها ما رأيك يا نوح.

ضحك الصديقان، فانشرح صدرنوح، وإنزاح عبء كان جاثما على صدره ويخنق أنفاسه، تساءل حسن، هل لا يحق لنا أن نضحك، مراعاة لمشاعر الباكين..لا ياصديقي، هكذا هي الحياة ضحك وبكاء.. إذاً هاك نكتة عن الرئيس..

راح حسن يحاكي الرئيس ويقلد صوته، عندما بكى على شهداء الحرب، اثناء خطابه الذي نقله التلفاز.

شرب حسن قليلا من كأس الماء، مسح دموعه وفمه بمنديل ورقي، توقف لحظة، وغلبه نشيج مكتوم، تهدج صوته، ومسح دموعه وفمه، وكرر ذلك عدة مرات اثناء الخطاب.

سأل حسن صديقة، أتدري ماذا فعل الرئيس عندما نفدت دموعه.. سكت حسن لحظة وأجاب على سؤاله.. استعار دموعا من مرافقه، ها ها..

قال نوح، يذكرني هذا المشهد، بدمعة فرح سالت على خد المرجع الديني الأعلى، عندما سمع بإغتيال الزعيم، ويقال انه صلى ركعتي شكر، صمت نوح قليلا وأضاف.. تلك المحاولة التي فشلت، وكان رئيسنا الحالي ابرز ابطالها، ما اشبه الليلة بالبارحة.. قهقة حسن ضاحكا..

- وما اشبه الزلابية بالبقلاوة.

انقلبت اسارير نوح، عبرت ملامحه عن الانزعاج الشديد من كلام صديقه، وظهرت في نبرة صوته.

- الموضوع ليس مزحة.

استدرك حسن، فأبدى شيئا من الجدية تلافيا لزعل صديقه.

تساءل هل فعل المرجع ذلك حقا.. أكد نوح ذلك بكلمة قطاً. ثار جدل بين الصديقين، حول مصداقية ما قام به المرجع.

لا اعتقد ان المرجع الديني الأعلى فعل ذلك، هذه كذبة افتراها الشيوعيون، لحقدهم عليه، بسبب فتواه الشهيره بتكفيرهم واباحة دمهم، اعتقد أنت سمعتها من سعيد..

- رد نوح، منه او من غيره ما الفرق.. المهم انها حدثت فعلا.. اتصدق هذا الشيوعي الحاقد.. ولماذا لا اصدقه، عندما تتضارب المصالح، تنط الاشباح خارجة من الظلام، ويصبح كل شيء جائز ومباح، وانت يا صديقي المحامي اعرف من غيرك، لقد جانبت فتواه الحكمة وخالفت قانون المحاكمات، لانها تسببت بإزهاق ارواح برئية.

فكر نوح ان صديقه كرجل قانون، يجب أن يعترض قانونياً على تلك الفتوى، بإعتبارها اصدار حكم جماعي بالأعدام، بدون محاكمات اصولية. ولكنه غض النظر عن الجزء الهام في كلام نوح.

تساءل المحامي حسن، ذكرت تضارب المصالح، أين هذه..

فأوضح له نوح، هذا التضارب حدث بسبب تشريع قانون الإصلاح الزراعي، الذي حَرَمَ المرجع من مورد هام، يأتي من كبار ملاك الأراضي، فاصطف مع أعداء الثورة، لا اريد ان ادخل معك بجدل بيزنطي حول هذا الموضوع، لأني متأكد انت كمحامي تعرف جيدا كل شيء عن الموضوع، ولكنك تغالط الحقائق.

حاول حسن كسر حدة الجدال.. على كل حال يا صديقي نوح، كي نتجاوز الخلاف بيننا كاصدقاء، علينا ان نغلق الموضوع، ونتوقف عن الخوض بقضية قديمة طواها النسيان.. ليس هناك من شيء هام يطويه النسيان ابدا، ولكن قل يدخل في ذمة التاريخ.. صحيح كما تقول، لننهي الموضوع كأصدقاء. تصبح على خير.

تربع نوح جالســـا في فراشـــه، يفكر بمحاولة الاغتيال التي نجا منها الزعيم بإعجوبة.. رغم ان ســيارته أُمطِرتْ بالرصــاص.. وتوقف عند مفصــل هام فيها، وهو مقتل أحد المهاجمين، فقال نوح يحدث نفســـه، اما كان على القدر ان يكون رحيما، فيختار رئيسنا، بدلا من رفيقه الذي قُتل.

عندما جلســوا صــباحا للإفطار، تســاءَل نوح عن دور شـــاه ايران الآن، فقال القاضي.

- ما الذي ذكرك به.
- يوما ما سـألتُ امي عن جارتنا التي رحلت الى بغداد، فتساءلت مثلك، ما الذي ذكرك بها، فأجبتها: تنورنا الخامد منذ زمن، لأن المرأة كانت تأتي لبيتنا لتخبر لنا، عندما ضــعف نظر امي، واجيبك ســيدي القاضـــي، أن تنورالحرب المتأجج، هو الذي ذكرني به.
- ولكنها اشتعلت وإنتهى الأمر.
- ظل نوح صــامتا، قابضــا اســتكان الشــاي بين اصــابعه، يتأمل حمرته الداكنة، دون أن يدنيه من شفتيه.
- أستاذ نوح، منذ ليلة البارحة وانا أفكر بوالدك، هل تلقيت خبراً عنه.

استغرب نوح من سؤال القاضي.

- ماذا تقصــد ســيدي، مات والدي عندما كنت طفلاً، فمن يكون والدي هذا الذي تسأل عنه.
- موســـى الكيال، أنا أعرف انه ابوك، ومنذ زمن بعيد، وقد إتمنني على وصيته.
- ولماذا لم تخبرني بذلك من قبل سيدي القاضي.
- لأن الوصية تنص على الإخبار في حالة الوفاة فقط.
- فهل تأكدت من وفاته.
- لا أستطيع أن اجزم بذلك..ولكن تناهى لسمعي انه سُفر الى ايران، غيابه يلح عليَّ أن ابرئ ذمتي، واخبرك أنك وريثه لاملاكه؛ المطحنه ومخزن الحبوب وبيته في السبع قصور؛ كلها ملك لك وحدك.

- وماذا أبقى لابنه الأكبر الدكتور ممتاز.
- اوه.. الكثير.. بيته في حي المنصور وعقارات ومحلات في بغداد، انت لا تعلم كم ثري هو يا أستاذ نوح.
- اعلم.. ولكن إن لم يكن قد مات حتى الآن، فإنه سـيموت في ايران فقيرا وغريبا.
- مستحيل أنه تاجر وذكي جدا، ولا بد أنه هرَّبِ ما يكفيه من المال، ويؤمن حياته.. سأتيك بالأوراق.

غاب دقائق، فكر بهذه الثروة التي هطلت عليه كالمطر، لو انها جاءت قبل سنة او اكثر قليلا، لتمكن ان يحقق حلمه العتيد بنيل الدكتوراه من أشهر جامعات العالم، كامبردج، أكسفورد، هارفرد.. ولكن حلمه تلاشى مثل غيمة صيف عابرة، فقد الحلم سحره، وأنه سيفشل لو قرر ان يدرس، راح يخاطب نفسه، ما جدوى الشهادة، عندما يكون المرء مذعورا، كفأر في مصيدة، أمام الخماش وزمرته، وهو يراهم يضربون الأستاذ مقبل، دون ان يحرك ساكنا.

ولكن بهذه الثروة سأعيش مع سيناء حياة سعيدة.

عاد القاضي بالأوراق وسلمها اليه، فشكره وانصرف، استقل سيارته، وفي طريقه للبيت، فكر ببيع المطحنة لأنها خرجت عن الخدمة، وتحويل ارض مخزن الحبوب، الى مجمع سكني، وسيترك منزل الكيال، للرجل العجوز وزوجته يعتنيان به..

اما بيت الأم ، فلن يفرط بحجر واحد منه، حتى يتهاوى انقاضا من تلقاء نفسه، وسيأتي اليوم الذي يعود حاجا اليه كما يحج المسلمون الى الكعبة المكرمة.

عندما ذهب نوح، استدعى حسن ذكرياته الجامعية مع صديقه، عندما كانا يسكنان معا في دار الطلاب على ناصية باب المعظم، حكى لأبيه جانبا من تلك الذكريات القديمة.

عن نوح الوجودي، قرأ كتبهم، ثم عكف على نيتشه، فقرأ كتابه هكذا تكلم زرادشت، كان يقرأ علينا فصولا منها، وكتب في مرحلة مبكرة من دراسته الجامعية، نصوصاً غريبة ومثيرة للجدل، نشر بعضها في جريدة يسارية، في

عمود داخلي، تحت عنوان أوســـاخ، مزج فيها بطريقة صـــوفية بين التدين والوجودية، والأشتراكية، كان يصلي ويصوم، ويدخن ويشرب الخمرة أحيانا..

سـكت حسـن عند تلك النقطة الحرجة، على شـريط ذكرياته، اوائل السـتينات، وقال يحدث نفســه.. هنا يجب على ان اتوقف، لئلا يزل لســاني بشــيء، وافضـح اسرار صديقي للسيد الوالد، المؤتمن انا على كتمانها، وعدم البوح بها، لأي كان، سأله القاضي عندما وجده ساكتا:

- إستمر.. لماذا توقفت، هل كانت لديكما اسرار.
- ليس لدينا اسرار.. هذا كل ما أتذكره..
- اريد أن أعرف عنه الكثير، هل كانت له علاقات نسائية.
- طبعاً.. كأي شاب كان في نفس عمره.
- أتخاف أن تفضـح نفسـك يا حسـن، من خلال الحديث عنه، ولكن لا بأس تكلم، للشـباب نزوات، ولسـتما اسـتثناء، إنها الطبيعة البشـرية، أحب أن أعرف عنه الكثير.

في تلك اللحظة رن جرس التلفون فانتهز حسـن الفرصـة ليتهرب من اسـتجواب ابيه، رفع السماعة، وبعد إنهاء المكالمة، استأذن، متذرعا بضرورة مغادرته فورا، وبتلك الحيلة التي لم تنطل على والده طبعا، تخلص من موقف محرج، وقال يحدث نفسه وهو في طريقه لمكتبه، كدت أن أكشف سر صديقي، لأن والدي القاضي لن يكف حتى ينتزع مني المعلومات، التي يريد معرفتها، فأقول له:

كنا نذهب لبيت.. نشرب ونلهو، كل واحد منا ينام مع إمرأة يختارها، وكان نوح يعرف واحدة ليســت جميلة، كان يختلي بها وقتاً أطول منا، ولكني اكتشـــفت عن طريقها، أنه كان يتحدث معها طوال الوقت دون ان يمسـها، ينصـحها أن تترك هذا المكان الموبوء، وكان قبل أن يخرج يعطيها نقودا أكثر منا، كانت البنت تحبه، وحكت لي انه كان يبكي كل مرة يأتي اليها، وحلفتني واقســمتُ لها، ان أكتم سـرهما، فلو كشـفته الآن لأبي، لحنثت بقسـمي والعياذ بالله، ولقال: عجيب.. هل يعقل أن يكون نوح عِنّيناً، وعند ذلك سـأضـطر الى نفي عجزه الجنسـي، وسـأحكي له أنه كان يريد اقناعها على ترك المهنة ويتزوجها، ونجح فعلا وعاش معها في

شـــقة صـــغيرة، ولكن عاد احد الأيام ولم يجدها، وذهب لبيت الدعارة التي كانت تعمل به، فطردته القوادة التي تدير البيت، وهددته بالشـــرطة، إن اســـتمر على المجئ والسؤال عنها، شتمها، وبعد ذلك يئس وكف عن الذهاب، هذا هو صديقي نوح الذي عرفته زميلاً في الجامعة، وصديقاً احبه..

كان يحب الناس العاديين، وكانوا يبادلونه الحب.

لم يخرج نوح من بيته تلك الليلة، وعندما ذهب لينام في ســـاعة متأخرة، نزع سترته ورماها على السرير، فسقطت السكين التي خبأها بملابسه، برق نصلها تحت ضوء المصباح، دفعها بقدمه تحت السرير، تراجع للوراء، تساءل أكان فعلا ينوي قتل الخماش! واجاب، لا يليق بي ان افعل ذلك، فقتله لن يغير شيئ . سقطت فكرة قتله كما تسقط ورقة خريف ميتة..

كان أول قراراتخذه بعد تخليه عن فكرة قتل الخماس، الاعتكاف غدا الجمعة قبل طلوع الشـــمس وحتى الغروب، يتأمل، يُقلب جميع ملفات حياته بتأن وروية، يراجعها بهدوء ومزاج رائق، عندئذ ستكون النتيجة جيدة ومضمونة مئة في المئة، لحل جميع مشاكله الشخصية والنفسية.

وبينما كان مضطجعا في سريره، مستغرقا في التفكير، رن التلفون في الصالة، قام والقى نظرة خاطفة على ساعة الجدار، كانت الواحدة بعد منتصف الليل، فقرر ألا يرد، وهو لا يعلم ان سيناء كانت على الطرف الآخر من الخط، تحاول يائسة الاتصـــال به مرة او مرتين، كل يوم دون جدوى، منذ ان غادر بغداد، وكانت تلك المحاولة السابعة الفاشلة..

تســـاءل في تلك اللحظة عن ســـيدهارثا غوتاما، حين غشـــاه التيقظ فصـــار بوذا المستنير، تَذكُرْ الرواية، انه رأى الحقيقة ساطعة كالشمس في رائعة النهار.. ولكن بوذا عندما عجز في الواقع كإنسان، عن إيقاف عجلة الولادة والموت من الدوران، والتي هما ســـبب كل الآلام، التجأ للنيرفانا كوســـيلة لتخفيف الألم وليس الخلاص منه..

اما ارنولد توينبي فتحدث عن الانســـحاب والعودة، في كتابه دراســـات التاريخ، بطريقة علمية، فالذين مروا بتلك التجربة، خرجوا منها بفائدتين متلازمتين: التأمل

والتفكير العميق بأحوال الناس السيئة، ثم العودة لتغييرها للأحسن، وقد استلهم الأنبياء هذا المنهج.

أنهى نوح اعتكافه كما كان مقررا، ولم يحدث شيء مثير للدهشة ، كان خلال فترة الإعتكاف القصيرة، يدخن مسترخيا، يقلب أوراق مذكراته، ويستمع لأغاني فيروز، ولمقطوعات موسيقية مختارة لأشهرالمؤلفين الكلاسيكيين، وخاصة بيتهوفن الذي يحبه..

كانت أولى ثمرات الاعتكاف، عدم اضطراره للخروج، وحضورالاحتفال، الذي اقامته المنظمة الحزبية، بمناسبة الانتصارات العظيمة، والمتلاحقة على امتداد جبهات القتال. صفق فرحا ورقص، لأنه تخلص من سماع كلمات الخطباء الجوفاء، وقصائد الشعراء الحماسية، التي تمجد الحرب، وقال في نفسه.. الحمد لله الذي كفاني الإحتفال بيوم تسفك فيه الدماء دون مبرر..

وعندما رن التلفون في الصالة، الساعة الثامنة مساء، أفزعه الصوت، وخز ذاكرته، فرقع فقاعات الخوف، ولكن وجود امرأة جميلة كسيناء في حياته، جعل قلبه يخفق سريعا، وتمنى لو انها في تلك اللحظة على الطرف الآخر من الخط.. أنب نفسه لأنه لم يتذكرها طوال الأسبوع الماضي، سوى مرة واحدة، عندما هنأه رجل الدين المندائي.

عندما ألصق السماعة على اذنه، فوجئ بصوت الخماش، دار حديث قصير بينهما، انتهت المكاملة، تساءل نوح: ما الذي ذكَّره بي، ولماذا طلب مني ان اراه غدا.. لقد ضعفت علاقتنا منذ ان تولى منصبه، وماتت عندما خدعني، ولم يف بوعده بإطلاق سراح الأستاذ مقبل.. ماذا يريد مني هذا الوحش.. ولكن قرر ان يذهب اليه، فكان مجرد التفكير بالذهاب لتلك الدائرة الأمنية المرعبة، يثير القاق والإضطراب النفسي، والاحساس بعدم الارتياح، وبشيء من التوجس، واستلاب الإرادة الحرة..

استقبله مدير الأمن، جلس الرجلان وجها لوجه، تفصل بينهما منضدة المكتب، المغطاة بلوح زجاجي شفاف، ترك الخماش مسدسه في وسطها، وخلفه على الجدار المقابل لنوح، صورة كبيرة لرئيس الجمهورية.

عرف نوح هذا الرجل، اول مرة في منتصــــف الســـتينات، وبالتحديد في العهد العارفي، كان آنذاك مبعدا ســياســيا، وموظفا صـــغيرا في دائرة الأحوال المدنية، رجلا مغمورا وغريبا عن المدينة التي حل فيها، ونزيلا بفندق في شـــارع دجلة، وكان الأستاذ نوح قد تعين آنذاك مديرا لمصرف الرافدين، وقد اسدى لسليم خدمات كثيرة، عرَّفه على اصـــدقاءه، ودعاه الى بيته بمناســـبة او بدونها، وســـاعده ماليا احيانا، ولكن لم يكن سليم حريصا على سمعة صديقه الطيبة، فإستغلها باقتراض أموال تافهة، من هنا وهناك، كان ينفقها على الخمرة والقمار، وحفلات الغجر الراقصة، ويتوارى او يماطل عند المطالبة، فيضطر الأستاذ نوح لتسديد ديونه..

كان يتملق الناس بتقبيلهم بمناســـبة او بدونها، ثم ابطل هذه العادة، بعد ان تعين في منصـــبه الحالي، فتحول الى شـــخص مغرور ومتعجرف، ولكنه احتفظ بعادة سـلب ما بيد الآخرين، عندما يراها، وتثير اعجابه، فكان لا يتردد بخطفها، بمجرد انهم يقولون له، قدامك.. أي تفضـــل، فراح الناس يحذرون من اظهار اشـــياءهم الثمينة امامه، خاصـــة ســبح الكهرب، لان خرزها الصــفراء كانت تكهرب عقله، فيمد يده ويخطفها، اما وقد تولى منصـــبا هاما، فلن يجرأ احدٌ ان يتنازل له عن شيء ثمين يعجبه، فصار الخماش مضرب الامثال في ذلك..

وبعد زوال الحكم العارفي، اعتلى سـليم ظهر الموجة التكريتية الصـاعدة فجأة، حتى اوصلته أخيرا، وفي غضون سنوات قلائل لمنصب مدير امن المحافظة..

هذا باختصـــار شـديد تاريخ الخماش العلني، اما الســري فلا يعلم به الا الله.. كان يتباهى دائما امام الناس انه من أقرباء الرئيس المقربين، أي بالتعبير الميســـاني ’واحد من حِبالْ المُضْيفْ‘.

نسى سليم عطف ام نوح، وعشرات المرات التي دعته الى بيتها، يطلب بلسانه ما يشـــتهي، من أصـــناف الطعام الميســـاني، او يســـهر مع ابنها، يتجاذبان أطراف الحديث، بعد العشاء، حتى منتصف الليل..

تناسى كل ذلك، وتنكر لإبنها الذي كان صديقه القديم.

حينما جلس الأســـتاذ نوح امامه، دارت اسـئلة الخماش حول وفاة الأم، وعن عدم إقامة الأبن العزاء كما جرت العادة، فكان جواب نوح انه تبرع بالمال لمســـاعدة

امراة فقيرة، هي ام الشـــهيد الضـــابط حنون، فتبجح الخماش بكرم الرئيس لأســـر الشـهداء، ورد نوح ان ما قام به كان مسـاعدة انسـانية، لجارة قديمة. انتهز الخماش الفرصة للإظهار وطنيته.

- نحن كلنا مشاريع استشهاد من اجل الحزب والثورة. رد نوح
- والوطن ايضا.

نظر سليم لنوح شزرا من زاوية عينه، باستخفاف وتكبر..

- طبعا..

إنتقل نوح للحديث عن عدنان، وقال انه استشهد بنفس الوقت.

قاطعه سليم متسائلا.

- عرفته، المعجب بنفسه كالطاووس، والمتأنق دوما كالبنات.
- انا اعرفه اكثر منك .. هو ابن محلتي وكان..

قاطعه سليم بخشونة.

- اعرف اســـتاذ نوح.. تقييمك قائم على الشـــكل والمظهر، وليس على الشجاعة والرجولة.
- هذا الشاب سفرتم عائلته الى إيران، بينما كان يقاتل الإيرانيين في الجبهة، والمحزن في الأمرانهم لا يعرفون..

قاطعه ســـليم مرة أخرى، ضـــاحكا بخبث، واســـتعرض امامه تلك الحركة المزعجة، التي يشمئز منها، مسح شفته العليا بإصبعي السبابة والابهام، وانزالهما للأسفل على جانبي الفم، أحيانا يفعلها الشخص لمجرد عادة مستحكمة،لا يستطيع السـيطرة عليها، فيكررها بين الحين والآخر، وهو مســتغرق في الحديث دون ان ينتبه لذلك.

- لا تحزن عليه.. الذين شـملهم مبدأ وحدة العائلة سـيجتمعون بذويهم وراء الحدود، وهم المحظوظون، اما الآخرون فسـيُلَمُ شـملهم في دار الآخرة، فاذا كانوا اخيارا اجتمعوا في الجنة وإذا كانوا اشـرارا اجتمعوا في النار.. والله أعلم أين سيجتمع بهم.

فكر نوح ان جدلا مفتوحا بلا حدود، مع سليم الخماش، سينتهي حتما الى مزالق خطيرة، لا يحمد عقباها، فسكت ونظر لساعته.

- هل لديك موعد.
- لا.. احضر حقيبتي للسفر الى بغداد غداً.

قاطعه.

- سمعت انك استقلت من وظيفتك، ماذا ستعمل"
- اعمال حرة..

وبابتسامته الصفراء التي ينزعج منها نوح، لم يترك الخماش الفرصة تفوته، كي يتبجح بأهميته وقوته..

- وسنوفر نحن لك الحماية والأمن.

فكر نوح ان مفردات كالمال والثراء والغنى، يتحسس منها سليم الخماش، ما أن تُذكر في حديث، حتى تثير حفيضته، ربما ذلك بسبب عقدة الفقر، فيتقمص شخصية الرجل القوي، المدافع عن القانون، الذي يحمي حياة الناس، اعراضهم وأموالهم. لذا لم يعلق نوح على كلامه بشيء، لعدم وجود لغة مشتركة بينهما..

وعندما قام نوح، وقف سليم الخماش متثاقلا، وصافحه من وراء المنضدة بطريقة تنم عن كبرياء، خرج نوح تاركا الباب مفتوحا وراءه، تنفس الصعداء، وهواءً نقياً غير ملوث بغطرسة القوة.

لم يبق امامه سوى السفر، ولقاء الحبيبة، التي تنتظر عودته، فكر لو انه قتل الخماش لكانت عملية في غاية السهولة، يمد يده للمسدس، ويطلق عليه النارفيرديه قتيلا.. ولكن تلك المسافة القصيرة التي كانت بينهما والتي لا تزيد كثيرا عن المتر، ستنقلب الى بحر، سيكون هو على ساحل وسيناء على ساحل آخر بعيد لا يراه.

في طريق عودته الى البيت، عرج على صالون حلاقة أبو انور ليقص شعره، كان الوقت ظهرا، والحلاق مسترخ على اريكة يستمع لجهاز راديو قديم ماركة فيلبس، نوع من الأنتيكة، وحينما رأى نوح يدخل، هب واقفا ورحب به، وأطلق نوح بوجهه ضحكة قصيرة مرحة..

- لا زلت تلعب بالنار.. في المرة القادمة لن تحرق اصابعك فقط.
- هذه إذاعة البي بي سي، سمعت قبل مجيئك بقليل، تقرير عن آثار الدمار الهائل الذي خلفه الزلزال الذي ضرب مدينة الاصنام، شمال الجزائر في العاشر من تشرين اول/ أكتوبر.
- كانت ضحاياه كبيرة جدا، ومهما بلغت فهي بالآلاف، اما الحروب فضحاياها بالملايين، الطبيعة عمياء، اما الحرب فعيونها تقدح شررا ونارا.. هذه حال الدنيا.
- الفرق أستاذ نوح بينهما أكبر من عدد الضحايا، في ضحايا الزلازل.. لا أحد يلوم الطبيعة او يكره الله ويحقد عليه..
- صحيح الحرب تولد الضغائن..
- هم يقتلوننا ونحن نقتلهم، ولذا ستبقى بيننا احقاد متوارثة لسنوات طويلة..
- ما اخبار أنور.
- في مكانه، بدائرة تجنيد العمارة.

كان انور يتميز بخطه الجميل، وخاصة النسخ والفارسي، فقال نوح لنفسه، لهذا السبب عينوه بهذه الوظيفة الكتابية، وعلم من والده ان لديه الآن نصف دزينة من الأطفال، ومعاشه لا يكفي لهذا العدد من الافواه، لذا يقوم والده بمساعدته. وحينما جلس نوح على الكرسي امام مرآة كبيرة، سأله الحلاق.

- أتحب ان اصبغه لك..

- لا يا عم، سيزداد الشيب، مهما فعلنا. سأجعل زوجتي تتسلى بعد الشعرات البيض في راسي.

- برغم الشيب الذي ملأ نصف شعرك، الا أنك لا زلت شابا في الثلاثينات، أستاذ نوح..

دق نوح على المنضدة القديمة التي عليها أدوات الحلاقة..

- هل صحيح أنك انتقلت الى بغداد، وان المرحومة توفيت هناك.

- صحيح يا عم.. ولكنها توفيت قبل قراري الانتقال نهائيا للعيش في بغداد..

أمعن نوح النظر في اللوحة الافريقية، التي لم تفارق خياله ابدا، حينما كان صغيرا.. لا تزال في مكانها على الحائط، كأنها ايقونة المحل السحرية من زمن اسطوري، فرس نهر هائج، قارب تقليدي يوشك ان ينقلب، رجل اسود على ظهره، ممسكا بعمود خشبي طويل، يكافح للوصول لصبي في الماء لإنقاذه بعد سقوطه من القارب المتمايل، ربما كان ابنه، كانت عيون الاثنين مليئة بالرعب، وكانت شدقا الفرس مفتوحتين على اقصاهما بشكل مرعب.

بعد ان اتم العم أبو أنور عمله، نزع فوطة القماش السوداء من حول رقبة الأستاذ نوح، كان ثمة شعر قد تسلل منها، فنفضه عن ياقة قميصه، شرع بتنظيف ادواته واعادها لمكانها على منضدة الحلاقة، جلس الرجلان يتحدثان عن الامل بسلام قريب تلوح بشائره من مبادرات إقليمية ودولية لإنهاء الحرب..

وضع نوح ورقة نقدية من فئة خمسة دنانير عراقية، تعادل آنذاك أكثر من خمسة عشر دولارا اميركيا على المنضدة، وهم بالانصراف، اخذها الحلاق وحاول ان يعيدها لنوح.

- هذه ليست اجرتك، يسرني يا عم ان تقبلها هدية مني، لم انس أنك لم تأخذ مني فلسا واحدا، عندما كنت أقص شعري عندك وانا صغير..

الفصل الحادي عشر

لم يعد هناك شيء يؤخره عن العودة بسرعة لسيناءه، فقد انجز كل شيء، اوكل بيع المطحنة لصديقه المحامي حسن، الذي وجد مشتريا يدفع الثمن قبل سفره، اما مخزن الحبوب الذي انتفت وظيفته منذ عقدين ، فكر بتحويله الى مجمع سكني حديث. وبينما كان يفكر بمشروعه المستقبلي، تذكر حلم صديقه سعيد بوطن حر وشعب سعيد، شعار الحزب الشيوعي العراقي، فبإنتماءه للحزب طوى صفحة بائسة في حياته، وفتح آخرى نضالية، محى عار اميته وجهله.

ذات يوم قال نوح مازحا لصديقة القادم حديثا من الريف، أنت تشبه إنكيدو.. فسأله، بأي شيء يشبهني.. بقوتك، ولما سأله من هو انكيدو..

حكى له عن انكيدو، القوي المتوحش في البرية، وشمخه التي اغوته بحبائلها الأنثوية، حتى استنفدت قواه الأسطورية.. فراح سعيد يتباهى امام أخيه الاصغر مقبل باللقب الذي اسبغه عليه صديقه نوح، واتفق الصديقان على البوح بأسرارهما للبعض، ولما لم تكن لابن المدينة نوح، أي اسرار ليكشفها لصديقه الجديد ابن القرية، راح يختلق مغامرات دون جوانية من نسج خياله، لكي يفك عقدة لسان صديقة، الذي كان يتقمص في ذروة انفعاله، شخصية انكيدو السومري، فيطلق لسانه عن علاقة ماجنة مع امرأة قروية، كان يختلي بها في حجرة مضخة المياه، القصية عن بيوت الفلاحين، وصفها بالرائعة الجمال، والشهوانية النزقة بلا حدود، لا يشبع نهمها للجنس زوج مكدود دوما، فيشعر بالرضى، لأنه ادخل قليلا من الفرح لقلب امرأة تعاني الحرمان، وبأمس الحاجة لتلك السعادة المفقودة، كالماء الذي يروي أرضا متشققة من شدة العطش، كان هذا الوصف يثير نوح، الشاب المراهق ايما اثارة..

كانت الشيوعية الغربية المنشأ، التي إعتنقها سعيد، ردة فعل مباشر، واحتجاج قوي على بؤس العمال، كما ان التوحيد كان احتجاجا ايمانيا على تعدد الآلهة.

يعتقد سعيد ان تربة العراق ملائمة لبذرة هذه الأفكار الاشتراكية، بعكس صديقه نوح، فكان الجدل بينهما لا ينتهي، يؤمن نوح ان رجال المبادئ الإنسانية، يجب ان يكونوا ارقى من الناس العاديين خلقا، وذلك بالالتزام المطلق بالمثل العليا، لذا

عندما اكتشف ان ماركس كان رجلا آثما، لأنه انجب ولدا غير شرعي من خادمة منزله، سقط بنظره أخلاقيا، ولم يعد يقيم له وزنا، بعكس سعيد الذي لا يعير أهمية لهذه الأمور، فهو يفصل بين الشخصية والمبادئ، ويعتبر الانسان المثالي والمبرأ من العيوب، انسان متفوق على طبيعته البشرية، ولا وجود له في الواقع، ولكنه صنيعة الفكر الغيبي، كان هذا القدح بشخصية مؤسس الماركسية، يثير غضب صديقه الشيوعي، فيعير نوح بأفكاره السطحية والبرجوازية..

واللافت للنظر تحول سعيد المستمر، من قروي بسيط الى مناضل اممي صلب، يتخيل في غمرة حماسه ان العراق عاجلا او آجلا سيتحول للمعسكر الاشتراكي، خلاف ما كان يعتقد ويراهن عليه ابن عمته، الشيخ حامد الموحان، وقد تحدى سعيد امام نوح، فيما إذا تحقق حلمه يوما ما، فأنه مستعد ان يرمي عمامته البيضاء، وينظم للحزب الشيوعي فورا.

يا الله كان الشيخ حامد رائيا آخر، مثل نظيره المندائي.

يوم غادر نوح مدينته نهائيا، كان الطقس دافئا، مشمسا ورائعا، اكتفى بأخذ ملابس امه، والبوم صور كبير، كان فيه صور تذكارية، صورة تجمعه بأخيه الراحل منير، يظهر مدى التشابه بينهما، حمل معه كل تلك الأشياء الثمينة، وتوكل على الله، وسافر مبكرا، وهو منشرح الصدر، مرتاح الضمير، ومتلهف لرؤية سيناء بعد حوالي أربع ساعات، إذا سار بمعدل 90 كيلو مترا في الساعة، ولم يحدث شيء طارئ يؤخره عن الوصول.

لم يشغل باله شيء سوى سيناء، التي غاب عنها أسبوعا كاملا، وتركها نهبا للقلق والخوف، ولا بد انها الآن غاضبة عليه، ولكن لا بأس، ستسامحه بمجرد ان تراه واقفا امامها يبثها لواعج حبه واشتياقه، يسافر هذه المرة ولا يفكر بالعودة، وهو مرتاح الضمير، مطمئن النفس، لأنه كان طوال حياته مواطنا صالحا، لم يؤذ أحدا بشكل مباشر او غير مباشر، لم يشعل فتيل حرب، ولم يهن أستاذ شاب امام زوجته، ولم يزج مواطنين في مراكز الحجز، ويطردهم من وطنهم.. ولم يأخذ قلم حبر استاذه غصبا، وأن استمر يكرر (لم) فأنه سوف لن ينتهي منها إلا على أبواب بغداد.. لذا فتح نافذة السيارة وهتف بأعلى صوته...

أنا مرتاح الضمير.

كررها ثلاث مرات، مرتين أقل من الشيخ حامد، عندما كرر يوما ما في جامع النجارين كلمة '' يا الله '' خمس مرات.

لفحته لسعة هواء بارد، اغلق النافذة، وفتح مسجل السيارة، فملأ فضاءها صوت فيروز يصدح..

'' ياحبيبي كلما هب الهوى وشدا البلبل نجوى حبه، لفني الوجد واضناني الهوى كفراش ليس يدري ما به..''

مضى الوقت على أحسن ما يرام، لم يوقفه عسكري في أي من نقاط السيطرة، على امتداد الطريق، عند مداخل المدن والبلدات، كان يبطء السرعة، عندما يقترب من واحدة، استعدادا للتوقف، يرفع العسكري يده، يومئ بها بمواصلة سيره.. الاستثناء الوحيد حدث عند جسر ديالى، حيث كان طابورا طويلا من السيارات، متوقفا هناك عند نقطة السيطرة الرئيسة، قبل الدخول الى بغداد، توقف نوح، وعندما انتهى اليه العسكري، رفع يده وبإيماءة سريعة، تحرك نوح ودخل بغداد من أوسع أبوابها المفتوحة على اللمجهول..

استقبلته المدينة من مكان قصي، بأحضانها الدافئة، من جهة الجنوب الشرقي، نهاية توسعها العمراني، ضواح محتشدة بمنازل، معظمها ذات طابق واحد، وبدون حدائق، ولكن هناك ثمة أشجار متفرقة ومساحات خضراء، وعندما حاذى قناة الجيش، كان منظر الاشجار على جانبي القناة، وانتشار المشاتل الكبيرة، شيء يشرح الصدر، ولما كان نوح قليل الخبرة بخارطة مدنية كبيرة مثل بغداد، فقد أضاع وقتا زائدا في شوارعها المزدحمة، حتى افضى به اللف والدوران الى ساحة التحرير، قلب المدينة، ومركزها النابض بالحياة، كان يفكر عندما وصل هناك باستراحة قصيرة، في حانة صغيرة، قبل الذهاب الى المنصور، هناك حيث ستستقبله سيناء بدموع الفرح، وبكلمات العتاب القاسية، لكنه عدل عن الفكرة، وقرر مواصلة طريقه، فعبر الجسرعلى نهر الدجلة الى جانب الكرخ، فشاهد النوارس البيضاء تحلق فوق النهر وعلى ضفتيه، شعر ان زعيقها لامس احاسيسه المتفتحة للحياة نحو بدايات جديدة، كان قد فكر بها اثناء فترة وجوده في مدينته، صحيح ان

الحرب اربكت المسارات، وأدت الى تداخلها ببعض، محدثة فوضى عارمة في جميع الاتجاهات، ضبابية وعدم وضوح في الرؤية، ابرز ما تنتجه الحرب الغموض،الخوف، وتجميد المستقبل، الأولوية للحاضر، لليوم الذي يعيشه الانسان.. ولئن كان لها دور هام في تجميد الرؤى المستقبلية، لصالح القوة والعنف، اللتان توارثهما الانسان من عصور غابرة، فأنها أيضا أيقظت الضمير على الإحساس بالآخر، الذي يواجه نفس المصير، فهي صحوة، وسط ضباب الأحاسيس.. فهناك مجالس العزاء تقام في كل مكان، في الازقة الضيقة امام البيوت، حيث تنصب الجوادر التي تسد الطرق، يأكل فيها الفقير، وتسمع فيها تلاوة القرآن، وتتبادل فيها عبارات المواساة، ويحتل الحزن مساحة اوسع في حياة الناس، للحرب وجه بشع، ولكن فيها شيء اخر أيضا، يحسب لها، الشجاعة، التضحية، والألم المتوج بالروح الإنساني..

وصل الأستاذ نوح الى المنزل الذي تقيم فيه سيناء مع ابيها، أوقف السيارة عند السياج، نزل ودق الجرس الكهربائي الذي بجانب الباب الحديدي الأسود، فتفاجأ بها تفتح له الباب. عانقته بحرارة وبكت، وبكفيها الناعمتين راحت تكيل لصدره ضربات سريعة متوالية، تركها تشبعه ضربا، وهو يضحك منتشيا، لأنها قرعت ذاك الباب الذي كان موصدا بوجهها، طوال الأسبوع الذي امضاه بعيدا عنها.. كان هذا هو العقاب الذي يستحقه رجل من امرأة رائعة ربطت مصيرها به في فترة زمنية قصيرة.

- هل كنت تتوقعين وصولي في هذا الوقت بالضبط ، فإنتظرتي عند الباب، ام أنها المصادفة الجميلة.

حاولت سحبه ليدخل، ولكنه لم يتحرك، عندما أخبرته، انها لوحدها في البيت، فكر أن يقضي وقتا في الخارج، حتى مجئ الأب، قصد مقهى قريب، وفي اللحظة التي خطى داخله، كان صوت التلفاز عاليا، يصدح بأغنية ’’حنه مشينا، مشينا للحرب، عاشق يدافع من اجل محبوبته‘‘

استقبله النادل المصري بابتسامة ترحيب، طلب نوح كوب شاي وكأس ماء، جلس في ركن بعيد عن الشارع، راح يفكر بكلمات الاغنية وهو يرتشف الشاي،

فقال في نفســه، يا الله ما هذه العلاقة الغريبة، بين نقيضــين، لابد ان كاتب الاغنية اختلط عليه الامر، فزج كلمة الحرب إرضـــاء للهوس، الذي هيمن على الأجواء العامة، وعندما عاد نوح الى البيت، التألم شــمل الجميع على مائدة العشـــاء التي أعدتها سيناء، احتفاء بعودته من السفر.

دارت الأحاديث كالمعتاد حول الحرب التي تصــدرت نشــرات الاخبار العالمية، خاصة وأنها باتت تراوح في مكانها، اما التهجير القسري على خلفيتها وقبلها، فلم يتوقف، كان منذ البداية عملا ممنهجا، يهدف للتخلص من مواطنين من الدرجة الثانية، اقلية صـــامتة، قد تنفجر متى ما تهيأت لها الفرصـــة، وهذا ما كان يقلق النظام. تحدث الحاج إبراهيم عن التغيرات المستمرة في تركيبة سوق الشورجة، منذ تولي الرئيس زمام الحكم، أكبر سوق تجاري في بغداد والتي كان يهيمن عليها منذ عقود من الزمن، تجار اكراد فيليون، واخرون من أصــول إيرانية بعيدة، ومن قبلهم في الأربعينات، تجار يهود عراقيون، وتكلم عن ابعادهم في المشـــاركة في الحكم، فاتجهوا الى مجالات أخرى، والآن يحاربونهم في مصدر رزقهم، يسعون لتعريب السوق.فهل كان من قبل إيرانيا، الم تكن الشورجة منذ القدم سوقا بغداديا ذائع الصيت، ضاهى في شهرته سوق الحميدية، هذه عقلية عقيمة، لرئيس لا يفهم بالسـياسـة ولا بالأقتصــاد، لا يريد ان يترك اقتصــاد البلاد لذوي الخبرة، دون ان يتدخل فيه.. تدخل نوح بطرح رأيه، هل تعتقدون ان هذه المطاردة ســتنتهي يوما، أقول لكم لن تنتهي ابدا، لأنها جوهر السياسة في العراق، وقد نشأت عليها دول في التاريخ، المطاردة هي اللعبة المفضـــلة، اليوم انت الطريدة وغدا انت القناص، وهكذا تدور عجلة السياسة ولن تتوقف ابدا.

علقت سيناء على كلام الأستاذ نوح.

- نوح يفلسف اراءه بطريقة غريبة، هل تفهمان ما يقول.

دافع نوح عن رأيه، بأنه يفكك التشابك بين الاحداث، ويستنطق الماضي ليفهم الحاضر.

- وما الحل برأيك يا أستاذ نوح ، كيف نخرج من هذه اللعبة الخطرة.
- بتدخل النبي العزير..

قاطعه الحاج إبراهيم.

- النبي العزير المذكور في القرآن، ابن الله.
- نعم هو..عمي الحاج سبتي يعرف المكان المدفون فيه.

تدخلت سيناء ونصحتهما الا يأخذا كلامه على محمل الجد، انه أحيانا يخلط بين الجد والهزل. ولكن العم ابراهيم اصر ان يعرف.

- وكيف سيكون الحل عند نبي مات منذ آلاف السنين.
- الله اعلم، هذا ما ستكشفه لنا الأيام.

ضحك الجميع، ولكن كما يقال شر البلية ما يضحك.

دار الحديث بعد ذلك عن اليهود ليتشعب الى مواضيع شتى، كان من بينها حوادث الفرهود عام 1941، التي طالت اليهود في العهد الملكي، خلال يومين، الأول والثاني من حزيران، وما رافقها من اعمال سلب ونهب وقتل مروعة، وكان الحاج إبراهيم آنذاك صبيا، وشهد بنفسه تلك الاحداث، ويتذكر شابا مسلما يعمل في محل اقمشة، يملكه يهودي بسوق دانيال، كان يعشق ابنته، وعندما بدأ تهجيرهم الى إسرائيل، التجأت الفتاة الى بيت حبيبها، وتوسلت بوالده ان يوافق على زواجهما، لكن الأب رفض، وكانت حجته انه لا يريد ان يتربى حفيده او حفيدته، في أحضان ام يهودية، فهدده الابن بالانتحار، لكن قلبه لم يلن، وهنا تدخل والدها وإستخرج له وثيقة تثبت بأنه يهودي، وهاجر مع حبيبته..

وافق نوح على أن الاحداث التي كان الحاج إبراهيم شاهدا عليها، تؤكد ما قاله قبل قليل عن المطاردة، ولكن فيها جانب انساني، نهاية رائعة لقصة حب، وتمنى أن جميع مشاكل العراق تنتهي هكذا، بالحب فقط.. وان العلم قد أكد ان المشاعر الطيبة والايجابية، تساعد الانسان على الشفاء من الأمراض النفسية وحتى البدنية.

استمرت المسامرة، وتجاذب أطراف الحديث حتى منتصف الليل، ثم انفرط الجمع، وقام كل منهم وذهب الى غرفته لينام، على امل صباح جديد، يشرق بشمس بيضاء بدون حرب، ومطاردة مواطنين ابرياء، تحولوا بين ليلة وضحاها اكباش فداء..

جلس نوح في سريرة يفكر بالشاب جاسم اخ هيلا، وبصديقه المحامي حنا، الذي انقطعت اخباره، منذ اخر زيارة قام بها، قبل وفاة المرحومة، وكان اول شيء قام به عند الصباح شراء كل ما يحتاجه الشاب المحتجز من أشياء ضرورية، وعندما ذهب لزيارته سأل عنه العسكري الواقف عند بوابة المعسكر، فأخبره انهم نُقلوا الى سجن ابي غريب، وهناك لا يسمح بالزيارة، وعندما سأله نوح عن جاسم، قال انه يعرفه، الشاب الأبيضاني، كان طيبا، يوزع ما لديه على المحتجزين وعلى الجنود المكلفين بالحراسة..

اما صديق نوح المحامي حنا، فبعد السؤال والتقصي عنه، توصل الى معلومة مفادها انه اما ان يكون قد أُعتُقِلَ او قُتِلَ. ولا يعلم ماهي تهمته، ربما كان من ضمن مجموعة الثلث الذين تم تصفيتهم من القيادة، حال استلام الرئيس الحكم.. قال نوح يا ألهى لقد اعتاد الناس في شتى بقاع العالم، على سماع اخبار جيدة وأخرى سيئة، ومن العجيب اننا نسمع اخبار واحدة كلها سيئة، ومع ذلك لا نصاب بكآبة نفسية حادة، ولا ننتحر..

ما السر في ذلك، هل ان اعصابنا قدت من فولاذ، ام ان الاعتياد على مثل هذه الاخبار، خلق فينا مناعة او قناعة بعدم التذمر، او حتى الشكوى، لان الشكوى كما كانت تقول امي لغير الله مذلة، او لأن ليس لاحد مقدار من الحزن اقل من الآخر، كل يستلم حصته بالتساوي، او أحيانا يحتمل أحدنا حصصا إضافية..

أي شعب يحتمل كل هذه المآسي، كما يحتمل هذا الشعب.. يارب، وتضرب لنا مثلا عن صبر أيوب!

انه كما قالوا 'جملا في صحراء يحمل على ظهره جبلا عاليا'.

مرت الأيام وجاءت مناسبة الأربعين على رحيل والدته، زار قبرها وبكى وذرف الدموع فشعر براحة نفسية، ققل راجعا ليبحث عن منزل يستأجره، ريثما يبني المنزل الذي سيكون عش الزوجية، أما الآن فلديه شيء واحد، اولوية أن يحدد موعدا لزفافه على سيناء، عرض عليه الحاج إبراهيم الإستجمام في مزرعته بالجادرية، حيث بنى هناك منزلا ريفيا وقام بتأثيثه بنفسه، لم تبق سوى حفلة الزفاف وقد أقيمت في نادي المهندسين بالمنصور، بعدها إنتقل مع زوجته الى

منزل الحاج إبراهيم الريفي، وأمضى احلى الوقت مع حبيبته، بين أشجار النخيل والبرتقال، ونسائم الدجلة العليلة، وتعرف على البستاني وعائلته، وقال في نفسه وهو ينعم بهذه السعادة التي اغدقتها السماء عليه، كمطر هطل في اوانه، فأنعش ارضا عطشى، ادرك انه أخطأ في حكمه الأحادي على الأشياء، حيث ان في عمق المأساة ثمة بصيص من الأمل، وفي اخر الليل تشتد الظلمة قبيل انبلاج الفجر، وان ذرة الغبار التي تؤذي الانسان، تكون نواة لحبات المطر في الصحراء، وان الثنائية هي المحور الذي تتحرك عليه عجلة الحياة، كان قد اقتنع ان الهرب من الوطن عند الازمة يعتبر خيانة، وان أولئك المواطنين، الذين الصقت بهم التبعية الأجنبية، هم مواطنون عراقيون لانهم استماتوا من اجل البقاء كما فعل اخوانهم اليهود العراقيين، الذين هجروا قسرا الى اسرائيل من قبل، ولا غرابة ان ماتوا معنويا في منافيهم بعيدا عن الوطن، الذي ترعرعوا فيه، جاءوا مع سبي بابلي ونفوا بعده بقرار سياسي، فالشجرة المتجذرة في الارض تموت عند اجتثاث عروقها من التربة.. ولا يفهم هذه الأمور أولئك الذين نفذوا عملية التهجير، لذا فكر بعد تأمل طويل، اثناء اقامته في المنزل الريفي، برغبته في مقابلة الرئيس، نعم رئيس الجمهورية بشحمه ولحمه، وعندما اتخذ نوح القرار، عين اليوم الذي سيذهب فيه الى استعلامات القصر الجمهوري للحصول على موعد، وعندما عرض الفكرة على سيناء ضحكت منه واختصرت فشل محاولته مسبقا، فقالت ساخرة، ستعود بخفي حنين أو كما نقول بلهجتنا المحلية، ''تيتي تيتي مثل ما رحتي جيتي''

كانت سيناء تجلس مع زوجة البستاني، وكان الحديث بينهما يدور حول قلق المرأة على ابنها المجند، الذي التحق بوحدته العسكرية، قبل مجيء سيناء ونوح، سألت امرأة البستاني سيناء عن صحة الكلام حول وساطة إسلامية لوقف الحرب، فطمأنتها سيناء بكلمة تمني وامل ودعاء حار، نبعت كغصن زيتون اخضر وحمامة سلام بيضاء من أعماق قلبها:

- إن شاء الله ستتوقف يا خالة..
- اطالت المرأة النظر لوجه سيناء، كأنها تريد ان تؤمن حقا بما قالته، وأن السلام سيحل فعلا كما قالت. ورددت بصوت منكسر، مستسلم وخافت.

- إن شاء الله.

كان نوح اثناء غياب زوجته يهمس لنفسه منفعلا، سأقابله أخيرا، ولكن ليس من أجل نفسي، انا شخصيا لا اطلب شيئا، سأقابله من اجل الناس البسطاء، ولكن ليس كما يفعل الرجل المتملق والمنافق الجبان والمداهن المحتال، لأني سأقول لفاقد البصر انت اعمى، ولا اكذب عليه فأقول له انت بصير، وأقول لمن فقد عينا واحدة انت اعور، ولا أقول له انت كريم العين، ارتفع صوته فقال ليست المشكلة في الحكام، المشكلة فينا نحن الذين نكذب ونخدع ونخون أنفسنا، او كما قالوا من قبل وصفا لهذا السلوك الشاذ، ''يصانع ويضارع ويتبع المطامع''

عادت سيناء فكلمته عن امرأة البستاني، اتفقا على مساعدتها بشيء من المال قبل مغادرتهما.

- المسكينة قلقة جدا على ابنها.
- لم يعد القلق اضطراب نفسي يصيب المفكرين والشباب المنطوين على أنفسهم، وهاجس يلازم الموسوسين على صحتهم، والتجار على اموالهم، صار مرض عامة الناس.

ظلت فكرة مقابلة الرئيس تراوده، ولا تبارح خياله، استحوذت عليه بقوة، وعندما نصحته سيناء بالتخلي عنها، قال لها انه لا يستطيع، لأن تنفيذها سيجلب له الراحة النفسية والسلام الداخلي، وعدها انه بعد ذلك سيكرس حياته لسعادتهما المشتركة. ويتفرغ لصناعة اثاث المكاتب الحكومية، لما فيها من مستقبل واعد، وتوفير عملة اجنبية للبلاد، تذهب عادة على استيرادها من الخارج..

- اعدك حبيبتي أنى سأكون واحد من أبرز أعمدة الاقتصاد الوطني في العراق.

وبينما كانا مستلقيان على السرير، يتحدثان عن المستقبل، كان هناك في مكان ما، بعيد، تدور ماكنة الحرب، فيخفي الظلام قبح الأشياء، وهنا في البستان، يخفي جمال النخيل واشجار البرتقال، كان نوح ينظر لوجه سيناء بوله، ويخفي في نفسه رغبته العارمة بمقابلة الرئيس وجها لوجه.

كان الهدوء يهيمن على المنزل الريفي وما حوله، النهر يجري متهاديا في جريانه، والعصافير والطيور هجعت في قلب الأشجار الكثيفة، ولا أحد يعرف بمكان نوح وسيناء سوى صاحب المزرعة، الحاج إبراهيم وأبو سيناء والبستاني وعائلته، أي سعادة هذه، لا تقدر بثمن عندما يشعر المرء بالأمان وينام مطمئنا هانئا في فراشه.. فجأة قال نوح.

- تخليت عن مقابلة الرئيس، ليذهب للجحيم.
- الحمد لله.. تحررت الآن من مشكلة كبيرة، ماذا بعدها.
- بقي شيء واحد.
- يا الله.. ما هو.
- أوراق المحامي حنا التي اودعها عندي.
- قد تنزل علينا مصيبة إذا لم تتخلص منها..
- كيف اتخلص منها، ربما دفع حياته ثمنا لها، ومقبل وسعيد وآلاف غيرهم فعلوا ذلك، ما الفرق بيني وبينهم.
- هم اختاروا هذا الطريق بمحض ارادتهم.
- هذه هي فرصتي الأخيرة يا سيناء، فإن لم افعل، سأبقى انسانا عاجزا، ضعيفا وجبانا، ولن أستطيع حتى حمايتك، امنحيني هذه الفرصة لأبرهن لك انني رجل يستحقك بجدارة.
- اين هذه الأوراق.
- لا تزال في المكان الذي خبأتها فيه.
- اين.
- في السيارة.

احضر نوح الأوراق، قلبها بسرعة، كانت وثائق خطيرة، عن إنتزاع إعترافات تحت التعذيب الجسدي والنفسي، افضت باعدام متهمين امام محكمة أمن الدولة.

- لم اقل لك انها مصيبة.
- سأعيدها لمكانها. اعرف ان وجودها في حوزتي، مجازفة كبيرة.
- مخاطرة يا نوح، نحن في غنى عنها.
- لا تخافي، الخوف أحيانا أقسى من الموت نفسه.

- لماذا المجازفة.
- هذا هو واقعنا يا عزيزتي سـيناء، وانه قاس ومؤلم، وسـأكون كاذبا ان الونه بألوان زاهية، كي يقال عني متفائل.

وعلى الأنسان ان يتعلم من الواقع درسا، ان ينحني للعاصفة حتى تمر، كما تعتقد سيناء..

اقنع سيناء بالسفر الى عمان لقضاء شهر العسل، وإستطاع ان يهرب الملف بدسه بين الصور الشعاعية والتقارير الطبية التي تعود لأمه، وضعها ظاهرة للعيان، فوق الملابس، لأبعاد الشك، وعندما سؤل عنها عند التفتيش في المطار، قال انها تقارير طبية لزوجته المصابة بالسرطان، يسافر معها للعلاج في الأردن.

نظرت سيناء لرجل الأمن ولزوجها باندهاش وحيرة، لأنها لم تسمع ما دار بينهما، تنفس نوح الصعداء، وشعر ان شيئا من الخوف، اليأس، القلق، والغضب، مزيج غريب من مشاعر متناقضة، قد اخذت تتفكك تدريجيا وتتلاشى سريعا، ومعها انزاح الم مكبوت في صدره، وحينما استقر بجانبها، في مقعده بالطائرة، المتجهة لعمان ، سألته سيناء.

- لماذا تمنى لي رجل الامن الشفاء.
- لا أدري.. ربما لانه رأى وجهك ممتقعا بالصفرة فظنك مريضة، أكنت خائفة يا سيناء.
- خائفة.. مرعوبة من الخوف، هذه اول مرة اسافر فيها خارج العراق.
- مع أنك تحملين جوازعراقي فإنت أجنبية بنظرهم، رغم لهجتهك الميسانية الجنوبية التي اموت فيها، وأنك درست الادب الإنكليزي بجامعة بغداد.. أي تناقضات هذه التي جُمعتْ كلها في شخصيتك يا سيناء.
- اسألهم.. لماذا تسألني انا.

أقلعت الطائرة، فكانت كلما ارتفعت في الجو بضعة مئات من الأمتار، تناقصت همومه قليلا، قال في نفسه، آمل قبل ان نعبر الحدود، سأجمع ما تبقى منها وسأرميها من النافذة الجانبية، وسأرها كمظلة سوداء تهبط للأرض التي غادرناها قبل دقائق معدودة، وتركنا فيها تاريخ حياتنا وذكرياتنا.

ارض الوطن التي أحبها بعنف، وكان مســـتعدا ان يموت من اجلها، والتي تركت بصــمتها الأبدية على حياته، كما تركت أيضــا وصــمتها الأبدية على جباه آخرين دأبوا على تدميرها.

الفصل الثاني عشر

اقام مع سـيناء بجبل عمان بفندق في الدوار الأول، وكانا ينزلان كل يوم لوسـط البلد، يمران في طريقهما على جبل القلعة والقصور الملكية، يمضيان الظهيرة في

القلعة يزوران المتحف، يستمعان لشرح بالانكليزية، يلقيه دليل أردني على مجموعة سياح اجانب، فتقول سيناء.

- بأمكاني ان أتكلم أفضل منه، لديه لهجة قوية.
- السياح الأجانب، تبهر عيونهم الاثار فلا يعيرون اهتماما باللهجه، تعودوا على سماع الانكيزية بلهجات مختلفة..
- ليس لدينا نفس الاهتمام بآثارنا.
- اكثرهم كبار السن، رجالا ونساء، يحملون حقائب الظهر، وملابس سفر عمليه.
- هل توجد نقاط سيطرة عندهم بين المدن.
- أتمزحين يا سيناء، نقاط سيطرة.
- تخيلت ان كل دول العالم مثلنا.. قاطعها نوح بلطف.
- ليس كل دول العالم، لكن الدول التي مثلنا بالطبع، اما هم فلديهم في محطات الوقود، على الطرق السريعة بين المدن، أماكن استراحة، تشربين فيها القهوة الساخنة، او تتناولين وجبة طعام سريعة، هم يا سيناء اسعد منا حظا، ولكن نحن أكثر منهم ايمانا.
- ايمانا بأي شيء.
- بالوطن بالله بالحزب بـ.. قاطعته سيناء.
- لو استمريت تعدد لما انتهيت حتى نعود للفندق..

يتركان المجموعة، عند نهاية الحوار بينهما، لالقاء نظرة على الاعمدة الباقية لمعبد هرقل، ونظرة آخرى قرب حافة الجبل من الأعلى، لحركة السير الدائبة في شوارع المدينة، ثم ينزلان من منحدر للطريق، يستقلان سيرفس لوسط المدينة، هناك يتناولان وجبة الغداء، يتجولان في الأسواق، يمران على محل للذهب تبرق حليه ومصوغاته من خلال الفاترينه الزجاجية تحت اشعة الشمس، دون ان تلتفت اليه، يسألها فجأة.

- الا يثير فضولك الذهب يا سيناء.
- لا.. لماذا يثيرني.

- لا اتخيل امرأة عراقية لا يثيرها الذهب، ربما انت المرأة الوحيدة التي لا يجذبها بريقه المدهش.

- الم تســـمع المثل الذي يقول ''الذهب يذهب'' وانا كما قال نبي الله إبراهيم، لا أحب الآفلين.

- ويقال أيضا انه زينة وخزينة.
- كذب.. لأنه عرضة للسرقة.
- وما الشئ الذي برأيك يستحق الاحتفاظ به، ولا يسرق منك.
- البيت..
- ولكن كان لنا بيت واخرجونا منه.
- قلت اخرجونا، نعم ولكن لا يســتطيع أحد ان يمنعنا في المســتقبل من العودة اليه.

امضـيا سـاعة في التجوال، وسـاعتين امام مدرج المسـرح الروماني بعد المغيب، عادا الى الفندق متعبين، اسـتلقيا على السـرير العريض، تبادلا القبل العميقة، التي تجيد فنها سيناء ويمتن لها نوح، ولم يشعرا إلا وهما غارقان من قمة رأسيهما حتى راحتي قدميهما، في بحر يتماوج من وراء الخيال، ارتفعا شـيئا فشـيئا، في سـلم اللذة، حتى بلغا أوجه، ثم هبطا كما هبط آدم وحواء من الجنة الى جحيم الأرض، فشـــعر نوح بالمتعة التي كانت في متناوله، تنأى عنه بعيدا، شـــعر انه اقترب من الموت سريعا، ثم خطفه منه في لحظة أسرع، شيء يجهل كنهه..

شعرا بالجوع، فاتصل نوح بخدمة الغرف، وطلب طعاما وقنينة بيرة، لم تعترض سيناء، لكنها سألته.

- أكنت تشرب قبل تعارفنا، أجاب عن سؤالها بقبلة سريعة.
- الم تكوني انت منبع الغواية..
- وكنت انت الساذج الذي وقعت سريعا في الفخ.
- إذا نحن سواء لا فضل لأحدنا على الآخر.

في صباح اليوم التالي اشترى لها حقيبة ظهر بلون قرنفلة زهرية، وحقيبة له ذات لون رمادي فاتح، أسـتأجر سـيارة اخذتهما الى اطلال جرش، تصـرفا كسـائحين،

فهما من حيث المظهر، يبدوان من جنسية بلد من بلدان حوض البحر المتوسط، وفي مدينة جرش تعرفا على عائلة اردنية شركسية، كانت المرأة والرجل في أواسط العمر، يظهر عليهما امارات الغنى وبحبوحة العيش، دعوهما لفنجاني قهوة في منزليهما، شعرت سيناء بالإحراج المشوب بالخوف، عندما قبل نوح الدعوة على الفور، استقلا معا سيارة المرسيدس الحديثة، التي كانت مركونة على الجانب الآخر من الرصيف، امام الاطلال، اقلتهما الى فيلا جميلة، مشيدة على رابية مرتفعة قليلا، في ضاحية الشميساني الراقية، وعند اقترابهم من البوابة انفتحت ذاتيا عن بعد امام السيارة، تركاها تحت تعريشة عنب، ومشوا بضعة امتار، وارتقيا عدة درجات لمدخل الفيلا، قادهما الزوجان لصالة الاستقبال الكبيرة، البيضوية الشكل، واجلساهما امام نافذتين تنسدل عليهما ستائر بيضاء، مخرمة ومطرزة بخيوط ذهبية اللون، تلامس الأرضية المفروشة بالسجاد الفاخر، وبعد ان جلس الضيفان، رحبا بهما بحفاوة بالغة، انسحبا، فجاءت خادمة اسيوية، ازاحت الستائر، وفتحت النافذتين على الجهتين، فتسلل الهواء الذي كان يهب على الحديقة الخلفية، ويحرك الأشجار، هب نسيما محملا بروائح جبلية طيبة، عاد الزوجان بعد اقل من خمسة دقائق، ورحبا بسيناء ونوح بحرارة مرة اخرى، وجلسا معهما، جاءت الخادمة تحمل صينية القهوة وكؤوس الماء، وضعتها على الطاولة وخرجت، تبادلوا اطراف الحديث، اثناء ارتشافهم القهوة، كان نوح يتوجس ان يأخذ الحديث منحى سياسيا، او يجرهم لسيرة الحرب، التي مضى عليها السنة تقريبا منذ اندلاعها، ولكن الرجل الاردني لم يسال ضيفه العراقي عنها، رغم انها كانت آنذاك موضوع حديث الناس، ارتاح نوح لأدب الرجل وفطنته، فالحرب تعلن عن نفسها على قدم وساق، تحتل الصدارة في نشرات الاخبار، ولذا لا حاجة اذا لتعكير المزاج، في مثل هذه اللقاء الذي جمعهما للتعارف، إذ تغلب عليه لغة المجاملة، عرفهما السيد الأردني بنفسه، وقال انه متقاعد الان، وكان قبل سنة موظفا بديوان التشريفات الملكي، وزوجته تحمل دكتوراه بعلم النفس، وتُدرس في الجامعة الأردنية، تحدث نوح بينه وبين نفسه. الرجل وزوجته شخصيتان بمستوى اجتماعي مرموق وثقافة راقية.

كانت السـيدة في الاربعينيات، شـعرها يميل للشـقرة، يتوج وجه ابيض جميل، تضـيئه عينان عسـليتان ذكيتان وضـاحكتان، امرأة ذات ملامح عذبة، مزيج من دماء روسـية وقفقاسـيه. ويبدو انها أصـغر منه بعقدين أو أقل، ولكن فارق العمر الكبير بينهما يكاد ان يختفي عن العيان، فهو يتمتع بصـحة جيدة وبنية رياضـية، ويبدو من مشيته وقيافته، انه كان عسكريا.

عند العصر دعوهما للجلوس في الحديقة، أشار السيد الأردني بيده.

- هذا جبل اللويبدة، وتسـميته جاءت حينما كان اوائل المهاجرين الشـركس، الرعاة الفقراء يلبدون في البرد القارص، بين صـخوره طلبا للدفء، وكان اجدادي من أولئك المغامرين الذين انحدروا بسـبب الحروب، من موطنهم الاصلي في جبال القفقاس، واستقروا بعد هجرة طويلة في هذه البلاد، كدحوا وعمروا من اجل مستقبل ابناءهم.
- متى حدث ذلك.
- في أواسط القرن التاسع عشر.
- احدثك سيدي عن قوم يشبهون الشركس من حيث الموطن الجبلي، يسمون الكورد الفيليين، انحدروا من المناطق الجبلية داخل العراق، على الحدود الإيرانية، واستوطنوا المدن السهلية على ضفاف الأنهار، هربا من شظف وخشـونة العيش، وقسـاوة برد الجبال، واندمجوا مع اخوتهم العرب منذ عشرات السنين، ولكن بقوا اجانب بنظر الحكومات العراقية المتعاقبة، وقد تعرضوا حاليا لحملة تهجير قسرية الى إيران، لا تزال مستمرة حتى الان، وزوجتي من هؤلاء القوم، مهددة بالإبعاد في أي وقت.
- كيف هي اجنبية وبنفس الوقت تحمل الجواز العراقي.
- وهي أيضا مدرسة في احدى مدارس العراق.
- هذا تناقض صارخ.
- وسـائل الاعلام غير مكترثة بهذه المشـكلة، والمنظمات الدولية بدأت تعير اهتماما لمعالجة اثارها.
- إذا قبلتما وسـاطتي، سـأكلم رئيس ديوان التشـريفات الملكي، زميل قديم في العمل وصديق حميم، وسيحصل لها ولعائلتها على ضمان بعدم التسفير.

- لو كانت المشكلة فردية لهان الامر.
- اعرف ان رئيسكم يحب شعبه.. قاطعته زوجته بلطف وهي تبتسم.
- وكما يقال.. ومن الحب ما قتل.

ضـــحك الجميع لتلك الدعابة المبطنة بروح تهكمية مرحة، تتمتع بها الدكتورة، التفت السيد الأردني لنوح، وهو لا يزال يقهقه..

- انت كما عرفتني بنفسـك، كنت سـابقا مدير بنك، وتحمل شـهادة ماجسـتير بالادارة، وزوجتك مدرسـة، عرضـي الثاني ان تقبلوا وساطتي للتوظيف في مجال اختصاصكما.
- سيدي أن كلمات الشكر والامتنان، عاجزة ان تعبر عن مشاعري، تجاه هذا الكرم، وحفاوة الضـيافة التي غمرتمونا بها، انت والسـيدة الدكتورة، بالرغم من قصر مدة التعارف بيننا..
- نحن احببناكما، اما المدة سـواء كانت طويلة او قصـيرة، فشـيء ثانوي، خاصــة عندما يلتقي الناس بآخرين يتمنون لقاءهم كما حدث بيننا. ها ماذا تقول.
- كما قلت لكم سـيدي المحترم، نحن جئنا هنا لقضـاء شـهر العسـل في بلدكم المضـياف والرائع، ولم نكن نفكر بالعمل، ارجو ان تترك لنا وقتا للتشـاور والتفكير.
- حسن.. على راحتكم..

وفي العاشرة مساءً، أعاد السيد وزوجته ضيفيهما الى الفندق، وعندما توقفوا امام المدخل، اقترحت السـيدة القيام برحلة للغور، احتفاء بهما، وقالت سـيكون السـائق عندكما غدا السـاعة الثامنة صـباحا، ارتدوا ملابس خفيفة لان الطقس دافئ هناك، نظرت سيناء لزوجها، فهي بطبعها المحافظ، غير متسرعة باتخاذ اي قرار، مهما كان بسيطا، ابتسم نوح لسيناء فبدد ترددها، وقبل الدعوة شاكرا، كانت فعلا رحلة لا تفوت، لمكان قلما يأتي اليه السـياح آنذاك، قضـيا وقتا ممتعا، التقطوا صـورا تذكارية للمكان الذي عُمد فيه السيد المسيح بمياه نهر الأردن، كم مدهش ان تستعيد الزمن بمجرد القاء نظرة، فيحلق خيالك بعيدا، يرسـم صـورة ثلاثية الابعاد، تبعث الحياة في الماضـي، ثمة قناطر حجرية يجري من تحتها الماء الى برك، نزل نوح

درجات الى واحدة كانوا يقفون فوقها، اغترف بكفيه الماء وغســل وجهه، كانت رغبة عارمة تدفعه ليتعرى، يرمي نفســه بالماء، يرتمس فيه كما يفعل المندائيون في طقوس التعميد، كان يريد ان يتطهر من كل ما علق في روحه من شــوائب، ويغسل جسده أيضا استقبالا للموت، الذي يحب ان يحتضنه كما فعلت امه، نادت سيناء عليه، صعد والتحق بهم، قال السيد هذا المكان سيشهد في المستقبل القريب اقبالا كبيرا من السياح الأجانب، تذكر نوح المياه الجارية التي يسميها المندائيون اليرد نه فقال اعتقد ان اسم نهر الأردن مشتق من كلمة اليردنة المندائية، واستطرد بحماس منقطع النظير يسرد قصة الحضارة السومرية، اصغى اليه السيد والسيدة بانتباه واعجاب، وأجاب عن اسـئلتهم واســتفســاراتهم، كما يفعل عادة الادلاء المهنيين في المتاحف والمواقع الاثرية، ابدى الزوجان اعجابهما بحضارة العراق، وتأســف الســيد لحالة انعدام الاســتقرار فيه، فندت عن نوح صــرخة مكتومة، كاحتجاج صامت، فقال متحسرا، لماذا.. فهم السيد المعاناة التي يرزح تحت وطأتها ضـيفه العراقي، تعاطف معه، قال، هون عليك يارجل غمة طارئة وتنجلي انشــاء الله، وقبل انسحابهم من المكان، أشار السيد بيده، هناك جبل الشيخ، ولو مكثنا حتى المساء لتمكنا من رؤية أضواء القدس في الليل..

اتصل نوح بأخيه الدكتور ممتاز، على هاتفه المنزلي بلندن، فعلم منه بوفاة موسى الكيال، تلقى الخبر بشكل عادي، ولكن

''توفى والدنا'' التي قالها الدكتور اربكته، فأدرك ان الراحل كشــف الســر لابنه الاكبر، قبيل وفاته، وعلم من اخيه الدكتور ان امرأة اتصـلت به من ايران، عرَّفتْ عن نفسـها أنها هيلا، قالت ان المرحوم توفي في بيتهم، بعد خروجه بفترة قصيرة من مخيم اللاجئين، وانها وأمها اعتنتا به حتى وفاته، واعلمته بمكان مدفنه في مقبرة المدينة بقم، وأنه سـيسـافر الى ايران، وأقترح على أخيه نوح، السـفر أولا الى سوريا، للحصول على تأشيرة خاصة من السفارة الإيرانية بدمشق، طمأنه، انهم لن يختموها على جوازه، فرد عليه، سنتفق على موعد السفر، ونلتقي هناك..

هنأ الدكتور أخيه على الزواج، وقال ســأبعث هديتي على عنوان الفندق الذي تقيمان فيه بعمان، وطلب أن تأتي سيناء في المرة القادمة، كي يهنئها هو وزوجته، وعده نوح، وقال سنتصل بك غدا صباحا، فقال الدكتور وداعا، سأنتظركما.

وفي اليوم التالي، كانا في البريد المركزي، وتم الاتصـــال بأخيه ممتاز في تمام الساعة السابعة صباحا بتوقيت لندن، دار الحديث بالتناوب بين أربعة اشخاص، نوح، الدكتور ممتاز، ســيناء، والدكتورة زينب زوجة اخيه، انتهت المكالمة بعد ثلاثين دقيقة، كانت عقارب الســاعة في دائرة البريد تشــير الى التاســعة وخمس وثلاثين دقيقة، عندما خرجا من البناية شبه المعتمة، الى شمس آذار/ مارس، التي سطعت بقوة في الشارع العماني، استقبلا بوجهيهما هواء منعشا، فيه لسعة برد لطيفة، كانت سيناء متأخرة بضعة امتار عن نوح، تسوي اثناء لحاقها به، لفاعها الصوفي حول رقبتها، ورأت نوح يدس يديه في جيب سترته، سائرا امامها، قاطعا المســافة بين مدخل البريد وحافة الرصــيف، وقفت، تأملت قامته المعتدلة الطول والنحيلة، قصاص الشعر في مؤخرة رأسه، قالت لنفسها عليَّ ان انبهه ليقص شـــعره الطويل، رأته واقفا يحاذي الرصــيف، التفت اليها يحثها على اللحاق به، لكنها لم تتحرك، صاح يناديها، سيناء ماذا دهاك، كانت شاردة الذهن، انتبهت اليه مرتبكة، وتحركت نحوه قاطعة المســافة القليلة بينهما، وقفت بجانبه تنظر اليه بعينين زائغتين، قلقتين، لا تطرفان، التحمت يدها بيده، التي اخرجها للتو دافئة من جيبه، ســألها، لماذا كنت واقفة كالجماد، رأيتك تحملقين بالفراغ باندهاش وخوف، ماذا اصــابك.. هدأ روعها، فقالت، بينما كنت اتأملك، رأيت ســيارة أقتربت منك، أُطِلقَ منها النار عليكَ، فرأيتك تخر صــريعا، تســاءل والآن أتشــكين بأني حي أرزق، ولم أصب باذى، ها انا ذا أمامك صــاغ سليم، ويدي الدافئة تحتضن يدك الباردة، ضغط على اصابعها الرقيقة بقسوة، فسحبت يدها متأوهة.

- انت تؤلمني، اين سنذهب.
- لوسط البلد، لمطعم شعبي كما وعدتك البارحة.

استقلا سيارة اجرة، وفي الطريق، سألها لنفترض ان ما رأيتِ لا قدر الله كان حقيقيا، وليس وهما كما تصوره عقلك.. شوفيني راح شلون تتصرفين، وسأعرف مســتوى كفاءتك في التعامل مع الحادث، لحظة وقوعه، ســأكتشــف نقاط القوة والضعف في شخصيتك، اتسمحين لي ان اقاطعك أثناء كلامك، هزت رأسها بالإيجاب.

بدأت بشــرح ما ســتفعل، إذا ما أُغتيل زوجها امام عينيها، فإنها ســتوقف ســيارة اجرة؛ تأخذها لفيلا الســـيدة الأردنية، التي تعرفا عليها وزوجها، في مدينة جرش الأثرية، ســألها، وإذا لم تكن في البيت، قالت ســأتصــرف في موقف كهذا، ولكني متأكدة من وجودها في هذا الوقت من الصباح، فرد نوح وماذا بعد، غشت سحابة حزن وجه سيناء، وقالت انها سترتمي باكية بين ذراعي السيدة، تخبرها انها فقدت منذ قليل اعز انسان في حياتها، نظر اليها نوح متعاطفا وقال، فماذا بوسع إمرأة ان تفعل غير ذلك، في بلد تزوره اول مرة، نظر اليها بحنان، راحت الســـيدة تهدئك، وتزرع الامل في نفسك، وتتصل بزوجها تخبره بما حدث، وتقول لك اني لم أمت، وتدعو الله ان ينجيني وينقذ حياتي.

ما رأته سيناء كان غريبا، لم يكن يشبه احلام اليقضة، وليس كما حلمت هيلا، انها كانت في المنام تغســـل قميص زوجها الأبيض، فرأت بقعة دم على ياقته، وحدث لزوجها مقبل ما حدث، والعجيب أن ســـيناء كانت تحلم وهي واقفة وعيناها مفتوحتان، فرأت ما رأت. فأستغرب نوح من رؤيتها لكل ذلك، في غضــون ثوان قليلة. صمتت سيناء، لفت انتباهها صخب الشارع، وحركة الناس المتسارعة، غير المألوفة في حياتها في مدينة العمارة، الكل يجري بهوس جنوني وراء مصالحه الشخصية، وشؤونه الخاصة، تكلمت.. اتصلت السيدة بزوجها لتخبره بالحادث، ثم اســـتدعت ســـائقهم الخاص، وذهبت معي الى الفندق الذي نقيم فيه، سألها نوح وبعد..

إبتسمت سيناء وقالت، أنها اخذت المفتاح من مكتب الأستقبال وصعدت للغرفة، بينما كانت الســيدة تجلس في صــالة الأســتقبال، تخيلها نوح وهي تلم على عجلة، الملابس المبعثرة على السرير، والمعلقة في الخزانة، وتعثر على رزمة الأوراق، الوثائق التي بعثت في نفسها الخوف والقلق.. والتي خاطر بحياتهما من أجلها، ولم يقبل ان يتخلى عنها، تســاءل نوح، وماذا فعلت بالأوراق عندما رأيتها، هل فكرت بحرقها، او أنك احترت.. ماذا ستفعلين بها.. أتأخذينها معك ام تتركينها في مكانها.. برهة صــمت، اســتنكرت ســيناء ان يتصــورها متردده وخائرة، في هكذا موقف استثنائي، يتطلب اتخاذ قرار سريع وحازم، وأنها لو تصرفت كما تصورها، لكانت في منتهى الغباء، فكيف تترك او تحرق اورقا هامة، وفي الحالتين ستثير الشكوك

حولها، بل أنها ستتصرف بهدوء وذكاء فتضعها في الحقيبة، وتخرج مسرعة، كي تعيد المفتاح لموظف الإستقبال، وتستلم الجوازين منه، ذكرها نوح بوجود مشكلة تعترضها عند استلام الجوازين، وعندما تساءلت عنها، ذكَّرها بأنها قبل ان تستعيد الجوازين، عليها ان تدفع فاتورة الفندق، وهي ليس لديها نقود، انسيتِ ان النقود معي بمحفظتي.

وبخته..

- تلك مشكلتكم أيها الرجال، عدم الإعتماد على المرأة.. بدونكم تضيع عندما تواجه مشكلة كبيرة، ولكنني تداركت الموقف، وقلت للموظف، ليس معي نقود الآن، سيأتي زوجي ليدفع فاتورة الحساب، ويسترد منك الجوازين.
- رائع.. فكرة جيدة.

تعاطف معها.. انه كان موقفا محرجا، ان تقف إمرأة امام موظف الإستقبال وهي لا تمتلك النقود، سأكمل ما تبقى، كما كنت افعل عندما تسرد امي قصة من قصصها، اختار نقطة حرجة على مسار القصة وأكمل السرد..

وهكذا اتخليك عاجزة عن الدفع، ولكن السيدة الأردنية، تنقذك وتدفع الحساب، وتسترد الجوازين.. عدتما الى البيت، لم يكن السيد الأردني موجودا عند وصولكما.. وعندما عاد مساءً اختلى بزوجته وأخبرها بموتي، إغتيال سياسي، قُتل صديقهما العراقي نوح عبد الله الفرحان، الذي تعرفا عليه وزوجته منذ ايام قلائل، وانه أي زوج السيدة، تمكن ان يستعيد محفظة النقود، والصور الفوتوغرافية التي التقطناها بجرش، فقالت له السيدة زوجته، كيف سنخبرها بموته، فنقتل فيها بصيص الامل الذي تتعلق فيه..وتساءل نوح اثناء سرده، وهل ستنتهي القصة هنا باليأس الذي ملأ روحك بالقنوط، كلا.. لم تغمض عيناك تلك الليلة التي نمتِ فيها بفيلا السيد الأردني وزوجته، كنت تتقلبين في فراشك، حتى اشرقت عليك الشمس في اول أيام المحنة، وانت وحيدة ضعيفة.. قالت سيناء بحزن عميق.

- وحيدة وضعيفة، هذا الحال التي لا تتمناه كل امرأة في العالم.

أكمل نوح..

وعندما استيقظت السيدة، وجلست معها على مائدة الإفطار، لاحظت عليك آثار التغير المفاجئ ، ذبلت عيناك واصفر وجهك الجميل، تضافر السهر واليأس والحزن على تحطيمك.. مرة أخرى تقاطعة بحزن عميق:

- ماذا تتوقع إذاً.. امرأة شابة، غادرت وطنها مع زوجها، لأول مرة، لقضاء شهر العسل، فوجدت نفسها في مشكلة فوق طاقتها، وامام محنه لا قِبلَ لها بها.. اكمل نوح مداخلته كما كان يفعل مع قصص امه المشوقة..

اتخيلك في صباح اليوم التالي، جالسة على مائدة الأفطار، مع السيدة الأردنية، ، لم تمد يدكِ للطعام، اكتفيتِ بقدح الماء وفنجان القهوة، وكنتِ شاردة الذهن، تنظرين للسيدة، ولكنكِ لا ترينها، كان عقلكِ مشتت مبلبل، تائه في صحراء افكاركِ المتضاربة.. وقد بدأتْ السيدة تكلمكِ بهدوءٍ، تحدثتْ معكِ عن شيئين تفردتْ بهما المرأةُ دون الرجل، هما قوة الاحتمال والصبر، قالت لك، وبهاتين المزيتين فاقت المرأةُ الرجلَ في مواجهة محن الحياة.. وبرغم ما بدا عليكِ من الضعف والضياع، فقد استرسلتْ بالحديث، بفطنة وذكاء المرأة المثقفة، لترفع من معنوياتكِ، مستعينة برصيدها العلمي كتدريسية لعلم النفس، بالجامعة الأردنية.

ابتسمتْ سيناء.

- وهل نجحتْ السيدةُ أخيراً معي.

اكمل نوح سرده الموزاي لما يفترض ان يحدث لسيناء في بيت السيدة الأردنية.

اجل.. وأنكِ بدأتِ تستعيدين وعيكِ شيئًا فشيئًا، وتستوعبين الصدمة، وتحولت نظراتكِ الزائغة والتائهة الى حالتها الطبيعية، في تلك اللحظة انفجرتِ في عاصفة بكاءٍ صاخبٍ مريرٍ.. ازحتي حجرا او بضعة احجار من كتلة جبل القهر، الذي جثم على صدركِ وشلَ عقلكِ.. عند ذلك عرفت الدكتورة انها علامة إيجابية على خروجكِ من الصدمة النفسية القوية، التي تعرضتِ لها امام مبنى البريد المركزي، وأدت بكِ الى عدم الاستجابة عاطفيا مع الفجيعة، فجمدت مشاعركِ طوال الفترة السابقة. قاطعته سيناء، بنبرة حزينة.

- وأنني سأتقبل ان أكون ارملة شابة، أنزع فستان الفرح والبس ثوب الحداد على زوجي..

اكمل نوح سرده الموازي..

ولكن الخطوة الثانية التي ستقوم بها السيدة كما اتوقع، ستكون ذات طابع عملي، أكثرأهمية وفائدة من لبس ثياب الحداد. اتعرفين ما هي تلك الخطوة.

اجابت سيناء بتبرم.

- لا.. ماهي.

اكمل نوح سرده الموازي..

وضع قدميكِ على الطريق الصحيح، الخروج من المشكلة بإقل خسائر، أشارت عليكِ السيدة بالذهاب للمفوضية العليا لشؤون اللاجئين، لتسجيل قضيتك هناك، استدعت السائق وطلبت منه إيصالكِ للمكان، هناك قابلتكِ موظفة تتكلم الأنكليزية، تعاطفت معكِ، سألتكِ عما إذا كان لزوجكِ أعداء، او انه كان معارضا للنظام، او منشقا عليه، نفيتِ كل تلك التهم، أخرجت الأوراق وقدمتيها للموظفة، وقلت وانت تبكين.. قاطعته.

- لا لن ابكي ابدا امام إمراة اجنبية، سأقول لها، من اجل هذه الأوراق قتلوه، لا لن أقول ذلك.. مستحيل افعل ذلك.. لن اشتري حمايتي الشخصية وأمني ثمنا لدمك..
- وانا ايضا لن استخدمها لأشتري بها حريتي، ستقومين بترجمتها يا سيناء، ونحاول نشرها بصحيفة لا تستغل مشاكلنا لمصلحتها.
- سأفعل.

أكمل نوح سرده الجانبي .

اتخيلكِ تبادلين الموظفة نظرة طويلة، ربما كل منكما يتساءل مع نفسه، احقا من اجل حفنة أوراق يقتل انسان! وتساءل .. ولكن كيف ستعرف الموظفة بأهمية تلك الاوراق! الأوراق مكتوبة باللغة العربية! اجاب على تساؤله.. من الخبرة التي لديهم.. ستدرك حتما انها تحتوي على معومات خطيرة، هم يعرفون ذلك من خلال الذين يلتجأون إليهم لطلب الحماية.

تحمست سيناء عند تلك النقطة من الحديث.

- سأترجمها، كي تعرف الحقيقة الخفية فيها.
- وستقول لك هذا مخالف للتعليمات المعمول بها عندنا..
- ماذا سأفعل.

نظر اليها مبتسما، اكمل مداخلته، يا حبيبتي سيناء الم تعلمِ انه حتى تحين لحظة الكشف عما تحتوي هذه الأوراق، نستطيع الجزم ان الحقيقة منذ القدم وحتى الآن، هي بيت القصيد لمن يبحثون عنها، والمؤمنون بها، وبالمقابل هناك من يريدون طمسها، وهم الكافرون بها، هذا هو دأب اهل اليقين، وذات يوم اقسمت ان يهبني الله القوة كي أكون واحدا منهم مهما كلفني الامر. تمني لي ان انجز الوعد الذي قطعته على نفسي.

في تلك الساعة الصباحية الآذارية المشمسة، المشبعة بنسائم منعشة، تهب من الجبال السبعة التي تحيط بعمان، تفتحت شهية سيناء للإفطار، في أحد مطاعم وسط البلد، التي تقدم اكلات شعبية، بعد ذلك الخيال الجامح الذي سرح بها بعيدا، فرأت زوجها مقتولا، مكوما على حافة الرصيف، سألها فجأة.

- هل تصدقين يا سيناء أني سأُقتَلُ، انا نوح يا حبيبتي ولست سنوح المسكين..

قاطعته ضاحكة على الاسم الغريب الذي سمعته.

- ومن سنوح هذا.

راح يحكي لها قصته.. كان صبيا قصيرا جدا، ومصابا بتصلب الرقبة، بحيث كان يتعذر عليه الالتفات يمينا او يسارا، إلا إذا أستدار بجذعه الاعلى، كان يتفرج على الأولاد عندما يلعبون، فيدعونه للمشاركة، ولكنه كان يرفض دائما، امتاز بقدرته الخارقة على ركل كرة الخرق،عندما تنغمس بمياه المطر، داخل حفرة، فتصير ثقيلة، يركها بقوة على الأولاد فتتسخ ملابسهم، ويهرب سريعا، فلا يستطيعون اللحاق به، كان لا يجيد السباحة كمعظم اولاد محلتنا؛ المجاورة لنهر الكحلاء، الذين تعلموا السباحه وهم في بطون امهاتهم، او امتطاء الدراجة الهوائية كأقرانه الشياطين في الزقاق، فأخذ بعض الأولاد المشاغبين يسخرون منه، ويصيحون حين يرونه.. سنوح بالقبة ينوح.. فيهرع لأمه باكيا.. وما الذي ذكرك به.. رأيته عندما كنت في مدينتنا آخر مرة، فخطر على بالي الآن.. ولماذا.. الاسم يا سيناء،

نحن نتشابه بالاسم، عدا حرف السين الزائد، وما إدراكِ ما السين.. غريبة قصصك يا نوح.. وما ذنبي.. انا لم اختلقها، هي قصـــص واقعية، والواقع أحيانا اغرب من الخيال كما يقال.. أبتسـمت غير مصـدقة حكايته فقالت مشـكلة.. لا مشـكلة ولاهم يحزنون، هكذا الحياة، السنوح هناك في الوطن، ونحن مشردان هنا في عمان.

انفجرا ضــاحكين، حتى وصـــلا وسـط البلد، ترجلا من التكســي، دفع نوح أجرة الســائق الظريف، كان الرجل قد شـــاركهما المرح طوال الطريق، ســارا يدا بيد بمنتهى الســعادة، لمطعم قريب في رواق داخل الســوق، جلســا الى مائدة، كان المطعم هادئا، ليس كالعادة في ســاعات الصــباح الأولى، حيث يزدحم بالعمال، الذين يتنـاولون افطـارهم، قبـل الـذهـاب للعمـل، جـاء النـادل بطبقي الفول مع الخبز البلدي، وبقارورة ماء وكأسـين، صـفهم بإعتناء على المائدة، تناولا الطعام بشــهية وعلى مهل ، ثم شـربا الشـاي ، دفع نوح الحسـاب، وعادا للفندق يحلمان بيوم جديد وجميل، لا تعكر صفوه اخبار الحرب المفجعة وتداعياتها المفاجئة.

وفي طريق عودتهما للفندق طوق خصرها، ناظرا اليها بوله عاشق متيم، فضحته عيناه، بادلته نظرة ضـاحكة، تسـاءلت أن كان يذكر ألعاب الطفولة المحببه لنفسـه، ولماذا كنا نخطأ عمدا قبل ان تنتهي اللعبة التي نحبها؟

- ذكرتني يا سينائي، بأيام الطفولة، كنا نعيد أخطاءنا أكثر من مرة، لكي نطيل وقت اللعب أكثر، من أجل المزيد من المرح والضــحك، لهذا كل منا الآن يحب الطفل الذي يختبئ فيه، لأن أخطاءنا كانت مثلنا بريئة..

إنتهت

التظهير (الغلاف الخلفي)

- صـــحيح ان الحرب أربكت المســـارات، وأدت الى تداخلها ببعض، محدثة فوضـــى عارمة في جميع الاتجاهات، وضــبابية وعدم وضـوح في الرؤية، ابرز ما تنتجه الحرب؛ الغموض، الخوف وتجميد المستقبل.

الأولوية للحاضـر، لليوم الذي يعيشـه الانسـان.. ولئن كان لها دور هام في تجميد الرؤى المسـتقبلية لصـالح القوة والعنف، اللتان توارثهما الانسـان من عصـور غابرة، فأنها أيضـا أيقظت الضـمير على الإحسـاس بالآخر، الذي يواجه ن المصـير، فهي صـحوة، وسـط ضـباب الأحاسـيس.. فهناك مجالس العزاء تقام في كل مكان، في الازقة الضـيقة امام البيوت، حيث تنصـب الجوادر التي تسـد الطرق، يأكل فيها الفقير، وتسـمع فيها تلاوة القرآن، وتتبادل فيها عبارات المواساة، ويحتل الحزن مساحة اوسع في حياة الناس، للحرب وجه بشـع، ولكن فيها شـيء اخر أيضـا، يحسـب لها، الشـجاعة، التضحية، والألم المتوج بالروح الإنساني.